الهيئة المصرية العامة للكتاب

سلسلة الجوائز

سلسلة الجوائز ٧٠

رواية

٢ الكالباس

چان ديڤاسانياما

# نداء دينيتى

ترجمة : دكتورة نسرين شكرى

مراجعة وتقديم : رفعت سلّام

الكاتب: چان ديڤاسانياما، الكاتب الجابونى.

• ولد چان ديڤاسانياما بقرية صغيرة تقع فى محيط مدينة "موابى" جنوب الجابون عام ١٩٦٢ وهو أحد أبناء قبائل البانتو الجانوبية.

• أصدر "نياما" ثلاثيته على نفقته الخاصة بالجابون ثم سرعان ما حولته إلى أشهر كاتب بالجابون.
هو أحد أبناء قبائل البانتو الجانوبية.

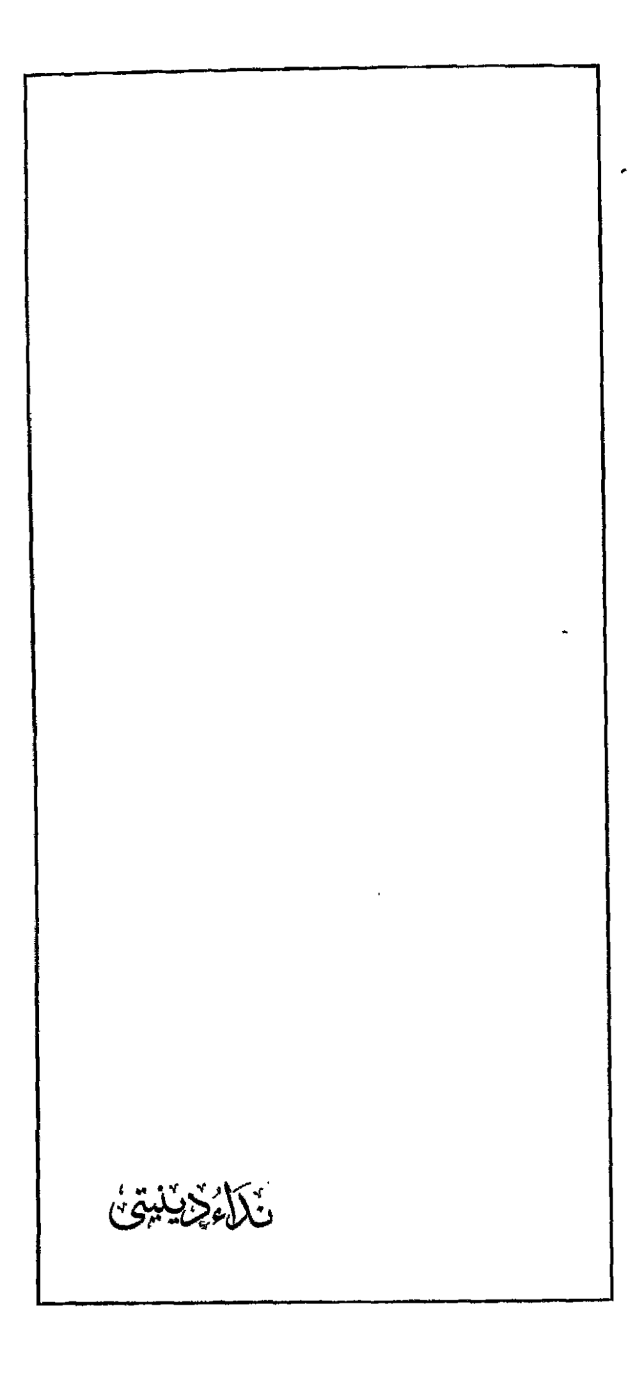
• درس التسويق ثم اتجه إلى المسرح وكون فرقة مسرحية عام ١٩٧٨ باسم "دويرا" شارك فيها بالكثير من العروض وهو يعيش حالياً فى "ليبرفيل" ويعمل مدرساً للغة الإنجليزية، ويدير مجلة أدبية تحمل اسم "ليردوتون"، كما أنه نائب رئيس اتحاد كتاب الجابون.

• هذه أول ترجمة إلى لغة أجنبية للثلاثية التى أضاءت الصحافة الأدبية الباريسية فى الأشهر القليلة الماضية والتى احتلت قائمة أفضل المبيعات وأهدت مؤلفها شعبية جارفة فى الجابون.

الجائزة: جائزة الأدب الكبرى لإفريقيا السوداء

جائزة أدبية تأسست عام ١٩٦٠، وتمنحها كل عام رابطة الكتاب باللغة الفرنسية وفاز بدورتها الأولى عام ١٩٦١ــ أى قبل مولد نياما بعام واحدــ كاتب ساحل العاج "كوت ديفوار" "أكى لوبا" عن روايته "كوكومبو، التلميذ الأسود".

وفى عام ٢٠٠٩ تسلم چان ديڤاساياما الجائزة فى دورتها الثامنة والأربعين وذلك بمقر منظمة اليونسكو بالعاصمة الفرنسية.


نداء دينى

ديفاساتياما، چان.

نداء دينيتي/ چان ديفاسانياما؛ ترجمة: نسرين شكري؛ مراجعة وتقديم: رفعت سلام .ـــ القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١٠.

٢٧٢ ص ؛ ٢٢ سم .

تدمك ٦ ٢٦٤ ٤٢١ ٩٧٧ ٩٧٨

١ ـ القصص فرنسية.

أ ـ شكري، نسرين (ترجمة)

ب ـ سلام، رفعت (مراجعة)

جـ ـ العنوان.

رقم الإيداع بدار الكتب ٤٠٣٩/ ٢٠١٠

I. S. B. N 978 - 977 - 421 - 264 -6

ديوى ٨٤٣

# نداء ديتي

## ٢ الكالباس (*)

رواية

## چان ديڤاسانياما

ترجمة: دكتورة نسرين شكرى

مراجعة وتقديم: رفعت سلام



الهيئة المصرية العامة للكتاب
٢٠١٠

---

(*) الكالباس Calebasse : اسم السلالة التى ينتمى إليها العم مآ. أما معناها المعجمى فهو ثمرة الكرنيب. وستتجلى العلاقة بين السلالة و«الكرنيب» فى سياق الرواية (المترجم).

• الكتاب: نداء دينيتى

(II)La Calbasse,

La vocat cationdeDignté

• تأليف: جان ديفاسا نياما Jean Divassa Nyama

• ترجمة: د. نسرين شكرى.

• مراجعة وتقديم: رفعت سلام.



• الطبعة الأولى ٢٠١٠.

• طبع فى مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب.

"فلتَرع أخوتك الصغار وأخواتك الصغيرات.
فلتكن لهم مثلما كُنتُ لك، مثالاً للطيبة والحنان".

**كامارا لاى**

**دراموس (بلون، ١٩٦٦م)**

# مقدمة

الأول من يونيو ١٩٦٢وُلد جان ديڤاسًّا نيامَا، بقرية صغيرة تقع فى محيط مدينة "موابى" (جنوب الجابون).

١٤ مارس ٢٠٠٩ تسلَّم جان ديڤاسًّا نيامَا جائزة الأدب الكبرى لإفريقيا السوداء، فى نسختها الثامنة والأربعين، التى تمنحها رابطة الكُتاب باللغة الفرنسية، وذلك بمقر منظمة اليونسكو بالعاصمة الفرنسية، باريس فى نفس الزيارة، بعد تسلمه الجائزة، كانت فى انتظاره جولة أدبية، ذهبت به إلى سَبع مدن فرنسية من أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب). جائزة نالها عن ثلاثيته الروائية "الكالباس": "رحلة العَم مآ"، "نداء دِينِيتِى"، "صخب الميراث"، التى ربما كانت هذه الترجمة العربية أول ترجمة لها- من أصلها الفرنسى ـ إلى لغات العالم.

وبين التاريخين.. تاريخ، وعُمرٌ، ورحلةٌ طويلةٌ شيقة فى أدغال الذَّاكرة والثقافة الإفريقية. لم يقطعها،

بل تخللته، حتى تجسدت فى روحه فى شكل أساطير وحكايات وأمثال وأغنيات شعبية وخزعبلات فاتنة.

قرية صغيرة تابعة لمدينة موابى، فى جنوب الجابون. لا يذكر أحدٌ اسمها، ولا يأتى لها على ذكر حتى مؤلف "الكالباس" نفسه، لتظل مجهولةً قابعة فى أحراش الجغرافيا والذاكرة. وحين وُلد نياما، كانت الجابون قد استقلت أخيرًا عن فرنسا، منذ عامين فحسب ١٩٦٠ بعد استعمار استمر أكثر من قرن كامل.

إذًا، فهو أحد أبناء قبائل البانتو Bantu الجابونية(١) حيث يسود الدين "البويتى Bwiti الدين المنتشر بغرب وسط أفريقيا، وخاصةً فى الجابون (التى يمثل فيها أحد الأديان الرسمية الثلاثة) والكاميرون (٢).

(١) البانتو Bantu: فئة عريضة من اللغات الإفريقية ذات الجذر المشترك، فيها يستخدم المصطلح أيضا للدلالة على أكثر من ٤٠٠ مجموعة عرقية فيما وراء الصحراء الإفريقية، من الكاميرون عبر إفريقيا الوسطى وإفريقيا الشرقية، وصولاً إلى إفريقيا الجنوبية، عائلة لغوية وعرقية مشتركة، ذات ثقافة مستندة على الأسلاف.

(٢) البويتى Bwiti: وهو نوع من الديانات «الأرواحية animiste التى تؤمن بوجود الأرواح لا لدى البشر فحسب، بل أيضًا فى الحيوانات والنباتات والصخور والظواهر الطبيعية، شأن الرعد، والتضاريس الجغرافية كالجبال والأنهار، إلخ. أما الدين «البويتى» الحديث، فيُدمج ـ فى نوع من التوفيقية ـ تلك المعتقدات بعبادة الأسلاف والمسيحية معًا فى نق اعتقادى واحد. ويقود طقوس «البويتي» زعيم روحي (رجل أو امرأة) يُدعي الـ «نجانجا N'ganga» كشخصية بالغة الأهمية فى الجماعات، ويمتلك معرفة عميقة بالشعائر والممارسات العلاجية التراثية، والرقًي والتعاويد. والطقس الأهم في هذه الديانة هو طقس «التلقين» أو «المُسارة»، حيث يتم تلقين الصغار مبادئ الدين في مراسيم خاصة. وثمة طقوس كثيرة علي امتداد العام تكريمًا للأسلاف. وتتم الطقوس علي ضوء هذه المشاعل، وأصوات الطبول وقيثارة نجومبى التقليدية، فيما يرتدي المشاركون ملابس ذات ألوان حمراء وسوداء وبيضاء. وثمة معابد خاصة للديانة البويتية بالعاصمة ليبرفيل.

فى هذه القرية، المغمورة بالأساطير وعبادة الأسلاف، والطقوس السحرية على إيقاع الطبول، وُلد نياما مع شقيقه التوأم، فى أسرة تضم ١٤ طفلاً. لكن الشقيق التوأم ـ المولود مُبتسَرًا ـ ما يلبث أن يموت، ليخلف غُصةً أبديةً فى حلق شقيقه، بلا عزاء أو نسيان:

"رواياتى هى رسائل أبعث بها إلى شقيقى التوأم المتوفَّى مبتسرًا. كان يُسمَّى "أوجول"، بمعنى "يدرك"، "يفهم"، وأنا "أولاب"، بمعنى "يرى"، "يلحظ"، "يشهد". ولم يشأ شقيقى التوأم المجىء لأنه أدرك البؤس الموجود فى مجتمعنا، والتعاسة التى تضرب قارتنا. لكنه طالبنى بالمجىء، وأن أقدم له ـ من وقت إلى آخر ـ ما هو جوهرى فى حياتنا اليومية. ولم يشأ أبواى منحى اسم "أولاب" كى لا أعيش ذلك الشعور بفقدان شقيقى التوأم". هكذا تكلم نياما:

"إن كتابتى هى رسائل أكتبها إلى شقيقى التوأم، لأريه حال المجتمع. لقد وُلد شقيقى التوأم مبتسرًا، ولم يعش. وأنا، مهتم بالإدلاء بشهادتى لهذا الشقيق التوأم، أى لكل أقرانى، كل البشر، والأجيال الجديدة. لكن كتاباتى متجذرةٌ فى الحياة اليومية للوطن. إننى أكتب أدبًا إفريقيًا لأنى أكتب انطلاقًا من حقائق إفريقية. إننى أنصت للناس، أسمع صراخهم، وأحاديثهم، بل ألاحظ حتَّى تأرجح أردافهم..."

لا نعرفه قبل هذه الثلاثية الفاتنة. لكننا ـ ربما لأول مرة ـ لم نكن وحدنا الذين نجهل موهبته الفذة

المكتوبة بالفرنسية، لغة الجابون الرسمية. فالأوساط الأدبية الفرنسية نفسها ـ فى باريس وغيرها ـ لم تكن لتعرفه، بدورها، قبل صدور ثلاثيته هذه، التى فتحت له ـ على الفور ـ أبواب الاعتراف الفرنسى، صعبة المنال، بموهبة روائية فذة، تقدم إلى الأدب الفرنسى نوافذ جديدة مُشرعةً على أخاديد الروح الإفريقية العميقة، والمجهولة.

فلم تسبقنا إليه باريس- المركز الثقافى للعالم ـ إلا بوقت قليل، شهور، قبل أن تكون هذه الثلاثية موضع ترجمة لأول مرة إلى العربية. إذًا، فهى حالةٌ نادرةٌ من المواكبة المعرفية نحسد أنفسنا عليها، هذه المرة؛ فلم نتأخر طويلاً.. كالعادة!

ومن عجب أن نيامًا قد أصدر ثلاثيته ـ فى البدء ـ على نفقته الخاصة بالجابون؛ لكنها ـ ما إن صدرت ـ حتى تلهف القراء والناشرون عليها، لتصبح ـ بين عشية وضحاها ـ نجمة الكاميرون التى تضىء الصحافة الأدبية الباريسية، وتُعقد لها ولمؤلفها الندوات وحفلات التوقيع فى مختلف المدن الفرنسية، ليدخل قاموس الأدب الفرنسى من أوسع أبوابه؛ فيما يتحول ـ فى الوقت نفسه ـ إلى أشهر كاتب بالجابون.

"لقد وُلدتُ من رَحِمِ الشفاهية. لكن من أجل التواصل مع الآخر، كان لابد من الدخول إلى الكتابة. وعندما كنتُ فى السادسة من عمرى، كان لدىَّ أصدقاء من أعراق مختلفة.. ولتحقيق التواصل معهم، كان لابد لى من الكتابة بالفرنسية. وفى عمر الرابعة

عشرة، نشرتُ نصوصى الأولى فى جريدة "الاتحاد L'Union" الجريدة اليومية الوطنية. بعدها، قلتُ لنفسى إنه ينبغى الدخول فى أمر آخر، أن أستثمر نفسى فى الكتابة الروائية لأترك أثرًا ما. وقد بدأتُ ذلك بـ"العم مآ"، وهى رواية كتبتها عام ١٩٨٥ونُشرت عام ١٩٩١.

لا أحداث أو وقائع كُبرى فى حياته تسترعى الانتباه. منذ صباه، أُغرم بتاريخ الجابون، والبانتو وثقافتهم. قرأ باندهاش كُتَّاب "الزنوجة"، من قبيل إيميه سيزار، ريتشارد رايت، ليوبولد سنجور. وعقب انتهائه من المدرسة الثانوية، درس التسويق؛ لكنه سرعان ما عاد إلى المسرح. "مثَّلتُ إحدى مسرحيات جيوم مبيا"، عن الزواج. وهو الموضوع الذى سيتماس نياما معه فى الجزء الثانى من هذه الثلاثية.

كوَّن فرقة مسرحية عام ١٩٧٨باسم "دويِرَا"، شارك فيها بالكثير من العروض. ويعيش مع حبيبته حاليًا فى ليبرفيل، العاصمة، مدرسًا للُّغة الإنجليزية. وفيما يتمتع بشعبية كبيرة فى الجابون، تتصدر روايات ثلاثيته "الكالباس" (رحلة العم مآ، موهبة دِينيتِى، صخب الميراث) قائمة أفضل المبيعات.

ولمدة طويلة، تعاون كصحفى مع صحيفة "لونيون LUNION" ويدير حاليًا مجلة أدبية تحمل اسم " لير دو تومب  ."L'air du temps وهو حاليًا السكرتير العام ـ نائب رئيس اتحاد كتاب الجابون.

. فى عام ٢٠٠٧ افتتح مكتبةً على شرف أستاذ راحل. وأسس منتجعًا للكتابة حيث يمكن للكُتاب التعبير عن أنفسهم بحرية، ليقوم بعد ذلك بتحقيق التواصل بينهم وبين دور النشر.

لا أكثر من ذلك.

"لقد بدأتُ بالصحافة. لكنك ـ كما تعرف ـ فى إفريقيا، تَشترى الجريدة إن لم يوجد ورق تنظيف.. وأنا، أنا أثرٌ ما لشخصٍ ما. إننى أثرٌ ما لأبى وأمى. والكتابة تبقى. فمنذ المرحلة الثانوية، كنت أخطط لأن أكون مدرسًا للغة الإنجليزية وكاتبًا. إذًا، فقد حققت هذا الهدف. وفى مقتبل عمرى، اصطدمتُ بليوبولد سنجور، وكمارا لاى، وريتشارد رايت... وعندما يرانى الآن زملاء الدراسة، يقولون: "لم تخطئ".

فى الثلاثية، نقع على طريقة أخرى فى الكتابة، زاوية أخرى للنظر، واكتشافات لا تنتهى. فالعالم الذى يكتبه نيامَا لا يشبه عالمًا آخر؛ لا يشبه سوى نفسه، بلا افتعال أو غرائبية. ليس "الواقعية السحرية" لكتاب أمريكا اللاتينية، ولا الواقعية "المثقفة" لكتاب أوروبا، النفسية أو الوجودية، ولا.. ولا.. ولا..

فالعالم هنا لا يتم خلقه، أو تخيله، أو تصنيعه، أو "فبركته"، بما هو موجود؛ بل يتم اكتشافه بالعين المبصرة المفتوحة عن آخرها، والبصيرة القادرة على رؤية ما لا يُرَى، بالعين المجردة أو غيرها. فنحن لسنا بإزاء ما هو كائن، بل ما يكمن فى عمق هذا الكائن، ما

تطويه طبقات وطبقات من الأزمنة والأحداث والعقائد والتقاليد والأحلام والذكريات والكوارث.

ولا يتحقق الاكتشاف بالإسقاط الذاتى، بفرض ذات الكاتب على العالم وتحولاته، بقدر ما يتم من خلال "التواضع" الإبداعى إزاء هذا العالم الشاسع، المعقد، متعدد الطبقات، إلى حد الامتزاج. هذا "التواضع" ـ الذى يصبح هنا قيمة فنية، لا أخلاقية ـ هو ما يؤسس للبساطة و"العفوية المدروسة" (لا تزيُّدات أو ترهلات، أو استعراض ما لعضلات الكاتب الثقافية، أو أفكاره الذاتية. كل شىء فى موضعه، تقريبًا، بحجمه الدقيق، بما يعكس سيطرةً خفية كاملة على البنية والعناصر الروائية، بلا عشوائية).

يتم الاكتشاف من خلال الاستيعاب العميق، والتمثل الأعمق، لأدق التفاصيل الحياتية والشعورية والشعائرية، ودلالاتها المختلفة، المتناقضة أحيانًا؛ من خلال الإحاطة الأفقية والرأسية بتاريخ المكان، الكامن فى أعماق أهله، السابق والمتجاوز للكتابة، لا المكتوب فى الورق، هنا وهناك.

"يزعجنى فقدان الذاكرة، لأن الجابون لا تملك أن تُطور نفسها انطلاقًا من ثقافة شعب آخر. وإن لم تُعد الجابون النظر فى ذاكرتها، فلن تعثر على الآلية الضرورية لتطوير نفسها. لا أقول إنه ينبغى الانغلاق. إذ يجب أن نأتى بشىء معين إلى الآخرين، ليتمكن الآخرون من أن يأتوا لنا بمعرفتهم فى المقابل. لكن لابد من معرفة الذات. ذلك هو السبب فى أنى أعتبر

فقدان الذاكرة هذا خطرًا كبيرًا يدمر مستقبل الجيل الجديد. فالكثيرون من شبان الجابون لم يعودوا يعرفون أن يميزوا بين الذُّرَة والزوًّان. والآن، لدينا اثنتا عشرة قناة تليفزيونية. وأى شاب لا ينتقل بالضرورة من قناة إلى أخرى عن بصيرة. إنه يتشرب هذه الثقافة التى تعيد تشكيله، ولن يعود كما كان. ولن يقدم شيئًا إلى المجتمع الجابونى. لن يستطيع أن يفعل ما رآه فى هذه البرامج. ولن يتمكن بعد الآن من الإيمان بالأمثال والحكايات التى حكاها له جده وجدته.. اليوم ـ على سبيل المثال ـ ينبذ الكثيرون من الشبان معتقدات "البويتى"، رغم أن المنهج الثقافى هو نفس منهج الأديان الأخرى. لكنهم ينبذونه نظرًا لانتشار الكنائس، التى تقتل حتى معنى الدين الأرواحى".

حياة أناس بسطاء يتعرف خلالها الجابونيون ـ بل أبناء وسط إفريقيا ـ على أنفسهم. شخصيات جذابة، بخصالها الإنسانية العادية، اليومية، بلا رمزية أو تجريد؛ تجابه الفقر، والاستئصال، وفقدان القيم التقليدية، والخوف من المستقبل الذى تنسحق فيه الروح بهيمنة "الوافد". شخصيات من دم ولحم وأعصاب وهواجس وشكوك وأحلام ومشاجرات وسُكر وجنس وضياع.

هنا يتخذ التوحد بالطبيعة مرتكزًا أساسيًا. ليس التوحد الرومانتيكى بالطبيعة ـ التى غالبًا ما تتخذ شكل رمز سامٍ رفيع يتوجه إليه الخطاب، أو يلجأ إليه كملاذ فى لحظات اليأس أو ضلال الطريق؛ فيضفى

عليه الطابع الإنسانى، بما يعنى ـ فى الأصل- من علاقة استقلالية بين طرفين من طبيعتين مختلفتين. بل هو التوحد الحميم الشخصانى بالطبيعة البرية، الطبيعة الطبيعية، بما هى ـ حقًا وفعلاً ـ الأم والأخت والصديق. إنها ـ دون إسقاطات من ذات الكاتب ـ أحد أفراد الأسرة، بل ربما أكثرهم حكمةً وخبرةً ودفئًا. هى الحضن المفتوح أبدًا على الأعماق الإنسانية.

هو اندماجٌ عضوى بالطبيعة، شخصانى، بلا انفصال أو استقلالية. وهو ما يمنح الرؤية طزاجةً ونداوةً ماديةً لافتةً وغريبةً فى الوقت نفسه، بعيدًا عن التأملات الذهنية والإسقاطات الفلسفية المجففة. لهذا، تمتلك عناصر الطبيعة حضورًا قويًا، مهيمنًا، سواء فى علاقاتها ببعضها البعض، أو فى علاقتها بالذات. وفى الحالين، فهى عنصر مؤثر يدفع إلى تحولٍ ما، فيما يتسم بحيوية بالغة تجعل منه بؤرةً محورية.

وترتبط بالطبيعة قوة الأساطير وحضورها المفعم بالحيوية، المتعلقة بها ككل أو ببعض عناصرها المنفردة. إنها منبعٌ سحرى سرى للنص الإفريقى، وخاصةً أنها أساطير تمشى بألف ساق بين البشر وفى رءوسهم وخيالاتهم، وتقود خطاهم ورؤاهم فى الليل والنهار، وتنطق بألف لسان بحكمة العصور وخباياها وأحلامها وهزائمها.

أما الأسطورة المركزية فهى أسطورة الأسلاف المراقبين للحياة والأبناء، الذين تظل إشاراتهم ـ فى

اللحظات الحاسمة أو المأزومة ـ طوق نجاة. فالموت الذى أخذهم لا يعنى سوى حالة مغايرة من حالات الحياة واستمرارية الفعالية فى حياة الأبناء والأحفاد، بل فى الحياة بأسرها. إنهم عين الأبدية، وبصيرة اللانهائى، والخيمة الكبرى التى تلف الكون والوجود. ومنهم، تنبت وتترعرع الأساطير الفرعية الصغرى (هى ـ فى الحياة والكتابة ـ ليست بأساطير، بل حقائق وجودية، ذات فاعلية مؤثرة محقَّقَة، وليست متَخيَّلَة؛ فهى جزء حى من الحياة العقلية واليومية).

إنهم وجودٌ مواز للوجودى الحياتى العادى، ولابد من وضعه فى الاعتبار كل لحظة، كل قرار، كل طقس. هم الحاضرون الغائبون، دون أن يمس الغياب جلال الحضور وفاعليته. بل إن حضورهم ـ فى مسار حياة القبيلة والسلالة ـ أكثر فداحةً من حضور زعيم القبيلة، المحكوم بدوره بهم. فهم المرجع الأول والأخير، الجذر الأساسى للسلالة، الحكمة الأبدية التى لا يطالها النسبى والزمنى.

"حقًا، فالمرأة لدى "البونو" يجب عادةً أن تتزوج وتنجب أطفالاً. لكن أختها التى سلكت هذا الطريق طلقها زوجها. إذًا، فقد طرحت على نفسها الأسئلة المتعلقة بأساس التراث المتين. لكنها كمسيحية، فإن الأخت دينيتى والعم مآ لم يهجرا النزعة الأرواحية la nimisme لأنهما يعتبران محتواها إيجابيًا. ففى قريتنا، لا يتردد الكاهن فى تحية أبيه "البويتى"، والمشاركة فى الطقوس "البويتية"، ويقود الكنيسة يوم الأحد.. ومنذ

نهاية التسعينيات، يمكن إنشاد تراتيل "بويتية" جماعيًا، تثريها مضامين كاثوليكية. إن ممارساتنا توفيقية. ويمكن لنا أن نستوعب الآخرين فيما نبقى نحن أنفسنا".

يمثل العَم ماَ الشخصية المحورية للروايات الثلاث. هو سيد هذا العالم الذى يوقره الجميع، وينتظرون كلمته الفاصلة. ذاكرةٌ حية تمشى فى جسد رجل عجوز، أسهم ـ كمقاتل ـ فى تحرير فرنسا من النازيين (كانت الجابون مستعمرةً فرنسية آنذاك)، انتظارًا لوعد دى جول بمنح المستعمرات استقلالها.

ولا تناقض بين كونه مرجع السلالة ومرجعية الأسلاف؛ فمرجعيته مستمدة لا من السِّن، بل من محافظته على نواميس الأسلاف والأعراف والتقاليد، رغم أنف التحولات "المدنية" الجديدة التى تغزو الحياة التقليدية. فهو الذى يمكنه التوفيق بين الاثنتين، يمكنه اكتشاف المفازة غير المرئية التى ينفذ منها بينهما بلا صدام.

هو تقطير الخبرة الإنسانية لآلاف الأعوام، بلا صخب أو شعارات. وعىٌ مرهف بما جرى ويجرى. وسلامٌ روحى عميق إزاء لحظات التحول الفاصلة، فى حياته أو حياة السلالة.

هو "سيد الكلام". كلام متجذر فى المقدَّس، يسبقه صب الخمر إلى الأسلاف الذين لابد من إقناعهم باللحاق بالسلالة فى موقعها الجديد. تنتظم

الكلمات ـ بعد "تغطيتها" ـ فى لغة مثالية تستمد دلالتها الكاملة من تكاملها مع وسطٍ محيط، حيث صخب الطبيعة، الممتزج بصخب البشر، يتشكل فى نوع من التناغم التوفيقى المشبع بالروحانية. وتؤسس أرواح الأسلاف التقاليد المفترض تناقلها وتوارثها، جيلاً بعد جيل.

ليس شخصيةً مجردة، أو مفتعلة، أو ذهنية ـ رغم أنها تمثل "النموذج" الأعلى للجد الأكبر ـ بل هو إنسان من لحم ودم وأعصاب وذاكرة بلا غبار. شخصية حقيقية تحمل الجوهرى لدى إنسان الجابون وإفريقيا: حكمة الأجيال والأزمنة، والطيبة الإنسانية العميقة والمرهفة والآسرة.

أما بقية الشخصيات ـ الرئيسية أو الثانوية، أو حتى العابرة بصورة خاطفة، على نحو أوآخر ـ فتمتلك نفس السمات تقريبًا فى كيفية البناء، دون تكرار أو تنميط فنى. كأنها قفزت من الحياة اليومية رأسًا إلى صفحات الرواية، بغبارها وعرقها وأحلامها البسيطة، وأحيانًا التافهة، وأزماتها المتفاوتة؛ بروحها المرحة، الطيبة، أو سماجتها، أو عقدها النفسية الكامنة.

لكنه ـ رغم احتلاله لمركز الرواية وعالمها ـ ليس "بطل" الرواية؛ إنها "السلالة" ذاتها التى ينتمى إليها، لا الفرد، مهما علا شأنه وقيمته فى المحيط الروائى أو الاجتماعى، أو الاثنين معًا. فالسلالة ـ فى الرواية ـ تعلو الفرد وتتجاوزه، بما هو "خليةٌ" فيها، يطمح إلى تحقيق مُثلها العليا، والمحافظة على ركائزها، وذاكرتها،

التى تمثل له المرجع والقيمة الأعلى، وما يحفظ كينونته ويشعرها دائمًا بالتحقق والامتلاء.

هى سلالة "الكالباس"، بعاداتها وتقاليدها، بدينها وأساطيرها، بممارساتها وشخصيات أبنائها المتفاوتة، المختلفة، المتعددة فى التركيبة والنزوع والبنية النفسية والمكانة الاجتماعية.

إنها تحولات السلالة إزاء ما يتهددها من مخاطر واقعية، بفعل الزحف الدءوب للعناصر "المدينية"، إلى حد الاقتلاع المادى؛ حين يتم اتخاذ قرار بإنشاء مطار فى نفس موقع القرية، فلا يكون أمام السلالة سوى ترك القرية، والأهم ترك مقابر الأسلاف، باعتبارها أخطر أزمة يمكن أن تواجهها، وتعيد تشكيل مصيرها الراهن، وأجيالها القادمة.

فسؤال الرواية هو "الذاكرة" المهددة بالضياع النهائى، والتراث المهدد بالاندثار، والأسلاف الذين يهددون بإثارة الصخب للسلالة، عقابًا على النكران، وتركهم فى العراء بعد الهجرة من القرية الأصلية. وهو ما لا يستطيع "العم مآ" ـ على ما يمتلك من خبرة الأجيال وحنكة الأزمات ـ أن يواجهه، أو يعثر له على حل ناجع. فحيرته تماثل حيرة أبناء السلالة الآخرين المشغولين بسؤال المصير.. بلا إجابة.

لكن البطل الحقيقى السِّرى للثلاثية هو "سحر الحَكى"، المهيمن فى خفاء على صفحاتها. حكاياتٌ واقعية جرت هنا وهناك، وحكايات أسطورية محفورة فى الذاكرة، ووقائع تحدث على طول مسار السرد،

وقصص الأسلاف. وكل حكاية قطعة فريدة لا تكرر أخرى، تكتنز بالعبرة، وتكشف ملمحًا أو وجهًا منسيًا، وتختصر ـ فى متعة ـ آلاف الصفحات والأفكار، بلا مباشرة أو ادعاء.

فخط السرد الرئيسى الذى يشق طريقه فى أجزاء الثلاثية ـ كساق شجرة سامقة ـ يتمخض، كل حين، عن حكاية فرعية منبثقة منه، دون أن تعرقله أو تتحول إلى عبء عليه. هى غصون الشجرة المنبثقة فى كل اتجاه، دون أن يشبه أحدها الآخر، ودون أن يصبح أحدها شجرة مستقلة فى ذاته تغطى على الشجرة الأم. حضورٌ قوى متناسب، ومتمايز، للشجرة الأم وللأغصان المنبثقة منها.

حكايات خرافية مستمدة من الذاكرة والماضى العتيق، وحكايات معاصرة وقعت لهذا أو ذاك من شخوص الثلاثية، وحكايات شهدها أحد الشخوص. نهر لا ينضب من حكايات، ذات منابع متعددة، فى الأزمان وطبقات الوعى والأحداث والتحولات. كل حكاية تكشف بُعدًا من العقل الواعى واللا واعى القائم، أو تعرى الحافز على السلوك أو رد الفعل، أو تضىء طبيعة البنية السلوكية والذهنية.

حكايات يقدمها المؤلف ـ على لسان هذا أو ذاك ـ بتفاصيلها الطريفة، وروح الدعابة والمفارقة الكامنة، بلا فظاظة أو افتعال أو استظراف، أو خفة. وتمحو روح الفكاهة كل نزوع تراجيدى أو ميلودرامى. فثمة مسافة بين الراوى والحدث والشخصيات تسمح بنفى

التوحد مع الشخصيات والأحداث، والتقاط المفارقة المضحكة، الدالة.

لكن الشجرة تُنبت أيضًا ـ وسط أغصانها الحكائية- أنواعًا أخرى من الثمار المحلية اللاذعة: الأمثال الشعبية، والأغانى، والأناشيد، والحِكَم، والأمثولات، وأحكام العُرف والتقاليد، متخللةً فضاء الحَكى، فى مواجهة الأحداث والأزمات المتوالية وتحولات الظروف المتفاوتة. ثمارٌ تمنح السرد مذاقات لاذعة حينًا، وحينًا فاتنة العذوبة، فيما تمنح الرواية تعددًا ثريًا فى التضاريس الروائية، وخصوبةً لافتة فى بنيتها التحتية.

ولا تصادم، فى روايات الثلاثية، بين "الوافد"- المنتمى إلى الثقافة الغربية عمومًا ـ و"الموروث" ذى الجذور الضاربة فى الحياة المحلية. لا "صراع حضارات" أو أفكار أو ممارسات. بل هى نوع من "التوفيقية" المؤسسة على "توفيقية" الدين والمعتقد "البويتى" ذى الأبعاد والمنابع المتعددة، والقابل- بالتالى- بحضور "الآخر".

فالعَم مآ نفسه ـ ذاكرة السلالة وحافظ العُرف والتقاليد ـ قد تم تعميده مسيحيًا، ولا يرى غضاضةً فى أن تتحول حفيدته إلى راهبة. ويتردد على الكنيسة- يوم الأحد- جميع أبناء القرية، يقومون بالطقوس المسيحية الرسمية، فيما يمارسون- فى الوقت نفسه، بالتوازى- طقوس الدين "البويتى"، الأصلى.

ذلك ما ينطبق على التوازى بين "النجانجا" ـ المداوى التقليدى ـ وطبيب المستشفى. فالنمطان قائمان، يلجأ إليهما الأهالى بصورة عادية، فى الوقت نفسه، دون أن يلغى أحدهما الآخر، أو يسعى لنفيه. فـ"المطبِّبون يمثلون ماضى إفريقيا. وهم مضطرون للعمل سِرًا فى المستشفى، لأنهم لم يدرسوا مثلى فى مدرسة للبيض. إننا نعتبرهم بلا قيمة. لكننا نعرف تمامًا أن الطبَّيْن يتكاملان"؛ هذا ما تقوله إحدى الشخصيات الرئيسية.

وربما تنشأ الحالة الاستثنائية فى ذلك، عندما يقرر المسئولون ـ فى "صخب الميراث" ـ بناء مطار فى نفس موقع القرية، التى تتم إزالتها، وتهجير أهلها إلى موقع آخر. فإذا كان الأهالى سينتقلون إلى القرية الجديدة، فماذا عن الأسلاف؟ ماذا عن مقبرتهم؟ وماذا عن رد فعلهم الساخط على أهل القرية الذين هجروهم فى الوراء والعراء؟

وما يمكن أن يكون أحيانًا من "تعارضات" ما، فيمكن اعتبارها ثانوية، من قبيل الموقف من "طبيب النساء" (فى "رحلة العم ما")؛ ورفض البعض السماح لامرأته بأن يمسها "رجل آخر"، حتى وإن كان طبيبًا (ليس موقفًا من "الطب الحديث"، بقدر ما هو موقف من سلوك الطبيب، الذى ضبطه أحدهم يعبث بامرأته فى غرفة الكشف، بدعوى اكتشاف المرض. والطريف أن الرجل وجد زوجته مستمتعةً بما يفعله الطبيب بها!). لكن لجوء "العَم ما" نفسه إلى المستشفى- لا

إلى "النجانجا" ـ وعلاجه الناجع بها، يقدم الموقف الحاسم فى هذا الصدد.

ولا يستشعر القارئ أن ثمة موقفًا مسبقًا، أو انحيازًا ذا بال من المؤلف إلى أحد الاتجاهين. فثمة توازن دقيق، مرهف، لا يميل.

لكن ثمة تخوفات عميقة لدى الآباء والأجداد- الذين استطاعوا التوفيق بين "الوافد" و"الموروث"، فى بنية تصالحية مشتركة ـ من نزعات الأجيال الجديدة المشدودة بقوة، وبلا وعى، نحو "الوافد"، بما يمثل التهديد الأقوى لاستمرارية التقاليد والأعراف القائمة على مركزية الأسلاف. فـ"نحن مُرغمون على الغوص فى ماضى أجدادنا من جديد. فذاكرتهم تستحق التنقيح من أجل منح الشبان الذين يتبعوننا علامات إشارية جيدة. وهو ما يقودنا لطرح كل هذه الأسئلة. ألا يبنى الماضى المستقبل؟ وماذا سيتعلم هؤلاء الشبان من خمس إلى عشر سنين، إن لم نقم بتوجيههم؟ ما المجتمع الذى سينتجونه لنا؟ ذلك هو السؤال المُحيِّر.."؛ هذا ما يقوله ديمونج، المتعلم بمدارس البيض.

"ما من شعب يعيش بلا ماض. فكل مدينة، شأن كل أُمة، شأن كل إنسان، له تاريخه؛ لكن تاريخ الحرب يُكتب دائمًا بأيدى المنتصرين". وهذا ما يقوله سيد المكان والميراث، سيد الذاكرة، العم مَآ.

فالهواجس والتخوفات بشأن زوال التراث والماضى والأسلاف ـ بفعل "المدنية" الكاسحة ـ

ترفرف بنعومة على مناخ الرواية الثلاثية، وفى قلب شخوصها المختلفين، المتفاوتين فى الوعى وتركيب الشخصية، وخاصةً لدى "العَم ماَ"، رغم قدرته الذاتية ـ المتحققة عينيًا ـ على التوفيق. إنه التهديد بالضياع الروحى العميق؛ حيث لا تمثل "المدنية" المقترحة القادمة بديلاً كفأً، عميقًا، لما يتهدده الفقدان.

هنا ـ من هذه الزاوية فحسب ـ تصبح "المدينة" هى المصدر المكانى المباشر لهذا التهديد، بما تمثل من جذب لا يقاوَم لشبان القرى، كأنها الفردوس المستعاد، ومن خطر على الذاكرة، باعتبارها أداة النسيان القادم، ومحو الذاكرة. ولكنها- فى المقابل ـ لا تقدم لهؤلاء الشبان، فيما عدا المدرسة، إلا الانحراف والإدمان والجريمة والموت.

لكن الثلاثية لا تتورط فى تبنى تلك الثنائية الرومانتيكية الشهيرة، بوضع "المدينة" فى مقابل "القرية"، والمجتمع "الحديث" فى مقابل "التقليدى"، و"التراث"- بالتالى ـ فى مواجهة "الحداثة". فلا أحادية ـ أو تبسيطية- فى الرؤية والنظر. فالعَم ماَ ـ الذى اعتنق المسيحية الوافدة عن طيب خاطر، وأعاد القِس تزويجه مسيحيًا فى شيخوخته ـ هو مَن لجأ إلى مستشفى العاصمة ليُعالج فيها ويستعيد صحته؛ دون أن يكبت مدائحه المتوالية لما لقيه من عناية طبية هناك.

فليس ثمة "رفض" أو "تصادم" مع "الوافد"، لكنه الخوف من زوال الميراث الطويل والعميق للأجداد،

الذى يشكل العمود الفقرى للروح الإنسانية. إنه الميراث الذى يتمسك به العَم مآ، ويحرص على تلقينه للصغار، رغم توافقه الشخصى مع ذلك "الوافد".

وما لا يقوله المؤلف ـ لكنه يقدمه فى ثلاث وقائع على الأقل، فى الرواية الأولى "رحلة العَم مآ" ـ أن اللغة "الوافدة" (الفرنسية) هى أول ما يتهشم فى أية لحظة استثنائية، عابرة، لتفقد ماهيتها ودورها الوجودى، كأداة تواصل بين الناس، رغم مرور قرون على وجودها فى المجتمع المحلى. إنها تنفرط، تتشظَّى، متجاورةً أو متراكمةً، كذرات رمال، بلا تماسك أو سياق، منقطعةً عن جذورها الأصلية ـ من ناحية ـ وعن تمثلها المحلى، من ناحية أخرى.

ففى لحظة الأزمة، تفقد الشخصيةُ اللغةَ "الوافدة ـ الفرنسية"، التى تنفرط إلى مفردات متجاورة غير متناسبة أو متسقة مع بعضها البعض، حيث لا يؤدى "الفعل"- المنطوق مُحرَّفًا ـ أى فعل، وكذلك "الفاعل" لا يقوم بدوره المعهود فى "الفعل". لا علاقة بين الاثنين سوى التجاور فى جملة "مفترضة" واحدة لا تماسك أو اتساق فيها، لغويًا. والجملة المفترضة مهشمة، متشظية، معجونة، بلا قواعد أو هجاء.

ولا يفوت القارئ ما أتى به الروائى من شخصيات لا تجيد "الفرنسية"، فتقوم ـ فى حديثها ـ بعملية تدمير شاملة لجميع عناصرها، ابتداءً باللبنة الأولى: المفردة، وصولاً إلى بنية الجملة، لتصبح اللغة

مجرد شظايا متناثرة متنافرة متجاورة، لا يتم التقاط المراد منها إلا بشق الأنفس(*) فهل يعنى ذلك أن "الوافد"ـ الذى استغرق قرنًا من الزمن للانتشار وغرس جذوره ـ ما يزال مشروطًا بـ"المحلِّى"، ولا تزال جذوره سهلة الاقتلاع؟

إذًا، فهى ـ بذلك ـ لغة لا تصمد للأزمات العابرة، فتطيح الأزمة بها وبأركانها، وجوهرها؛ بما هى لغة "وافدة" مما وراء البحار، فرضها المستعمر بحضوره العسكرى. لا يقول المؤلف ذلك، لكنه يفعل– روائيًا، لغويًا– ما يبرر الاستنتاج.

لكن اللغة العامة للرواية، ولغة الشخصيات المختلفة، لا تعانى من هذا التهديد؛ لغة تبدو بسيطة، لكنها تختزن ـ فى آن ـ إمكانيات الفرنسية الأدبية والطاقات الحيوية الكامنة فى "الشفاهية" المحلية، بلا فواصل لغوية، لتنتهى إلى لغة متعددة المستويات، تستجيب للشاعرية والفانتازيا بقدر ما تستجيب للحديث اليومى والشتائم البذيئة بلا تناقض أو ارتباك.

---

(*) في أربعة مواضع، بالجزء الأول من الثلاثية «رحلة العم مآ» يقوم المؤلف بتهشيم اللغة «الفرنسية» عن قصد فني، علي لسان بعض الشخصيات «العامية» التي لاتجيدها، أو تمر بحالة استثنائية كالسكر أو الغضب البالغ، فتنطقها بصورة بالغة التحريف؛ فهجاء الألفاظ ـ أسماء أو أفعالاً ـ مُحرف ومشوهً و «تصريف الأفعال» لا يتوافق مع أية قاعدة نحوية، وبنية الجملة مختلة اختلالاً فادحًا. وقد التزمنا بنفس النهج «اللغوى» ـ أي «تهشيم اللغة» عند نقلها إلى العربية ـ باعتباره سمة أسلوبية معبرة عن بعض الشخصيات الروائية، وربما المجتمعية، في الواقع الجابونى والإفريقى عامة. (المراجع).

لا إنشائية أو نزوع إلى بلاغة أدبية تثقل الجُملة، فبلاغة اللغة هنا تكمن فى "البساطة" المحسوبة، الدقيقة؛ وخاصةً أن جميع شخوص الرواية الثلاثية ينتمون- فى غالبيتهم- إلى فئات الفلاحين والصيادين. ولا يتعالَى "الراوى" فى لغته على اللغة العامة المستخدمة بين غالبية الشخصيات؛ لا يصنع فجوةً لغوية أو ازدواجًا لغويًا ما؛ بل تقترب لغته من عالم الشخصيات، وقدرتهم اللغوية، بلا نتوءات أو افتعال. إنها عبقرية البساطة؛ أو كأن إحدى الرسائل تريد لفت انتباهنا إلى أن الجوهر لا يكمن هنا، فى البلاغة اللغوية التقليدية، بل فيما يتجاوز هذه "البلاغة اللغوية".

عملٌ روائى لا يُستنفَد، أو يُستهلَك. واكتشاف إبداعى فى هامش العالم المنسِى فى الأدغال، يُثبت أن "القوى الكبرى" ـ فى السياسة والاقتصاد العالميين ـ ليست "القوى الكبرى" فى الإبداع الأدبى المعاصر (ذلك ما تثبته ـ على الأقل، فى السنوات الأخيرة ـ قوائم الجوائز العالمية: "نوبل" و"بوكر" و"جونكور"، وغيرها). فمَن ذا الذى كان ينتظر أن تأتى هذه التحفة الإبداعية من الجابون، التى لا يدرى الكثيرون موقعها على الخريطة؟

تحفةٌ إبداعية بحق، تضمن لمؤلفها مكانةً مرموقة فى آداب العالم، وتضمن لقارئها متعةً ومعرفةً بلا حدود أو انتهاء.

# مراجع المقدمة

Jean Divassa Nyama, La calebasse, Trilogie Romanesque (Oncle Mâ, La vocation de Dignité et Le bruit de l'héritage), Editions NDZE,

Jeanne-Marie Clerc, Jean Divassa Nyama ou la réappropriation des cultures endogènes, http://dialnet.unirioja.es/servlet/articulo?codigo=2751836

Jean Divassa Nyama, défenseur de la mémoire du Gabon, Interview de l'écrivain de passage à Paris Jeudi 22 mars 2007, par Franck Salin, HYPERLINK "http://www.afrik.com/article11401.html" http://www.afrik.com/article11401.html

Léa Barbat, RENCONTRE AVEC UN ECRIVAIN AFRICAIN,( HYPERLINK "http://www.e-sens.fr/spip.php?article695" http://www.e-sens.fr/spip.php?article695).

Alice Granger Guitard, Le bruit de l'héritage, Jean DIVASSA NYAMA HYPERLINK "http://www.e-litterature.net" \t "_blank" (www.e-litterature.net).

Participation du Gabon au Salon du livre de Paris,

Jean Divassa Nyama invité, L'UNION du 17 mars 2003.

HYPERLINK "http://fr.wikipedia.org/wiki/Bantous" http://fr.wikipedia.org/wiki/Bantous

HYPERLINK "http://en.wikipedia.org/wiki/Bantu_peoples" http://en.wikipedia.org/wiki/Bantu_peoples

HYPERLINK "http://en.wikipedia.org/wiki/Bwiti" http://en.wikipedia.org/wiki/Bwiti

# تنويه

يستخدم المؤلف، كاسم علم، سواء بالنسبة للأماكن أو الشخصيات، كلمات ذات دلالة محددة فى سلالات بونو، فيلى، ميينى، وجتسوجو. وقد بدا لنا من المهم ترجمتها، خاصةً وأنها مرتبطة بالمضمون، وأحيانا بنوع من الدعابة.

والكلمات المائلة المرقمة تحيل إلى الملاحظات فى أسفل الصفحة.

الناشر

وقد رأينا الاحتفاظ بالهوامش، كما وردت فى الأصل الفرنسى. أما ما رأينا إضافته من هوامش ضرورية،فتمت الإشارة إلى أنها من عندنا، على سبيل التمييز.

المراجع

## ـ ١ ـ

الشمس حارقة، الهواء جاف، الهواء جاف، والأراضى قاحلة. فمنذ سبعة أشهر، لا مطر ولا حتى ندى. انخفضت مياه النهر؛ وجذور شجر المنجروف بدأت تبين أكثر فأكثر؛ والصغار يستحمون بسهولة. أما فى مجارى روافد النهر الناضبة، فجفت نباتات النيلوفر. وعلى الشواطئ، تعرت الأشجار من أوراقها.

جالسًا فى ظل نخلة، تساءل العَم مَآ [١] "ألم يحدث هذا الجفاف بسبب البِيض الذين يسيرون على القمر؟"

يعتقد سكان موِيل[٢] أن البِيض قد عكروا صفو سكينة الرب. فقد لوثوا السماء بقاذوراتهم: فهم يريدون استكشافها، يرسلون إليها آلات ضخمة، وفضلات، ومعدات، وحيوانات ومواد كيمائية.. إلى حد أن قاموا بأعمال حفر على القمر وأخذوا عينات من أرضه. يعتقدون أنهم سيعثرون ـ بهذه الطريقة ـ

(١) مآ : العم (العَم مآ هو النموذج المثالى للعم).

(٢) موِيل: النهر.

على الرب! لكنهم يرفضون الطريق الملكى: هكذا انصب غضب الرب على مويل.

ماتت الحيوانات من الظمأ والجوع. والكلاب هزلت، ونحلها المرض: جلودها مُبقَّعة ومغطاة بقروح مفتوحة بعظامها؛ وأقدامها مترنحة. يلاحقها الذباب، ويطردها أصحابها وقت الطعام، بسبب نتنها.

تترك الطيور البلد فى أسراب كاملة عند بزوغ الشمس، ولا تعود إلا فى المساء وقت الغروب. تطير بعيدًا بعيدًا، بحثًا عن أراض خصبة تستطيع فيها العثور على طعام لصغارها.

يستطيع العَم مَآ التمييز بينها عن طريق تغريدها ورفرفة أجنحتها. وكثيرًا ما توقف على الطريق لينصت إليها. ومع ذلك، فأحيانًا ما تختلط عليه أصوات الأشخاص بصيحات الببغاوات التى تنتشر فى هذا الجزء من البلد. ابتسم وحده: "ظننتُ أنى سمعت أصوات مونجُونجى(*) وأبنائه عند عودتهم من الحقول، لكنى أيقنت أنها عقعقة الببغاوات"، ثم عاود المسير.

فى مويِل، هذه الطيور مقدسة: مُحرَّم إيذاؤها أو قتلها. أسَرَّ العَم مَآ إلى حفيدته دينِيتِى بأنها قد أنقذت فلاحةً من مأزق بالغابة الاستوائية.

"ماذا فعلت؟"؛ سألته.

---

(*) مونجُونجى: اختلاط.

– كانت المرأة تسير بمفردها بمحاذاة الطريق، وسلتها على ظهرها. فجأةً، أحاط بها رجال غريبو الأطوار. كانوا يرتدون الخِرَق، ويطلقون شواربهم، وشعورهم كثة؛ أظافرهم طويلة كأظافر ديك. وعيونهم حمراء كعيون مُدخنى القنب. كانوا عصابةً من القتلة المسلحين بأقواس. سألوا الفلاحة:

"أأنتِ بمفردك؟

ـ لا! أنا بصحبة رفيقاتى.

ـ وأين هُن؟

ـ بقين عند النهر، يغترفن الماء.

ـ هل تستطيعين مناداتهن؟

ـ بالطبع، أيها السادة، فهن تقريبًا فى الطريق.

ثم أطلقت صرخة أليمة:

"هيًّا! هيًّا! أنا فى خطر".

ـ أوه! أوه!! أوه!!! أجابتها الطيور.

فى ذهول، فَر اللصوص. ومنذ ذلك اليوم أصبحت الببغاء صديقة الإنسان".

سُدًى استشار العَم مَآ جميع العرَّافين، ثم أرواح أسلافه، للعثور على حل لهذا الجفاف.

كحَل أخير، ذهب إلى مَآ نفولا، كاهنة المطر. هى امرأة عجوز، ذات نظرة ثابتة، وتكاد ألا تضحك أبدًا. تبث الخوف فى الأطفال. تلبس رداءً عجيبًا: ثوب

تقليدى تركه لها أجدادها. تمرر من حين لآخر يدها خلف رقبتها لتتحسس غليونها. ليس لديها سوى ضفيرتين على رأسها. تضرعت للآلهة وهى تمضغ حبات سوداء تبصقها نحو الأرض أو السماء لتستجدى عطفها.

جاءت مَآ نفولا إلى مويل بناءً على طلب العَم مَآ. أخذت وعاء وضعته وسط القرية. أحاطته برماد أبيض، وثبتت داخله ساطورًا بلا ذراع، نثرت حبات ملح فى النار فصدرت خشخشة أشبه بسقوط قطرات المطر على سقف من القش. بعد ذلك، وضعت يد العَم مَآ فى يدها، وتمعنت فى السماء. فى النهاية، أكدت له أنها ستمطر قريبًا. بل حددت أن الماء سيهطل بشكل عنيف على جميع أنحاء المنطقة.

فى ليلة هذا الطقس، وفيما كان العَم مَآ يجلس مع أسرته فى شرفة منزله، أخفت سحابة سوداء القمر. فهل جاء أخيرًا موسم المطر؟ حدق الجميع فى السماء حيث تتابعت سحب كثيفة. من ركن إلى آخر فى الأفق، تقاطرت السحب، تدافعت ثم تشابكت. اختفى القمر. هبت رياح ثقيلة محملة بالرطوبة. لم تعد الساعة التى يطلب فيها الصغار من الرب معاقبة الخائنين، الذين نطقوا بأسمائهم عند ظهور قرص القمر! العتمة شديدة، والريح تزيد من قوتها. تثير الأتربة وتهز أسطح المنازل. شيئًا فشيئًا، تلاشت الحرارة المحبوسة منذ شهور فى أحشاء الأرض. وخرجت روائح كثيرة من الأرض.

فجأةً، أمطرت. تساَّقط قطرات ضخمة. قُوبلت أولى قطرات المطر بالتهليل والتصفيق الجماعى. أطلق الصغار صيحات يُحيون مجيئها. خرجوا من الأكواخ، عرايا كالديدان، واستحموا فى الفناء. لم يعد البعض يستطيع فتح عينيه بسبب الألم الذى تسببه القطرات.

باغتت الأمطار العجوز تشيتولا (*) زوجة زعيم القرية، فيما كانت فى الدغل. قطفت ورقة قلقاس لتحمى نفسها بها، لكن بلا فائدة؛ وإذ أصبحت مبتلة حتى العظام، راحت ترتجف من البرد.

فجأةً، سقط ضفدع من السماء. كان من الضخامة إلى حد أن أُعجب به الجميع. أكان هدية من السماء؟

التمس العَم مَآ مرةً أخرى خدمات الكاهنة. مهمتها إعداد الضفدع وإطعامه للصغار. فهكذا، سيتحصنون من السحرة. هرست مَآ نفولا جوز النخيل لإعداد الجنيمبوى، وخلطت كل هذا بنباتات أخرى لديها القدرة على إبعاد البروق. ثم غطست الضفدع فى القِدر الكبير.

انتظر الصغار فى صمت، وهم جالسون فى دائرة، وسيقانهم متباعدة. يعرفون أن هذه الوجبة ستجعلهم مقدسين: ستبعد عن طريقهم السحرة ومن يرمون التعاويذ الشريرة، أولئك الذين يختبئون فى

(*) تشيتُولا: ضعه، أنزِله.

الشَّرَر، حيث ينتظرون هطول الأمطار ليصعقوا الأطفال والأشخاص الذين يكرهونهم. فى النهاية، جاءت مَآ نافولا. قدمت الوجبة وهى تغنى. أكل كلٌّ منهم بخشوع فى طبقه، ويعلم أنه ـ من الآن فصاعدًا ـ معصوم. ما كاد الأطفال ينهون وجبتهم، حتى التفوا حول مَآ نفولا ليشكروها على ما فعلته.

فى الصباح، القرية كلها فى عيد. برك المياه فى كل مكان؛ القرعات والقدور الفخارية أُعيد ملؤها بالماء. أصغر الجداول ـ شأنها شأن المجارى المائية ـ فاضت بالماء، وخرج النهر من مجراه ليفيض على الأراضى الجافة.

كرم العَم مَآ بلا حدود. ذهب مع الآخرين إلى بيتُوفَا(*) زعيم قريتهم.

"لقد جمعتكم هنا ـ قال بيتُوفَا بنبرة مهيبة ـ لنتفق على الفعل الذى سنقوم به لنشكر الأسلاف الذين منحونا الماء، مصدر الحياة".

قرروا إطعام الجَان، حتى يحظوا بصيد وفير من الأسماك والحيوانات. بدأت النساء على الفور فى إعداد الطعام. ترأست العجوز تشيتولا هذا الطقس. واقفة فى زورق، وهى ترتدى تنورةً بيضاء، وتضع حول رقبتها عقدًا من لؤلؤ. تغنى على إيقاع القيثارة، مرددة ترانيم. ولتختتم هذا الطقس، وضعت الطعام فى سلة.

(*) بيتوفا: الضفائر.

بعد بضع دقائق انتظار، أصبح الإناء فارغًا من محتوياته.

"تقبَّل الجان قرياننا".

سرعان ما لاحظ الصيادون خروج الحيوانات من أوكارها، فخرجوا والبنادق على الأكتاف.

تروح وتجيء أسراب السمك فى الدوامات، تناول الصيادون شباكهم، فكوا زوارقهم وأبحروا بحثًا عن سمك الجِرِى. تتردد النساء ليل نهار على شباكهن التى امتلأت بأسماك من شتى الأنواع.

كما تنبأت مَاَ نفولا، استمرت الأمطار، وسرعان ما أوشكت المنازل المطلة على النهر على الغرق. خيم القلق على الأملاك المهددة. والأم تشيبيندا(*) تخشى من ارتفاع منسوب المياه الذى لا يتوقف.

"لا أستطيع البقاء فى منزلى أكثر من ذلك، قالت. وفضلاً عن ذلك، فلم يعد لدىَّ خشب للتدفئة. فقد استنفدت كل مئونتى".

قررت الذهاب للبحث عن مخزونها من الخشب فى فويكا. كانت قد وضعته أسفل شجرة الحُميرة. وعندما وصلت أمام الشجرة الضخمة، فوجئت بأن كل شىء قد اختفى. مع ذلك، تذكرت أنها خبأته بقواقع المحار لتحميه من اللصوص. بالفعل، غرق خشبها تحت الماء. وبما أنها لم تعد تملك أية أخشاب، فهى مضطرة للملمته على حالته! عليها أيضًا أن تقطعه

(*) تشيبيندا: غياب؛ أسى.

إلى قطع صغيرة لتحمله. وفيما تقوم بحزمه، ارتفعت المياه ببطء إلى أن بلغت خصرها.

نظرت إلى المنبع، فإذا بثعبان له ريشتا ببغاء على رأسه ينزل النهر. كان يسبح مثل سمكة جِرِى. لم تعد تحتمل هذا المشهد. قد يكون الثعبان جميلاً، إلا أنها مذعورة. تركت هناك ما جمعته وهربت إلى الشاطئ. نظرت بحسرة إلى الحزمة التى تركتها تنساق مع التيار. لا تفهم لماذا اختار هذا الحيوان العجيب الوقوف فى طريقها. لا، فرغم حرصها على جمع ولو بضعة أغصان صغيرة لتعد حساءً طيبًا لزوجها، إلا أن الخوف تملكها بشدة، وقررت العودة إلى القرية وسلتها فارغة. فى تعاسة بالغة، طلبت من جارتها أن تعطيها بعض الخشب الذى تحتفظ به خلف كوخها.

فى الليل، حلمت الأم تشيبيندا بنفس الثعبان. كلمها عن حياة سكان النهر التى ستشهد قريبًا تغييرات هائلة.

"عَم مَآ! حلمت بالثعبان فى الليل. كان ثعبان فويكا، كما تعرف، الثعبان الذى منعنى من جمع أخشابى. قال لى إن شرًا سيحل بقريتنا. شَر كبير سيغرق فى الحداد سكان النهر. لكن ذلك ليس كل شىء، فوفقًا له ستكون هناك أيضًا أوقات سعادة".

أخذ العم هذه الرؤية مأخذ الجد. فيما يخص الشر، فكر أولاً فى العجوز تشيوكو(*) الذى يحتضر

(*) تشيكو: الصخب.

منذ ثلاثة أشهر. وأبناؤه الذين قدموا من المدينة يجلسون إلى وسادة سريره فى انتظار لحظة موته المُقدَّرة. أما الفرحة، فأمل أن تضع ابنته الحُبلى توائم لتزداد سلالته.

جاءت دينِيتِى.

"مساء الخير، يا عم مَآ!"

كان العَم مَآ شارد الذهن، فلم يفهم بعد المعنى المحدد للحُلم.

"مساء الخير!"، كررت دينِيتِى.

– آه، أهو أنتِ يا دينِيتِى؟ مساء الخير.

قل لى، ألم ترَنى قادمة؟

لا، كنت أفكر فى شىء آخر. لا أعلم إن كان علىَّ أن أبتهج، أو أنزعج.

أيمكن أن أسألك لماذا؟

ـ الأمر يخص أمك. أنت على علم بمسألة التوائم؟

نعم، وهل هو أمر مزعج؟

لا، على العكس! سيكون هذا بمثابة عيد لكل الكالباس. بالمناسبة، أتعلمين لماذا يطلق علينا قبيلة الكالباس؟

لا، يا عم مَآ، لم يقل لى أحد أبدًا.

إذًا، سأشرح لك. لعلمك، فلتعرفى أن جدتى -فى ذلك الوقت ـ التى كانت تُدعى بنج(*) كانت لا تزال شابة. كانت تمتلك مزرعة كبيرة. وكان ينمو فى حقلها الأنيام والبطاطس والخيار وأشجار الموز. لكنها كانت عاقرًا: لم تستطع أبدًا الإنجاب. وذات مرة، فى منتصف الليل، حلمت. زارها أحد أسلافها القدامَى، وأراها ركنًا بمزرعتها كان ينمو فيه الكرنيب.

"عليكِ بالذهاب إلى المزرعة"، قال لها.

كنت هناك بالأمس، ردت. لابد أن أنتظر على الأقل يومين قبل العودة. فأنت تعلم جيدًا كم هى بعيدة عن هنا! كما أنى متعبة بشدة، بل مريضة.

رغم ذلك، فعليكِ بالذهاب، وكلما أسرعتِ كان أفضل.

أولاً، ماذا سأجد هناك، فى هذا المكان؟

ستجدين، بجوار الشجرة الضخمة التى نسميها "موابى" ثمرتين كبيرتين من الكرنيب. ستغطينهما بعناية بورقتَى موز ستقطفينهما من أقرب جذع من النبع. بعد أسبوع، ستعودين لرؤيتهما. وفى ذلك اليوم، سأهديكِ أفضل هدية فى حياتك. احترسى! فعليكِ ألا تخبرى أحدًا بشىء.

رغم تعبها، استيقظت الجدة بنجى فى الصباح الباكر. كان ضباب كثيف لا يزال يلف القرية. والجو بارد. وجدت صعوبة فى إيجاد طريقها خلال هذا

(*) بنج: خشب جاف.

الضباب. شقت الأعشاب بقدميها. أزاحت نسيج العناكب الثابت على الأغصان كشباك. وعند مدخل منطقة عارية من الأشجار، سمعت أول زقزقة لطائر الحجل. لم تكن المزرعة إلا على بُعد نهرين وثلاثة جبال. هبطت الجدة بنجى أول جبل بسرعة فيل. فجأةً، ذُهلت لدى رؤيتها النهر فى حالة فيضان، فيما لم يستغرق مطر الليلة الماضية سوى زمن قطرة ماء. انهار الكوبرى الخشبى الصغير. بكت وحدها لأن الوقت أزف.

قررت الجدة بنجى العبور مهما كلفها الأمر. قفزت من صخرة لصخرة، وتسلقت جذع شجرة ميتًا انقسم فى الحال نصفين بفعل وزنها. سقطت فى الماء، تمامًا لحظة أن كان ثعبان ينزل النهر متتبعًا سرب أسماك. تشبثت بغصن شجرة حتى لا يجرفها التيار. فى النهاية، تمكنت من القفز إلى الضفة الأخرى. كانت الجدة بنجى ترتجف من البرد والخوف. أكملت طريقها. طلع النهار شيئًا فشيئًا، وتبدد الضباب بالتدريج. كانت قد عبرت حتى الآن النهرين والجبلين. عند سفح الجبل الثالث، سمعت صوتًا مدويًا. ظنت أنها أصوات رجال، لكنها عندما أرهفت السمع، تعرفت على صيحات قردة شمبانزى، مختلطة بنهيم الفيلة.

عند القمة، توقفت الجدة بنجى لتشاهد الغابة العظيمة التى تغطى سلسلة الجبال هذه بأكملها. كان الضباب يتحرك على ذُرَى الأشجار. لاحظت- عند

النزول ـ فواكه كثيرة ملقاة على الأرض. لها رائحة المانجو. قالت لنفسها إذا ما تسنَّى لها بعض الوقت، فستجمع بعضها فى طريق العودة، لإعداد صلصة الشوكولاتة اللذيذة. بلا توقف، تخطت الأغصان الصغيرة التى اقتلعتها الريح. فى الأسفل، استدارت إلى اليسار، فى الممر الصغير المؤدى إلى مزرعتها. لم تعد خائفة. كانت تسير بخطوات كبيرة، يقظة العينين. قطعت بشفرة ساطورها بعض الأغصان المتشابكة التى تحول دون طريقها. جاوزت سلحفاة صغيرة تأكل الفِطر. بعد آخر نخلة، بدأت مزرعتها. تعرفت على الكرنيب والشجرة الضخمة كما رأتهما فى الحلم. كان يكفيها بضع خطوات لتصل إليهما. لم يكن هناك شىء استثنائى، مجرد قرعتين، ضخمتين بالتأكيد، لكنهما كانتا شبيهتين بكل الأخريات. قطعت ورقتين من شجرة موز، ثم غطتهما. وضعت ـ فى النهاية ـ علامة على جذع شجرة وعادت أدراجها.

انتظرت الجدة بنجى أسبوعًا. فى اليوم الثامن، توجهت إلى الحقل فى الصباح الباكر. عند مدخل المزرعة، سمعت صرخات عالية، صرخات واضحة. توقفت لترهف السمع بانتباه. وعندما تقدمت حتى بضعة أمتار من شجرة الموابى تعرفت على بكاء طفل. تملكها الخوف. انهمرت دموعها. توجهت مباشرةً إلى الشجرة. كانت القرعتان قد انشقتا من الوسط، ووجدت طفلة رضيعة راقدة على أوراق الموز، وهى تصرخ. رفعت الطفلة ولفتها فى قماش أبيض.

ارتجفت الجدة بنجى من الخوف، لكن أيضًا من الفرح. غنت لها أغنية مهدهدة. ذلك هو طفل الكرنيب الذى منح اسمه لسلالتنا".

وجدت دينِيتِى هذه الحكاية رائعة، لكن لم يكن لديها الوقت لتقول له ذلك: دخل تآ فيليب، سائق المديرية، مويل بطريقة مرعدة، وتوقف أمام فناء العَم مَآ. سيارته مغطاة بالطين ومُسوَدَّة بالوقود.

"أصبح طريق نديندى وعرًا تمامًا منذ بداية الأمطار. فمياه السيول حفرت شقوقًا بالغة العمق. بالفعل، صدقنى، فأنا أسلك هذا الطريق رغمًا عنى".

هنأه العَم مَآ على براعته. السائق الآخر المولود بمويل، يا دونجوت، أصغر سنًا وحصل على رخصته مؤخرًا، ولا يقارن به فى مهارته. فلأنه اعتاد على القيادة فى المدينة على الأسفلت، فلا يستطيع القيادة على طريق موحل.

أوضح تآ فيليب أن السيارة الضخمة والقصيرة ذات العجلات الأربع المحرِّكة بمثابة قرة عين المديرية. فهى المواصلة المباشرة بين نديندى والنواحى الأخرى. بل يمكن القول إنها تجعل هذه المدينة على علاقة بالبلدان كلها، وهو فخور بذلك. ومنذ أربعة أعوام، أصبح الوحيد القادر على قيادتها: فهو مطلع على طريقة تشغيلها. ويؤكد أن لأذنه رهافة أذن الميكانيكى؛ وطبقًا له، فهو قادر على الفور على تحديد العطل والقطعة الواجب تغييرها، عندما تصدر صوتًا غريبًا.

"حقًا، يمكن القول إنى شِبتُ فى هذه المهنة! عندما تعلمتها، كنت أبلغ بالكاد الخامسة عشرة. واليوم، لى فيها خمسة وعشرون عامًا. ويمكن القول إذًا إنى قادر على قيادة جميع أنواع السيارات"، أكد فى فخر.

وخلال مناقشته مع أصدقائه، لا يتردد فى أن يريهم أن لديه الكثير من رخص القيادة.

قال العَم مَآ: "على الحكومة أن تخرج هذه الناحية من عزلتها، فلدينا الكثير من المشاكل. فالموظفون يرفضون ندبهم إلى المنطقة، لأنهم لا يتحملون الملاحة فى البحيرة، والطريق ليس ممهدًا. فى العام الماضى، تخلى مُعلِّم مدرسة عن وظيفته".

– هل يمتلك مدير المديرية يختًا؟ سألت دينِيتِى تآ فيليب.

آه! يا ابنتى، اليخت! أمرٌ غريب، لقد شب به حريق. يا له من حظ! فلو كنتُ بلا عمل، لكنتُ الآن فى عداد الموتى. لقد نجوتُ بأعجوبة.

يا!

ماذا حدث؟

– أعلن لك خبرًا جديدًا، قاطعتهم بيزانس. سنشهد قريبًا جدًا مناسبة مهمة.

ـ ما هى؟

ـ تدشين سفينة.

آه! سفينة! هل ما تقولين مؤكد؟

هى الحقيقة، إن أردت. فالراديو يقول إنها ستؤمن مواصلات نديندى. وأقول لك إن سيارتك ستبقى بالجراج بعض الوقت. على كل حال، انظر إليها، فهى تحتاج إلى إحلال وتجديد.

أنتِ تقدمين لى النصيحة، لكنى معتاد على هذه الخردة القديمة. فإذا أوقفتها، سأصاب بالشلل. وإن تركت المقود، فسأخاطر بأن يُحكَم علىَّ بجَز الأعشاب العالية بالمديرية. وأنا لست بعامل. أنا مهنى مؤهل. وتُعجَب النساء بى وأنا أقود هذه السيارة.

شعر تآ فيليب بوعكة بسبب هذا الخبر، وأرسل دينِيتِى لتحضر له كوب ماء. ابتلع قُرصَى نيڤاكين، وتمدد على أريكة الصالون.

يوم تدشين السفينة، أعلن الراديو عن حضور شخصية بارزة، وزير النقل والملاحة التجارية شخصياً. حُشد الجميع للمشاركة فى هذه المناسبة المهمة، الأطفال كما الآباء. احتشدت الجماهير على المرفأ. ارتدى التلاميذ زيهم المدرسى، برفقة معلميهم. التلاميذ سعداء بترك الفصول لحضور هذا الحفل، فيما المعلمون يعتقدون أن الحفل كان يمكن أن يُقام بدونهم.

"لا ضرر فى قضاء ساعة بعيدًا عن الفصول؛ قال المعلِّم ماكوسُّو(*) إلى زملائه؛ فالحفل لن يستغرق اليوم بأكمله".

---

(*) ماكوسُّو: الخنزير.

"الجو حار!"؛ اشتكى بعض الأطفال.

فجأةً، نزل الوزير من سيارته يتبعه المحافظ ومدير المديرية وقائد لواء الدرك. حيته الجماهير. قدمت له فتاة باقة ورد؛ وأنشد التلاميذ أغنيات وطنية.

قدم الخطباء مُداخلات كثيرة عن تنمية القُطر، لكن مجنونًا يُدعى موِيسُّو(*) قاطعهم. أمسك بعصا كأنها ميكروفون وصاح:

"هناك ثلاثة أشياء: الطريق، الكوبرى والميناء، من أجل إنعاش المنطقة، لكن لا تقولوا إنى مَن قلت لكم ذلك".

انفجرت الجماهير بالضحك. محافظًا على رباطة جأشه، أكمل الوزير خطبته. أشاح موِيسُّو المجنون بيده واختفى.

– "أهو مريض عقليًا حقًّا؟"؛ سأل العَم مَآ.

– هو بالتأكيد مريض، أجابه تآ فيليب. ولكنه يفكر مثل الآخرين. مضت أعوام على وجود العبَّارة. ونحن نريد تحسنًا ضئيلاً. فسكان مويل يعانون من مشاكل جمة. وعلينا التوسل للقائمين على المعديات ما إن يحل الليل. فهم لا يتورعون عن مضايقتك ليعبروا بك.

– بيزانس، ستبقى السفينة لأمد طويل، أليس كذلك؟ اعترضه العَم مَآ.

(*) موِيسُّو: الأبلهى.

لا أدرى. يبدو أنها هيكلٌ قديم أُعيد طلاؤه لتضليل أبصارنا.

- أوقفى ثرثرتك، يا بيزانس! قال المعلم ماكوسُّو. فرجال الدرك ليسوا صُمًّا. فلديهم آذان مرهفة. ألديكِ أحد ليرعى عائلتك فى هذا الوقت؟ ينبغى ترك مويسُّو المجنون يردد سخافاته.

مامبى(*) المراكبى الذى يجيء ويمضى ليل نهار بين ضفتى البحيرة، أسمى زورقه "مامبى الأثيرى". رسا- بابتسامة عريضة- بجوار السفينة الجديدة وأنزل السكان القادمين لمشاهدة التدشين.

أُعجب تآ فيليب بجمال السفينة. هذا القارب الجديد ضخم وعالٍ. زُينت بالألوان الوطنية. سُميت "البانيو" على اسم البحيرة التى تحد قرية العَم مَآ. توجه تآ فيليب إلى قمرة القيادة حيث أجاب القبطان، مرتديًا زيًا أبيض، عن أسئلته. هدأ من مخاوفه.

"حمولة السفينة كبيرة. يمكنها حتى نقل سيارتك، والبضائع من شتى الأنواع".

التقى تآ فيليب ببيزانس على كوبرى السفينة. تأمل حركة الأمواج. من حين لآخر يسحب أنفاسًا من سيجارته. يترك الرماد الساخن يسقط على يد بيزانس فتنتفض! اعتذر تآ عن ذلك، لكنها رجته ألا يدخن حتى عودتهما. أعطى إيڤوڤى، الخطيب اللبق، إشارة الرحيل فتركت السفينة المرفأ. بدأت الرحلة

---

(*) مامبِى : المزيلة.

البحرية بالتوقف عند "إدارة الغابات" قبل التوجه إلى نديندى. توقف الوفد- المؤلف من أعيان البلاد- عند جميع القرى الواقعة على امتداد البانيو. هناك، شرح إيفوفى للقرويين الهدف من زيارتهم. امتدح الوزير. قدمه باعتباره ابن البلد الذى جاء لفك عزلته: عمت البهجة. احتشد الجميع فوق الكوبرى ليتأملوا المشهد ويحيوا أصدقاءهم ومعارفهم.

من الآن فصاعدًا، ستنتهى الأسفار الخطرة بالزوارق، وستبقى سيارة تآ فيليب فى الجراج. سيستقل الجميع البانيو، تلك السفينة الرائعة. ابتهاج وبشاشة على شاطئ البحيرة.

## - ٢ -

رأت تشيبِيندا الآخرين متجهين إلى التدشين. تعلم أنها لن تستطيع اللحاق بهم، لأن عليها العناية بمونيقو(*) وليدتها الأخيرة. ستذهب لتحميمها بالبحيرة حسب نصائح المُداوى. أكد لها أنها إذا ما فعلت ذلك، فإن ابنتها- التى كانت هزيلة بعض الشىء عند الولادة- ستصبح عفية وأفضل صحيًا. تبتهج الآن برؤيتها فى صحة جيدة. الماء الذى ينساب على قدميها عذب ومنعش. والطفلة تبكى عندما تمرر أمها يدها على جسدها، وتسقط قطرات على شعرها المجعد.

لاحظت مونيقو علبة لبن تسقط. حثتها تشيبيندا على الإمساك بها، ثم أدركت الخطر الذى تدفعها إليه. حملت ابنتها ولفتها بمنشفة كبيرة. قبلت الفتاة التى تفوح منها رائحة الصابون الزكية؛ رشت على جسدها بودرة تَلك أمريكية لحمايتها من التسلخ. ابنتها بالغة الجمال حقًا، وتشع بالعافية والصحة.

---

(*) مونيقو: الجميلة.

عند العودة، مرت تشيبيندا بمنزل نـزِينجى[1] اكتشفت أن موفَنجى[2] صديقتها الأزلية، التى تزوجت حديثًا، تستعد للرحيل مع زوجها. علمت أنهما يرحلان للعيش فى نـزومبِى[3] توقفت سيارة "إدارة الغابات" أمام المنزل، ليقوما بتحميل متاعهما. كان لدى تشيبيندا بالكاد الوقت لتقول بضع كلمات، فيما كان الزوج مشغولاً بالطرود. متأثرةً، وعدتها موفَنجى بمراسلتها عند وصولها. أدار السائق السيارة، وصعدت موفَنجى، ومن خلال الشباك المفتوح، لوحت بيدها. تحركت السيارة، ولم تخلف وراءها سوى سحابة من دخان.

عند الوصول إلى الميناء، انضم الزوجان إلى بقية المسافرين المتوجهين إلى المرفأ حيث تنتظرهم العبَّارة. ذاهبين جميعًا إلى نزومبِى. يذهب توفيق، التاجر اللبنانى، لجلب بضائع لتزويد متاجره. على الرصيف، أنطونيو، أحد أقارب العم مَآ، متردد: فقد حلم بكابوس. فى اللحظة الأخيرة، عقد عزمه وقفز إلى العبَّارة.

تركت العبَّارة الميناء. تتراقص بتأثير الأمواج. المَد مرتفع: هذه أفضل ساعة لعبور مصب النيانجا. لم تقم موفَنجى أبدًا بسفر مماثل. ظلت ساكنة فيما كان الآخرون يستمعون إلى زوجها نزينجى، وهو يحكى ما

---

(١) نزينجى: اشتُمنى. أهنِّى.

(٢) موفَنجى: يفعل، افعله.

(٣) نزومبى: القَرض، السُّلفة.

حدث فى آخر حفل لرقصة المبويو. سخر من أحد المبتدئين، الذى وجد صعوبة فى رفع قدميه معًا بالاتساق مع باقى الراقصين، وتلوى المسافرون من الضحك.

ذهن موقنجى فى واد آخر. يراودها الحنين إلى أصدقائها وأرضها. تفكر بالأخص فى أمها وفى دينيتِى. فهذا أول فراق بينهم. انضم إليها نزينجى وجلس بجوارها. تحدث إليها عن البيت الجديد الذى سيؤسسانه عما قريب. قدم إليها صورة لمدينة نزومبِى. كانت ـ فى بداية الأمر ـ ميناء للمتعة. لم يكن يحتوى فقط على زوارق، بل أيضًا على سفن شراعية وسفن صيد جميلة يمتلكها مسئولو شركات البترول.

على المقعد الآخر، يغيظ أنطونيو التاجرَ بسخرية لاذعة، والمسافرون ينفجرون بالضحك. يتحدث توفيق بصعوبة لغة البلد، بل حتى تعبيره بالفرنسية يفتقر إلى السلاسة.

– "أنت تبيع خردة"، قال له أنطونيو.

أنت ترتدى جميع منتجات متجرى، أجابه.

المياه زرقاء، تصعد أسماك القرش إلى السطح ثم تعود لتختفى.

أشعل اللبنانى سيجارة، ثم أخرج نفخة دخان قبل أن يتمدد على مرتبة. رداؤه الفضفاض يغطى المساحة بأكملها. طلبوا منه بضع زجاجات بيرة، لكنه أجابهم بأنهم لن يشربوا قبل الوصول.

تتقدم العبَّارة ببطء. اقتربت من سفينة شحن كبيرة رست فى عرض البحر، لينتقل إليها رجال الجمارك للقيام بتفتيش. ذهبوا معهم، لأن زورقهم تعطل من جديد.

بعد إنزالهم، ابتعدت العبَّارة عن السفينة. البحر هائج، والدرافيل منهمكة فى ألعابها المفضلة، تقفز ثم تسقط مسببة موجات كبيرة.

يلتقون ببعض زوارق الصيادين العائدين إلى مخيمهم.

"هل أحضرتِ بطاقتك الشخصية؟"؛ سألها زوجها.

نعم! معى، لكنى أظن أنى نسيت الوشاح الذى اشتريته لى من سكوما وكذلك فرشاة أسنانى.

ليس مهمًا. سنشترى فرشاة أخرى هناك. عندما تكتبين خطابًا إلى القرية، فلتقولى لدينِيتِى أن تعطى الوشاح إلى الأم تشيبيندا. هى نفسها ستأخذ فرشاة الأسنان والمعجون. فأنا أعرف أنك إن لم تبعثِى بملاحظة، فلن تلمسهما. وستعتقد أنكِ ستطالبين بهما ذات يوم.

أزال عشبة وقطعة قماش كانتا قد علقتا بشعرها، وشكرته موفَنجى. تأملها وضمها إلى جسده. عندما تتخطى العبَّارة موجة، تظل موفَنجى صامتة، ثم تضبط على عجل تنورتها حول خصرها. صوت

المحرك يُدوِّى. طلبت أكثر من مرة من زوجها أن يعيد عليها الرسالة التى بعثت بها الأم تشيتولا إلى ابنها.

تطلق العبَّارة دخانًا أبيض، وحركة الأمواج تموت على الشاطئ. تدفع الأمواج كُتل الطحالب وجذوع الأُكومة الطافية فى أماكن عديدة. أخرجت موفَنجى الإفطار الذى أعدته. تناولاه معًا بسرعة بالغة، مع مشاركة بعض المسافرين. وصف لها نزينجى منزلهما، وحدثها عن مرتبته الوظيفية فى شركة "شِل". وحلُمت بهذه المدينة الجديدة.

نام مسافرون آخرون. لكن فُوَاق توفيق يوقظهم من حين لآخر. السماء زرقاء، والطيور تحط على جذع أكُومة تلتقط الحشرات.

عندما اقتربت العبَّارة من المصب، لفت القبطان انتباه الجميع. طلب من الجميع التزام الهدوء. فجنِّى النهر لا يحب الضجيج. الموج العالى، الشبيه بسُور، يُسرع من ضربات قلوب المسافرين ويبث الرعب فى نفس القبطان. يضع يده حول المقود، ثم يخلع قفازه. يتكئ على أصابعه الواحد تلو الآخر، فيصدر فرقعة صغيرة. تلاقى عيناه عيون المسافرين، الذين يتساءلون مثله عن الموقف الواجب اتخاذه إزاء جبل المياه المنتصب أمامهم. لكنه لا يجد أية إجابة فى عيونهم. يمرر يده على وجهه ليجفف العرق الملتمع على وجهه. يعود إلى ارتداء قفازه بعد ذلك. محرك العبَّارة يشخر بصوت خفيض: توك! توك! توك! توك! توك! يدق قلب

موڤنجى بنفس الإيقاع. ضمت نفسها أكثر إلى صدر زوجها.

اشتدت الريح. تراقصت العبَّارة أكثر فأكثر. نصح البعض القبطان بالانتظار إلى أن تهدأ العاصفة على الأقل. فمصب النيانجا بالغ الاتساع. بل تسبب فى انقلاب سفن ضخمة.

نظر نزينجى إلى زوجته. أمسكها من يدها. أحس أنها الآن خارج السيطرة. فقد سكن الخوف موڤنجى.

– لدى شعور بالقىء؛ قالت.

عليكِ بقهر خوفك، نصحها.

بعض الشجاعة يكفى، سيمر كل شىء، أضاف أنطونيو.

بدأت بالتقيؤ ونزينجى يسندها من ذراعها. وضع تحت قدميها خرقة لتمتص القىء. عيناها دامعتان وأنفها يسيل.

"أيمكن أن تعطينى الحقيبة؟"؛ طلبت من زوجها.

خذى، ها هى.

كحَّت مرتين، ثم مدت يدها ـ والعينان مغمضتان– لأخذ منديل. مسحت لعابها وأنفها. أخذت خرقة القىء ورمتها إلى المياه.

احتار القبطان فى الاختيار. ينصحه صوت بالانتظار، وآخر يطلب منه التقدم. تذكر آخر دروس

الإبحار، وقرر ـ رغمًا عن رأى الركاب ـ مواجهة كتلة المياه. رفعتهم فى التو موجة وأرجحت العبَّارة. تلا نزينجى وأنطونيو وموفُنجى والآخرون "أبانا الذى" و"السلام عليك يا مريم"، ليأتى الرب لنجدتهم. جاءت موجة أخرى ورشَّتهم مرةً ثانية. قذفوا بالأمتعة فى المياه حتى يخففوا الحمولة.

مع الموجة الثالثة، بدأت العبَّارة فى الغرق. تضرع توفيق، بدوره، إلى "الله" ليمنحه مكانًا بين الصالحين ويحفظ عائلته فى سلام. تملك الذعر الركاب. لم تعتد موفَنجى مثل هذه الحوادث. انفجرت فى البكاء، تبللت. لم تعد تعتقد أن لديها فرصة فى النجاة: كيف لها أن تصل إلى البَر، وهى لا تعرف السباحة؟

"يا رب! لمَ علىَّ أن أقلص أيامى على الأرض؟ ـ صرخت ـ فلم أودع حتى أصدقائى وأهلى الأعزاء؟"

ـ موفَنجى، لا يجب أن تبكى، صاح أنطونيو، سيساعدنا الرب. فلنُصل فحسب حتى ننعم بالخلاص أمام الأبدى.

أطلق نزينجى صرخة محاولاً استدعاء زورق لنجدتهم، لكن ما من صيادين فى هذه الأنحاء. حاول القبطان تهدئتهم. فشل! رمَى أنطونيو بنفسه إلى الماء، رغم عدم معرفته للسباحة. شرب جرعات، ولم يعد يبين منه سوى يَديه اللتين تلوحان. قفز توفيق لإنقاذه، لكنه على العكس تسبب فى غرقه. فرداؤه الضخم أثقله حتى أنه غاص إلى القاع كقالب طوب، وبين

ذراعيه أنطونيو. التقط القبطان سترة النجاة. ورأسه على المِقود، راح يفكر فى مصيره.

نجح نزينجى فى الابتعاد عن الخطر: نقله جنِّيُّه إلى الشاطئ. واقفًا، راقب العبَّارة وهى تغرق. لمح زوجته وهى تلوح بيديها، لا يريد أن تموت، فعاد ليسبح نحو السفينة لنجدتها.

عند الموجة الرابعة، أمسك بمرتبة توفيق العائمة على سطح الماء ووضع زوجته عليها. رآها تنساق مع التيار، لكنه منهك إلى حد العجز عن متابعتها. نادى على القبطان.. لا صوت يصدر من القمرة، لابد أن الرجل توفى. أيقن نزينجى أنه آخر الركاب، فتوجه بضراعته إلى الرب. شرب جرعة ماء أولى، ورفع ذراعيه إلى السماء، ثم ابتلع جرعة ثانية؛ مع الثالثة، غرق مع العبَّارة. فالحظ لا يبتسم مرتين.

غرقت السفينة، المهشمة من الصخور، فى عرض النيانجا.

حل الليل. سحبت الأمواج المرتبة. دفعت الريح والتيار موفَنجى إلى عرض المياه. ارتعدت من البرد، بكت ولم تعرف كيفية الوصول إلى الشاطئ. أبعدها المد والتيار عن مصب النهر. أصبحت فى عرض البحر. أحيانًا ما تتخيل سماع صوت زوجها أو المسافرين الآخرين. تنظر يمنةً ويسرةً، فلا ترى سوى امتداد شاسع للماء. أيقنت أنه ليس سوى صخب الأمواج. عادت إلى ذهنها صور الدرافيل وأسماك

القرش التى رأتها من قبل، ولم تستطع إغماض عينيها. وجاء البعوض ليمتص دمها.

لا تزال فوق المرتبة، وتضرع إلى الرب أن ينقذ حياتها. حلَّقت فوقها طيور ليلية وخفافيش، فيما الطيور الأخرى ـ التى لا تراها سوى فى النهار ـ قد حصلت على إجازة منها. فى الليل، لا تشعر أبدًا بالراحة، تنتظر بفارغ الصبر طلوع النهار، لأنها لا تزال تأمل فى مقابلة أحد الصيادين.

فى الصباح، البحر دائمًا هائج. تحط الطيور على مرتبتها. خائرة القوى، لم تعد قادرة على طردها. ينتابها إحساس بأن البحر والسماء يلتقيان. تتلوى من الظمأ، لكنها لا يمكنها الاغتراف من هذه المياه المحيطة بها، لأنها بالغة الملوحة. ستظل هكذا لثمان؟! وأربعين ساعة بلا طعام أو شراب.

فى صباح اليوم الثانى، التصق جلد بطنها بعمودها الفقرى. وكثيرًا، ما كانت تفقد الوعى.

مع ذلك، دون أن تدرى، قربتها التيارات من شواطئ مدينة نزومبى.

لمح أربعة صيادين، عند عودتهم من ليلة صيد، شيئًا يشبه صُرَّة تطفو على سطح الماء. اقتربوا منه، فوجدوا شابة هامدة على المرتبة. أدركوا على الفور من أين أتت: كانوا على علم بغرق العبَّارة. فى البدء، تملكهم الخوف معتقدين أنها ميتة. حاولوا قلبها ليروا ملامحها. أطلقت موفَنجى ضراعة إلى الرب. وإذ

أيقنوا أن الناجية لا تزال على قيد الحياة، نقلوها بمهارة إلى زورقهم. سألوها، لكنها تتكلم بالكاد، فقدت صوتها بسبب الصراخ ليل نهار. عيناها غائرتان، وعظام الترقوة ناتئة، راحة يدها وباطن قدمها مُبيض. بشرتها مغطاة ببثور حمراء صغيرة، نتيجة لدغات البعوض بلا شك. رداؤها ملتصق بجسدها. ورغم أنها تستطيع بالكاد الرد عليهم، إلا أنهم فهموا أنها خاضت ملحمة عظيمة.

كانت المسكينة بالغة الإنهاك إلى حد العجز عن الحركة. عندما وصلوا إلى الشاطئ، لم تستطع حتى وضع قدميها على الأرض بسبب الشد العضلى. كان عليهم أن يمسكوا بها ليساعدوها على النزول من الزورق. أجلسوها. رتبوا شباكهم فيما صعد أحدهم تل الرمل، وهو يشمر سرواله جيدًا، للبحث عن سيارة.

يعلم أن السيارات الأولى لن تمر قبل الساعة السابعة، حين يعود عمال ميناء البترول إلى عملهم.

قطع جريدة نخل وغرسها على حافة الطريق لينبه إلى وجود مشكلة. سرعان ما لحق به زملاؤه وهم يلهثون، وأحدهم يحمل موقَنجى، والآخرون يحملون الشباك وحصيلة الصيد.

فجأةً، سمعوا أزيز محرك. لوحوا بأيديهم. توقفت السيارة. أنزل السائق الزجاج:

- ماذا فى الأمر؟ سألهم.

- نحن عائدون من الصيد. وقد وجدنا تلك المرأة قرب الشاطئ. قالت لنا إنها نجت من الغرق.

- آه! فهمت.. إذًا فتلك السيدة من بين الركاب! قال السائق مصعوقًا. وماذا نفعل؟

- لابد من نقلها إلى المستشفى وإلا ستموت. لقد لدغها البعوض، وتعانى بالتأكيد من البرد. إنها مريضة. وفضلاً عن ذلك، فقد قضت أيامًا بلا طعام.

- ما من مشكلة. هيًّا.

صعدوا جميعًا وأدار السائق السيارة. أشعل ضوء الخطر، وانطلق بالسرعة القصوى، دون أن يكف عن إطلاق البوق ليحظى بأولوية المرور.

جميع السيارات التى تسير فى الاتجاه المعاكس التزمت يمينها لتفسح لهم الطريق. ولم يجد السائق صعوبة فى القيادة على هذا الطريق الأملس والأسفلتى. وصلوا سريعًا إلى المستشفى. خرج الناس من منازلهم، وتوقفت السيارات لمشاهدة ما يجرى.

أنزل الصيادون موفَنجى بعناية فائقة. لمحوا ممرضًا تعرفوا عليه من قميصه الأبيض.

"دكتور، السيدة، هناك، سوف تموت!"

- لم يأت الطبيب بعد، قال الممرض وهو يقترب من المريضة، سأتصل به فى مسكنه.

طلب من ممرضة حديثة الاعتناء بموفَنجى. مددتها أولاً على نقالة، ثم أعطتها كوب ماء لتروى

ظمأها؛ بعد ذلك، نقلتها إلى غرفة أخرى لتأخذ حمامًا دافئًا.

أعطتها مريضة متعاطفة تنورةً لتمكنها من التخلص من ملابسها المبتلة.

"آلو! الطبيب؟"

- نعم، صباح الخير!

- لدينا حالة حرجة، يا دكتور، وعلينا فعل شيء سريع، وإلا فستموت.

- مم تشكو؟

- لا أدرى. لكنها نجت من الغرق؟

- هل الأمر خطير؟

- خطير جدًا: وجودكم ضرورى لإيجاد حل.

عاون الممرضة التى ترعى موفَّنجى، ثم أعد حقنة لمريض آخر. عند الشباك المفتوح، كان الفضوليون - المحتشدون على أمل رؤية الناجية - ينظرون إليها بمهابة. رجَّ قوارير وملأها بالماء من خلال سرنجة. بعد ذلك رجَّها فأصبح الخليط سائلاً أبيض. سحب عينةً، وبلل قطعة قطن بالكحول، ثم دعكها مرتين بفخذ المريض وأعطاه الحقنة. لم يصرخ التعيس. أغمض عينيه من الألم متكئًا بكامله على كتف الممرض. سحب الممرض الحقنة، فسال الدم، فنصحه بالضغط على الجرح بالقطنة حتى لا تتسخ ملابسه.

التف كثيرون حول موفَّنجى ليسمعوا قصة الغرق.

تتحدث بصعوبة بالغة، وعندما تنطق باسم زوجها، تنفجر فى البكاء.

لم يتأخر الطبيب. فرق الحشد المتجمع أمام الباب. أرادوا أن يلمسوا بأصابعهم الناجية بأعجوبة. لا شهود غير الصيادين، الذين يجيبون بسعادة على استفسارات المحتشدين.

فحص الطبيب موفَنجى. وضع السماعة فى أذنه، وطلب منها أن تأخذ نفَسًا عميقًا. ولأنها غير قادرة على التنفس، أعطاها الطبيب المثال. تدريجيًا، استعادت تنفسها الطبيعى.

"هل تشعرين بالألم؟"

– لا، يا دكتور، أنا أفضل قليلاً؛ قالت. لكنى أشعر بالإرهاق، وحكَّة فى جسدى كله.

– ألديكِ عائلة هنا؟

– لدىَّ شقيق يعمل فى معمل البتروكيماويات، وشقيقة ربة منزل. أما زوجى فتوفى غرقًا لأنه أنقذ حياتى.

– ماذا كان يُدعى؟

– كان يدعى نزينجى شارل.

– نجار شركة شل؟ توفى؟ أمرٌ محزن حقًا! أقدم لك خالص عزائى. كان صديقًا عزيزًا. وحدثنى عنك عندما ذهب إلى القرية. كان شخصًا خدومًا، بالغ الطيبة. لم يُسئ إلى أحد قط. لم يكن يهتم إلا بعمله.

وشقيقك، مَن؟

- سباستيان فوَافوَا.

- سأحاول الاتصال به ليأخذكِ. فليس لدينا نظام إقامة للمرضى. فالمرضى يأتون للعلاج ويعودون إلى بيوتهم.

أمسك بالتليفون، ووضع السماعة على كتفه. ورقبته مائلة، طلب رقم المعمل. أجابه رجل:

- آلو! صباح الخير، من المتحدث؟

- أنا طبيب المستشفى. أود التحدث إلى سباستيان!

- هو أنا، يا دكتور.

- عندى الآن مريضة، هى زوجة نزينجى شارل، النجار. قالت لى إنك أخوها. وقد نجت من غرق النيانجا. والصيادون هم الذين عثروا عليها هذا الصباح قرب الشاطئ على مرتبة. وقالت لى إن اسمها موفَنجى.

- أتوفى شارل؟ أهذا حقيقى؟ قال سباستيان، وهو يطلق صرخة فزع قوية.

- لقد توفى. كان من بين الركاب. إجمالى من لقوا حتفهم سبعة أشخاص. وقد اتصلت بك لتصحبها إلى المنزل.

- سأصل فى الحال، شكرًا.

أنهى الطبيب المكالمة، وسأل موفَّنجى عما إذا كانت تستطيع السير بمفردها.

"سيصبح كل شىء على ما يرام، إذا ما استرحت بعض الوقت".

وصل سباستيان لحظة أن كانت تنهض.

"سباستيان، هذه هى المرأة التى حدثتك عنها! أهى أختك حقًا؟"

– نعم، أختى، زوجة نزينجى. لقد رأيت فى الصباح حشدًا أمام مدخل المستشفى.

– كان الحشد يتبعها. حظها أنقذها من أسماك القرش.

– لم يكن هذا يومها، لم تحن ساعتها بعد.

– خيرًا فعلت بقدومك على عجل، فلتصحبها إلى المنزل. حاليًا، هى بحاجة إلى العصائد حتى تعتاد مرةً أخرى على تناول الوجبات الكاملة: لقد ظلت يومين بلا طعام أو شراب. عصيدة أرز وأكواب زبادى ستكفى لأن تقف على قدميها. وعليها أن تعود بعد أسبوع لإجراء تحليل دم وبول وأملاح. لابد أن تظل راقدة، ولا يجب إزعاجها. لا ينبغى ملاحقتها بالأسئلة. فهى فى حالة صدمة.

اصطحب سباستيان أخته إلى المنزل. أمر زوجته بإعداد غرفة لها. أعدا لها عصيدة، وبعد أن تناولتها، نامت بعمق. لم يكف الأهل والأصدقاء عن زيارتهم ليرفعوا معنوياتهم.

"أين هى، الناجية؟"، يسألون.

- نائمة، لأنها لم يغمض لها جفن فى الليل أو النهار.

أمضى سباستيان فوافوا اليوم كله فى المنزل. طلب إجازة يومين. فى اليوم التالى، ظل باب غرفة موفَنجى مفتوحًا دائمًا. يدخل الزائرون ويخرجون. يتحدثون قليلاً مع الناجية. وأصبح منزل سباستيان مركز نزومبى. كل الأنظار تتجه إلى هنا. والأحاديث فى المكتب، فى المنزل، فى الميدان الفسيح، وحتى فى فندق لامونتّانى، تدور حول حادث الغرق. ولا أحد فى المدينة يجهل الأمر. كل منهم يقدم نسخته من الأحداث، وموفَنجى هى البطلة الحقيقية. يُحكى فى كل مكان كيف تغلبت على خوفها، وتخطت كل الصعاب التى وضعها القدر فى طريقها. إنها ملحمة مرعبة رغم كل شىء. فالقليل من الناس مَن يتحملون دوار البحر فى المركب، فما بالكم على مرتبة. إنه حظ عجيب أن تخرج من ذلك حيةً تُرزق. يتضرع الجميع للرب ليمنحها حياة مديدة.

كتب سباستيان فوافوا خطابًا إلى العَم مَآ وإلى الأهل الذين يعيشون فى مويل ليخبرهم بهذه المأساة:

نزومبى، ٥ إبريل

العَم مَآ

لابد أنك قد علمت بغرق عبَّارة إدارة الغابات. حدث ذلك منذ أسبوع عند مصب النيانجا. موفَنجى

حية ترزق. أشكر الرب كثيرًا على ذلك. لقد انهمرتُ في البكاء عند سماعي بوفاة قريبنا أنطونيو وكذلك القبطان. هذا الموت أرهبنا جميعًا. علمت بالخبر وأنا في العمل. فطبيب المستشفى هو مَن أخبرني. استولى عليَّ الهلع وأنا في طريقي إليها.

أختي متعبة. تتحدث بصوت واهن. وقررت أن أبقيها هنا أولاً لتتلقى العلاج. لكني لا أنوي إبقاءها طويلاً؛ لأني أخشى عائلة زوجها. فأنت تعرف التقاليد، فعليها ارتداء ملابس الحداد على زوجها. سنقيم، يوم السبت، طقوس ارتداء الحداد هنا، باستقلال عمَّا ستقيمه لديك.

لقد ترك أنطونيو بصمة على العائلة. كان يتمتع بخصال لا تقبل الجدل. كان يكفي أن يراه المرء ليحبه. وما أزال أتذكر مشاعره الدافئة التي أبداها خلال إجازاتي الأخيرة.

كان يعتني جيدًا بالجدة تشيتولا. والآن، لا أدري ما ستئول إليه مع رحيله. لابد من إيجاد حل لهذه المسألة. هل ستقام طقوس الحداد في منزلها أم في منزلك؟ لم يعد لديَّ ما أقوله. وجهي مغطى بالدموع. ولابد من تهدئة الجدة.

موفُنجي على قيد الحياة حقًا، لكن زوجها توفي لأنه حاول إنقاذها. وستأتي لتطلعكم على قصة هذا الغرق. أفتقر إلى الكلمات لأصفه بدقة. وأضيف فقط أن الجثث لا تزال مفقودة. إن مصب النيانجا مكان

خطير يتسبب فى غرق السفن الكبيرة. قل لأمى أن تواسى بين الحين والآخر زوجة ابن العم. أعرف أنه أمر يصعب تحمله. وأعرف أنك سترعى أبناءه. فبفضله، استطعتُ تخطى صعابى فى المدرسة. وكان مهتمًا بى إلى أن دخلت الحياة العملية. إننى أحمله فى قلبى، ووفاته تحزننى بشدة. سأرافق بنفسى موفَّتجى.

أقبلك.

**ابنك**

## ـ ٣ ـ

اتخذ بيت العَم مَآ زينته مثلما يحدث فى الأيام العظيمة. استعد لاستقبال طقوس ارتداء الحداد. قطع الأطفال جريد النخيل ووضعوه حول أرضه، وعند مدخل القرية وبطول الطريق، حتى يشيروا إلى أن الحدث سيتم هنا. فيوم السبت هذا ليس كبقية الأيام. لملم العَم مَآ مدخراته ليدفع ثمن الطعام والشراب. عاونه الأب بيتُوفَا الذى دفع عنه أجرة الكراسى.

عند حلول الليل، تصاعدت حدة التوتر. تجمع حشد متلاحم أمام كوخ العَم مَآ، يضم أصدقاءه ومعارفه، الذين جاءوا ليحضروا طقوس جنازة أنطونيو. وُضع طبق على الأرض يلقى به كل أعضاء العائلة قطعة نقدية.

جلس الرجال فى ناحية، والنساء فى الناحية الأخرى. تبادلوا السباب على أشياء تتعلق بحياتهم اليومية. امتزج الفرح بالحزن، لكن هذا الحماس يترجم- فى واقع الأمر ـ تقلبات حياة الناس.

هاجم الرجال النساء اللائى رددن بطريقة لاذعة، دون منحهم فرصة لالتقاط الأنفاس. لابد من

المسارعة بإدانة عيوب هؤلاء وأولئك قبل طلوع النهار.
ظهر القمر فرمى بأشعته المنتشرة على ساحة القرية. تصاعدت أكثر فأكثر أصوات المنشدين فى ذَم تقلبات الحياة اليومية، التى يخوض خلالها الرجال والنساء صراعًا بلا هوادة للعثور على بهجة الحياة، والقيام بواجباتهم الزوجية. يتم التعبير عن كل شىء بصيغة الجمال الأنثوى والذكورى. وما من جماعة تنتصر على الأخرى، ورغم ذلك كانت النساء أكثر حدة فى هجومها بشدة على تصرفات الرجال: غياب الرجولة، الخيانة، الشراهة، العربدة، السُّكر، الغش..

أما الرجال، فينشدون فى أغانيهم لجوء زوجاتهم إلى التزين، للمحافظة على جمالهن وخدمة أزواجهن فى المنزل، ليحظين دائمًا بمزيد من الحب والتقدير.

بصورة عابرة، تُحيى النساء حضور أطفالهن داخل الدائرة. لقد تعلموا ـ من الأغانى التى يحفظونها ـ كيف يعتنون بملابسهم، بأجسادهم، بوجباتهم، بمنزلهم، بزوجاتهم أو أزواجهن، وأبنائهم.. يحبون الأغانى كثيرًا، وحتى يطردوا النوم، ينشدون ويرقصون مثل أهلهم فى وسط الدائرة. هذا الحضور القوى يمنح النساء الأمل فى قدوم قريب لحفيد أو حفيدة، لأن التماسك فى الحلبة فى هذا الوقت المحدد يثبت بما يكفى القدرة على تأسيس منزل وتحمل مسئولياته.

كل الموضوعات التى يتم تناولها هنا محرمات، ولابد من انتظار مناسبة أخرى ـ كميلاد التوائم ـ حتى يبدى الرجال والنساء حميميتهم.

طردت الرياح السحب، والقمر أكثر إشراقًا. تُسمع الصيحات الأولى للديوك ونباح الكلاب. أشارت الساعة إلى الرابعة والنصف صباحًا. موعد الاستراحة وعملية توزيع المشروبات. لكن النساء أردن الانتهاء بالرجال لفضح عيوبهم. رددن أغنيات إباحية واستفزازية لاستثارة الغضب الذكورى.

طلع النهار رويدًا رويدًا، واجتمع مجلس الحكماء واختار ثلاثة أطفال لارتداء ملابس الحداد، هم أشقاء أنطونيو.

أسدلت أشعة الشمس الأولى الستار على هذا الطقس التقليدى، الذى حضرته دينِيتِى وصديقاتها. انطفأت المشاجرات بين الجد والأحفاد كحريق فى قش مع طلوع النهار، والموضوعات المحرمة عن الجنس لهؤلاء وأولئك تم إزاحتها عن الصدارة حتى لا يثيروا انتباه الأطفال الذين لم يتلقوا بعد تلقيناتهم الأولى. عادت إلى القرية- شيئًا فشيئًا- حيويتها المعتادة. تغيرت اللغة، وعادت لغة المودَّة داخل هذا المجتمع الذى لابد له من المحافظة على الروابط العريقة التى توحد أعضاء العائلة الواحدة.

دق جرس المدرسة، وكادت قلوب التلاميذ الصغار أن تتوقف من شدة الخفقان. جروا حاملين حقائبهم

تحت أذرعهم، لاهثين لدى صعود ربوة الكونغو التى تُشرف على حى بَانجا[1] وكنيسة القديس شارل لوانجا[2] خائفون، خائفون إلى حد عدم القدرة على النظر إلى الوراء ليروا ما إذا كان مدرسهم يتبعهم.

لم يكونوا بعيدين عن المدرسة الواقعة على القمة، عندما دق الجرس للمرة الثانية. هذا المبنى المشيد من الطوب يعلوه صاج متموج. والجرس، المُعلق بشجرة مانجو، يدق للمرة الثالثة فيدخل الأطفال الفصل.

يسير المعلم موجونجو[3] بخطى كبيرة وهو يملى على التلاميذ نصًا لأناتول فرانس[4] ودينِيتِي سعيدة. فهى من الطلاب المحبين للغة الفرنسية. الآخرون خائفون، يخشون من تلقى عقاب لا يُنسى إذا ما أكثروا من الأخطاء: يوزع المعلم موجونجو ضربات العصا بقدر أخطاء الكلمات المكتوبة.

فجأةً، انفجر الفصل بضحك صاخب. نظر المعلم حوله. صمت التلاميذ عندما رأوا نظرته الحادة. لم يكونوا يسخرون منه، بل من التلميذ الجالس فى آخر الفصل. لقد حول بكاءهم إلى ضحك. يُلقب باليعسوب بسبب قامته: طويل، نحيل، وضعيف. انخرط فى البكاء لأن دينِيتِي داست على إصبعه أثناء الدخول.

---

(١) بانجا: السلسلة.

(٢) لوانجا: شخص هائج.

(٣) موجونجو: الخط المحدد.

(٤) أناتول فرانس: روائي فرنسى شهير.

أشار بيسيلو(*) المتباكى، إلى دينيتِى بإصبعه باعتبارها هى التى تسببت فى اضطراب الفصل.

"دينيتِى! انهضى"، أمرها المعلم بحزم. "لماذا تصرفتِ على هذا النحو؟"

- لقد اعتذرت له، يا سيدى، فلم أكن متعمدة.

- قولى لى، هل دينيتِى اسم أم لقب؟

- يُسموننى فى المنزل دينيتِى. سأشرح لك. فالعَم مَاَ أسمانى دينيتِى يوم ولادتى لأن ابنته شرَّفته. فهى لم تكن تعاشر رجلاً سوى أبى حين حدث لها حمل لا إرادى. فطلبت منه أن يتقدم إلى أهلها. فعل ذلك، وأصبح هذا الفعل مصدر شرف لجدى. وأهالى مويل فخورون بأمى. يوم ولادتى بالمستشفى، صباح يوم أحد، حملنى العَم مَاَ، واستحضر جميع أسلافنا. قبلنى وقال لأمى: "حفيدتى ستُسمَّى دينيتِى. ستكون من بين الأشخاص الذين يحظون بالتبجيل والاحترام فى عائلتنا. وستمارس فى حياتها وظيفة مرموقة".

حياها المعلم موجونجو على روايتها:

- يجب اتباع مثالها، أضاف، فدينيتِى، لم تخش الاعتذار لزملائها.

قام المعلم بتوزيع أوراق على تلاميذه تحمل عناوين أسماء تلاميذ مختلفين عبر القارة. أعجبتهم كثيرًا فكرة المراسلة. اختارت دينيتِى مراسلتها من

(*) بيسيلو: إنه مقطوع.

أنجولا؛ تُدعى يولا(*) قدم المعلم موجونجو درسًا صغيرًا فى الجغرافيا، ليتعرف كل تلميذ على بلد من سيراسله.

"سنكتب عن ماذا؟"؛ سألت دينِيتِى المعلم.

- هناك موضوعات كثيرة. ولن أفرض عليكم موضوعًا. فأنتم أحرار فى كتابة ما تريدون.

فى هذا اليوم، كانت دينِيتِى سعيدة وعادت بسرعة بعد اليوم الدراسى. وجدت أمها جالسة فى شرفة المطبخ، تصنع سلة من النباتات المتسلقة.

- مساء الخير يا أمى!

- مساء الخير! أراك سعيدةً يا دينِيتِى. ألديكِ أخبار سعيدة؟

- لقد وجدت أخيرًا مُراسِلة.

- مراسِلة! من أى بلد؟

- من أنجولا.

- أمِن الممكن الكتابة لشخص دون معرفته، يا دينِيتِى؟

- أُمى! لا تقلقى، هذا ما يُسمَّى "تواصل عبر المراسلة". وقال لنا المعلم موجونجو إن علينا التحدث فى شتى المواضيع، لنوثق علاقتنا بأصدقائنا. سنتبادل الطرود، وفى المستقبل القريب الأسفار. سترين يولا هنا يا أمى. ستأتى لقضاء الإجازة معنا.

---

(*) يولا: تغنى.

لم تكن لدى دينِيتِى رغبة فى الراحة. أخذت ورقةً وقلمًا، وبدأت فى كتابة خطاب إلى يولا.

هى المرة الأولى التى ترسل فيها خطابًا إلى الخارج. فكرت فى آخر خطاب وجهته إلى نُن، أختها الكبيرة التى تعيش فى نزومبِى. كانت قد طلبت منها أن تشترى لها كتابًا أحبته كثيرًا: "الطفل الأسود" لكامارا لاى.

تذكرت أن نُن ردت عليها بعد شهر بأنها سترسل لها الكتاب عن طريق البريد.

فى المدرسة، يتم توزيع المراسلات فى بداية أول فسحة.

- دينِيتِى!

- حاضرة!

- لكِ طرد من نزومبِى. يبدو ثمينًا.

أمسكت بالعلبة بين يديها. تساءلت فى سعادة: "ماذا يمكن أن يكون؟". قلَّبت العلبة الصغيرة مرةً وأخرى. كان التلاميذ الذين لم يسمعوا أسماءهم تعساء. تبعتها صديقتها موربيل أزفينو(*) التى رجتها أن تفتحها لترى ما فيها، فنظرت دينِيتِى فى البداية إلى الخط، دون محاولة قراءة اسم المرسل؛ خمنت على الفور أنها من طرف شقيقتها الكبيرة. أضاءت سعادة غامرة قلبها. كانت تلك أول هدية تُرسل لها

(*) أزفينو: يلعب.

عبر البريد. نالت الآن تقدير زملائها فى الفصل. فتحت دينِيتِى العلبة واكتشفت الكتاب. فوق الخيال: كان الكتاب جميلاً عند اللمس؛ والغلاف كان براقًا. والصورة التى تزين الغلاف كانت لطفل نظرته طفولية وفمه برىء. تفوح الصفحات لا تزال ـ برائحة الورق. اندهشت دينِيتِى وهى تقرأ فيه قصيدة "إلى أمى": كان المُعلِّم قد طلب منهم دراستها قبل يومين من تلقيها هذه الهدية. أخرجت كراسة المحفوظات من حقيبتها لتُرى زملاءها المحيطين بها المصادفة السعيدة.

– دينِيتِى! قال المعلم موجونجو.

– نعم، يا سيدى؟

– تعالَى لترينى كتابك.

توجهت إليه دينِيتِى، وأُعجبوا جميعًا بالكتاب. لم يكن المعلم قد قرأه بعد، عدا بعض المقاطع التى قابلها فى كتب القراءة. هز رأسه وهو يلمسه ليبدى تقديره له.

– كم أنت محظوظة يا دينِيتِى. فلديكِ شقيقة كبرى تحبك كثيرًا.

– سأقرؤه ابتداءً من الليلة.

هكذا، عند عودتها إلى المنزل، أخبرت والدتها:

– لقد تلقيت هدية جميلة. أرسلتها لى الأخت الكبيرة نُن بالبريد.

– أيمكن أن أعرف ما الهدية؟

– كتاب بعنوان "الطفل الأسود". كتبه كاتب غينى، كمارا لاى.

– لقد قرأت بعض المقاطع منه خلال دراستى فى المدرسة. أمرٌ طيب أن تعتادى مبكرًا على الكتب. ستتعلمين أشياء كثيرة.

فى بضعة أيام، قرأته دينِيتِى. تذكرت أن قصة الحدَّادة والثعبان قد بهرتها، وأنها قارنت بين حياة عائلة لاى وعائلتها.

استغرقت فى كتابة خطابها إلى يولا عندما نادتها أمها إلى الطعام.

– يجب أن تأكلى أولاً. وستعاودين الكتابة فيما بعد، قالت الأم موسافو(*)

ـ أوشكتُ على إنهائها، ردّت. أيمكن أن أقرأها لك؟

– عندما نأكل، لا نتحدث. عليك انتظار الانتهاء من الغداء.

قرأت دينِيتِى الخطاب لأمها؛ ورغم ذلك، وجدت أنها نسيت ذكر شىء: أنها تسكن مع والديها فى الريف، ليس بعيدًا عن القرية. فقد أقام والدها منزلاً يسمح لهم بمتابعة مزارع الموز. وقرر الاستقرار فيه بسبب الحيوانات التى تخربها.

---

(*) موسافو: لتذكُر.

الجو لطيف فى الريف، الهواء منعش، ونادرًا ما يُسمع صرير الماكينات. لا وجود سوى لتغريد العصافير وصوت انهمار ماء عند المنبع، لا يبعد عن المزرعة. تذهب دينِيتِى أحيانًا إلى هناك مع صديقتها. الشلال عال كجدار من حجَر. أثار إعجابها رذاذ الماء والرغوة التى تغطى سطحه بعد الدوامات.

اندهشت دينِيتِى لدى اكتشافه أول مرة. سألت أمها ما إذا كان نزينجى، بنَّاء القرية، قد صنع هذه التحفة. ضحكت الأم موسافو قبل أن تشرح لابنتها:

– بنَّاء القرية يقيم منازل جميلة. أما هذا المنحدَر فهو من صنع الرب، القدير. لقد خلق النهر، والسَّمك، وهذه الغابة. باختصار، لقد خلق البشر، والسماء، والأرض وكل شىء موجود.

لم تطرح دينِيتِى أسئلة أخرى. انحنت لتلتقط حَجرًا فى شكل حذاء، وأرته لأمها.

"الطبيعة تصنع أشياء جميلة! هذه الحَجَر فى شكل نعال. ويمكنك وضع قدمك، ولا يبقى إلا الجلد ليكسوها من أعلى".

تجىء وتمضى الأسماك، فتبدو كأنها تتراقص، لكنها حركة المياه هى التى تؤرجحها يمنةً ويسرة. تراها ساكنة تحرك زعانفها. أيمكن القول إنها تنصت إلى صوت دينِيتِى؟ ربما! لم تكف عن مطالبة أمها بصيدها.

– أرغب فى الصيد، ردَّت عليها؛ لكننا لم نأت لذلك. فالعَم مَآ مريض، وعلينا إحضار النباتات التى ستداوى آلام ظهره.

– ألا يستطيع الذهاب إلى المستشفى، غدًا؟

– يفكر فى ذلك، لكنه يعرف بعض الأوراق واللحاء الفعَّال فى حالة آلام الظَّهر.

عبرت الأم والابنة النهر. المياه منعشة. بللت دينِيتِى فستانها بعد انزلاق قدمها. قطعت موسافو هنا لحاءً، وهناك ورقةً، ووضعت كل شىء فى سلتها. تبعتها دينِيتِى، تارةً تنحنى لتلتقط جوز النخيل، وتارةً ثمرة الأتنجا.

أسفت موسافو لعدم وجود زوجها: فهو قادر على الصعود أعلى النخيل ليقطع الجريد. فى المسير، كانت تحدد لدينِيتِى بعض استخدامات الأشجار وأسمائها. ابنتها قادرة الآن على التعرف على أشجار الأُكومة، الأوزيجو، الأودوكا، الموابى..

"هذه غابة الدوجوندو. وأشجارها تستخدم فى مساعدة الأمهات الشابات على أن تُدر أثداؤهن الكثير من اللبن. فعليك دائمًا حفظ أسماء الأشجار إذا ما أردتِ تعلم العلاج بالنباتات".

فى اليوم التالى، كأغلب الأيام تقريبًا، استيقظت دينِيتِى مبكرًا لتذهب إلى المدرسة. وضعت بعناية خطابها فى حقيبتها. بعد الإفطار، تشبثت بذراع أمها

وسارتا معًا حتى القرية. اعتادت قطع هذا الطريق كل صباح، ولم تعد تخشاه، فقد ألفته. الندى يغلف الأعشاب وأوراق الشجر، ولهذا السبب منعتها موساڤو من ارتداء فستان جميل.

فى المدرسة، اهتمت بأن تُرِى معلمها الخطاب. قرأه وقال لدينيتِى إنه جيد: تحدثت عن قريتها، عن جدها العَم مآ، وعن أبويها.

"هذا جيد. فى خطابك القادم ستتحدثين عن مدرستك إلى يولا"، أضاف المعلم موجونجو.

شعرت دينِيتِى بالرضا من تقديره. لا تبعد مدرسة القديس كيسيتو عن مكتب البريد. طلبت منه الإذن لإرسال خطابها، بصحبة أزڤينو.

"سنرسل خطاباتنا من هناك، قالت لأزڤينو. صندوق البريد الخاص بمدرستنا يحمل رقم مائة وعشرين".

الزحام شديد.

أضافت: "علينا الصبر قليلا؛ وخلال الانتظار يمكن لك الجلوس. فهذه المقاعد مخصصة للزبائن".

لاحظت أزڤينو أن كل الشبابيك مرقمة. وتحمل إشارات محددة: إرسال حوالات، تلغرافات، بيع طوابع. ونتائج المسابقة الأخيرة لجمع الطوابع معلقة على الحائط فى نهاية القاعة. نظرت إلى السيدة التى تزن الطرود، والمسئولة عن إرسال التلغرافات، والمحصل

الذى يجلس فى مكتب منفصل. يؤشر على الحوالات. ثمة وثائق كثيرة على طاولته. يبدو بالغ الانشغال. بجانبها، هناك كابينة تليفون. سمعت رجلاً يتحدث مع زوجته. أخبرها بإرساله حوالة تلغرافية.

انتظرت أزفينو. لم تنته دينيتِى بعد، لكن الطابور ينكمش من دقيقة لأخرى، وصديقتها الآن أمام بائعة الطوابع.

"صباح الخير يا سيدتى!"

- أنت مهذبة، يا ابنتى؛ فهنا نقدم الخدمات للناس حسب دور الوصول.

- من فضلك، أيمكن إعطائى طوابع لخطابين إلى أنجولا؟ قالت دينيتِى بأدب.

- سيكلفك الخطاب الواحد إلى أنجولا مائتين وخمسين فرنكًا؛ ردت المرأة.

أعطتها دينيتِى ورقة بخمسمائة فرنك، ثم شكرتها، ولصقت الطوابع على المظروف.

يمثل الطابع بخمسين فرنكًا أُمًا ترضع طفلها، فيما يمثل الطابعان الآخران الطبيب شفيتزر بقبعته البيضاء وفمه يعلوه شارب، واقفًا بجوار مستشفاه وسط الغابة الاستوائية. وترتسم فى الطوابع، المهداة إلى ذكراه، قوارب مربوطة بوتد فى مرسَى المستشفى. مرسومٌ أيضًا النخيل الذى يحد الشاطئ، وبجعة. ويرمز وجود هذا الطائر إلى أى حد كان الطبيب صديقًا للحيوانات.

حققت دينيتِى وأزفينو اكتشافًا جديدًا. فالطوابع جميلة جدًا. وترمز إلى ثقافة وتاريخ بلادهم.

"ستتبهر يولا، عندما ترى هذا الخطاب"، فكرت.

أرسلتا الخطابين، ثم انضمتا إلى زملائهما فى المدرسة. لم تعد دينيتِى تشعر بشىء: يكفى أن تسمع أزيز طائرة حتى تفكر فى يولا وفى الخطاب الذى أرسلته.

عند المساء، عادت دينيتِى وصديقاتها إلى الريف. تأخرن هذه المرة، لأنهن شاركن فى درس الدين بكنيسة القديس شارل لوانجا. حل الظلام. استخدمن كشافًا صغيرًا لإنارة الممر. يمسكن بأيدى بعضهن البعض. ودينيتِى تتقدم الطابور. كانت تتوقف أمام جذوع الأشجار المشقوقة لتنبه زميلاتها للخطر. فى الظلام، تبدو جذوع الأشجار من بعيد كأشخاص يضعون أقنعة. شعرن بالخوف، لأن العَم مَآ نصحهن بعدم الذهاب ليلاً إلى الغابة. ففى الأسبوع الماضى، عند مدخل القرية، رأى وهجًا خاطفًا يتجه مباشرةً إليه؛ لكنه عندما هدده ببندقيته، اختفى الوهج ليعاود الظهور فى صورة إنسان.

مع ذلك، كلما تقدمن نحو الجذوع، تأكدن من الحقيقة وسيطرن على خوفهن. تفوح الغابة برائحة نفاذة. فى سيرهن، تضىء الحُباحب ونجوم الأرض الأغصان. تُسمع أصوات الحشرات. تلاصقن إلى حد أنهن كان يطأن أقدام بعضهن البعض.

"لابد أن ترَين موطئ أقدامكن، قالت لهن دِينِيتِي؛ لقد أصبحنا على مقربة من المخيم".

لا تخشى أزفينو الظلام الذى يغلف الممر والنهر بقدر ما تخشى مواجهة البوم والحيوانات المفترسة. فجأةً، داست على شىءٍ ما. أحست بشىء منعش تحت قدميها، لكن رائحة عطنة فاحت منه. ظنت أنه براز فيل، فالفيلة تتردد على المكان، وبالنهار، تُلاحظ آثارها على الممر. أنارت دينِيتِي ساقَى زميلتها.

"ليس هذا براز فيل. لقد دُستِ على فاكهة عطنة. ألا تشمين الرائحة؟"

سمعن خرير المياه على شواطئ إيسارى. وفوق رءوسهن، حلَّقت من حين لآخر الخفافيش بصرخات مرعبة.

بلغن أخيرًا منطقة خالية من الأشجار. لاحظن أنها ليست مظلمة كالغابة، حيث الظلمة حالكة. عن بُعد، لمحن الدخان المتصاعد من الأكواخ. من هذا المكان، يبدو المخيم مرئيًا، بفعل النهر الذى يمتد بعظَمة بامتداد مزارع الموز.

يجلس العَم مَآ مع صهره حول النار فى الديبانجى(*) جلست ابنته موسافو فى الشرفة. تقشر الموز وتتابع طهو سمك الجِرِى والجمبرى والكابوريا التى وضعتها على النار، منذ أقل من ساعة.

---

(*) الديبانجى: مكان يناقش فيه الرجال مشاكلهم فى السر، بعيدًا عن فضول النساء.

توجهت دينِيتِى إلى العَم مَآ وإلى أبيها لتقدم لهما تحية المساء، قبل أن تعود إلى أمها.

"كنا قلقين من تأخركن. واعتقدنا أنكن بقيتن بالقرية"، قال العَم مَآ.

ـ لقد تأخرنا فى حصة الدين. معلم الدين المسيحى نجوما(*) مُتشدد. فقد أراد من كل منا تلاوة الوصايا العشر قبل الذهاب إلى المنزل. أول تناول قربان لى سيكون فى الكريسماس القادم.

– لقد تخيلنا أن عمتك قد بذلت ما فى وسعها لإبقائك بالقرية. نشكر الرب على أنكن عدتن فى ظروف جيدة.

وضعت دينِيتِى حقيبتها فى غرفتها، ثم عادت إلى موساڤو:

– لقد أرسلت الخطاب، يا أمى.

– جيد. عليكِ الآن انتظار وصول الخطاب لصديقتك. ولو تأثرت بكلماتك فستجيب بسرعة عليكِ.

– أيمكن أن يتم ذلك خلال شهرين؟

– لا أستطيع الجزم، يا دينِيتِى. فهذا البلد بعيدٌ للغاية عن هنا. أظن أنه يقع تقريبًا فى الجنوب الإفريقى.

– ونحن، أين؟

---

(*) نجوما: طبلة التَّام ـ تَّام.

– فى إفريقيا الوسطى. ولابد من الانتباه أكثر فى حصص الجغرافيا، يا دينِيتِى.

– ماذا تُعدين، يا أمى؟

– أعد صلصة الجنيمبوى. وهناك أسماك جِرِى وجمبرى وكابوريا. لقد حظيت بصيد وفير هذا المساء، عندما تفقدتُ الشبكة.

سال لعاب دينِيتِى بسبب الرائحة اللذيذة للصلصة. تمددت على حصيرة، وقرأت كتابها على ضوء مصباح العواصف (١) .والعَم مَآ سعيد بأن يراها تقرأ بتركيز.

كل شهر، تبعث دينِيتِى بخطاب إلى يولا، تتناول فيه موضوعًا مختلفًا. وبفضل هذه الخطابات الغزيرة، حاولت مقارنة وجهات النظر بينها وبين صديقتها، فيما لاحظت أنهما– فيما عدا بعض الاختلافات ـ لديهما نفس الرؤية للأشياء. وذات ليلة، تحيرت دينِيتِى من مظروف ملقى على الأرض. أخذته.

"آه! إنه الخطاب الذى بعثته لى يولا، ولكن مَن رماه على الأرض؟ تساءلت. ربما أكون أوقعته على الأرض عندما كنت أرتب كتبى..".

قرأته مرةً أخرى. قررت أن تصف لها بالتفصيل– فى الرد– عملية طلاق أختها مونوجو(٢) الذى حضرته مؤخرًا.

---

(١) مصباح خاص لا تنطفئ شعلته فى الرياح (المترجمة).

(٢) مونوجو: بداية موسم الأمطار.

استُدعى العَم مَآ إلى الزعيم العُرفى حتى ينهى رد المَهر.

بيت القاضى، وهو ليس سوى بيتُوفَا، يقع فى الطرف الآخر من القرية. مبنىٌّ من ألواح شجر مُقطَّعة يدويًا ومسقوفٌ بصاج مُتموج. لكن النقاش يتم فى المبادچا[1] هنا يحكم الزعيم فى الأمور التى يختلف عليها أعضاء جماعته. يحترمه الجميع كثيرًا لحياده. جالسًا إلى منضدة، استقبل الشاكين والشهود؛ ولأن الجمهور لم يجد مُتسعًا كافيًا بالداخل بسبب ضيق المكان، فقد ظل بالخارج ليتابع الجدال. لم يجد الحضور صعوبة فى فهم المشكلة: المبادچا مغطاة بلحاء الأشجار، ومن الخارج يمكن رؤية ما يحدث بالداخل.

اختار كل فريق صديقًا ليكون بمثابة محامٍ له. ويدافع الصديقان- من الجانبين- عنهما بحرارة.

قرأ الزوج السابق لمونوجو كراسة دوَّن بها كل المصروفات التى أنفقها. فجأةً، سمعه العَم مَآ يذكر اسم دينِيتِى. انتفض من مقعده، وعنَّف صهره، ثم طلب من القاضى أن يوقفه:

"دينِيتِى ليست مدينة بشىء لماندوكو[2] انفجر العَم مَآ. لقد أمضت الإجازة فى القرية، وعلى العكس

(١) المبادچا: بيت عام يجتمع فيه الرجال، وخاصة بمناسبة إقامة الطقوس الدينية.

(٢) ماندوكو: الأصوات (الصخب، الضجيج).

فقد عانت من الصباح إلى المساء. جلبت المياه، وعاونت أختها فى غسل الملابس، ولكنها لم تُقِم أبدًا عند ماندوكو حتى يقول إنه اشترى لها ملابس أو أطعمها من طعامه. ولا يوجد أى سبب لذكر اسمها فى تقرير المَهر هذا".

مسَّد القاضى شاربه الخفيف ثم قال:

"ماندوكو لم يقل العكس، لكنه- فى فاتورة المهر- دون الآتى: لدى وصولها، زارته دينِيتِى. كانت تريد حلوى. وهو يطالب بتسديد هذا المبلغ".

غضب العَم مَآ، وقف منفجرًا:

"لم أكن موجودًا عندما تم الاتفاق على هذه الزيجة. كنت ما أزال بالخارج؛ وأخى الكبير هو المسئول عن كل ذلك. أأنت واعٍ بتصرفك هذا؟ قال، ملتفتًا إلى صهره السابق. كم يبلغ المهر؟"

"فى المجمل خمسة عشر ألف فرنك، يا عم مَآ". رد القاضى.

- هل أدرج ضمنها الأربعين فرنكًا ثمن الحلوى؟

- بالطبع! أجاب المعاون الذى لم يستطع منع نفسه من الضحك.

بكت دينِيتِى من الخزى؛ فبالنسبة لها، هذه إهانة. لماذا وصل زوج أختها إلى حد المطالبة بالأربعين فرنكًا، ثمن الحلوى، التى أعطاها لها. ألم يعطها النقود عن طيب خاطر؟ تساءلت.

لم تكن قد أتمت الخمسة أعوام فى هذه الفترة البعيدة. فهى لا تتذكر اليوم ولا الساعة. لا تذكر سوى أنهم كانوا قد وصلوا لحظة أن أدخل العَم مَآ قطيع الماعز داخل السور.

مسحت دموعها إطاعةً لأوامر جدها.

"سأدفع المهر، فلا ينقصنى المال"؛ قال.

فجأةً، خرجت امرأة من الحشد لتوبخ ابنتها:

"مونوجو! آمل أن تكونى قد اقتنعتِ اليوم. لقد قلنا لك ألا تتزوجى ماندوكو. كان يعطينا الانطباع بأنه رجل غير مسئول. لم تأخذى نصائحنا على محمل الجد. لم تكونى تريدين سماعنا، رغبتِ فى الزواج منه ليأخذكِ إلى ورشة "لوترما". فهل يمكن أن تقولى لنا ماذا فعل بك؟ لو كنتُ مكانك، لشعرت بالخزى. لقد استغلك، واليوم يرميك مثل عسل تم امتصاص سُكَّره. لقد انحط زوجك إلى حد المطالبة برد أربعين فرنكًا ثمن حلوى. يظن أننا لسنا على علم بكل شىء. فقدتِ طفلاً فى الورشة، وهرب ماندوكو. وأسعفك الحظ أن قريبك موندوما(*) كان موجودًا، وإلاَّ لسرتِ بجثة بين ذراعيكِ كأنك لستِ تحت سقف رجل!".

هدَّأ القاضى المرأة الغاضبة، ودفع العَم مَآ مبلغ الخمسة عشر ألف فرنك. لم يكف الحضور عن الضحك على مبلغ الأربعين فرنكًا للحلوى، الذى

(*) موندوما: ليكون مشهورًا، الثعبان الأسود.

احتُسب كجزء من المهر. فى نفس المساء، وجدت أزڤينو دينيتِى بالغة الحزن، مسندة ظهرها إلى حائط المنزل. لم يكن ذلك من عادتها، كما فكرت.

– لا داعٍ لهذه الهيئة، يا دينيتِى. قولى ماذا حدث؟

– هى مشكلة صغيرة. كنتُ بالكاد فى الخامسة، عندما أتى زوج أختى ليقضى الإجازة عند العَم مَآ. كان فمى لا يزال يفوح برائحة الحليب. ولم أكن أعلم أن عُرفَنا محكومٌ بقوانين ومبادئ، وأن البعض يسيئون استخدامها ليتحكموا فى أقاربهم. إننى أتحدث عن موقف سخيف وقع خلال اجتماع العائلة الذى حضرته. فقد طلب زوج أختى رد أربعين فرنكًا كان قد أعطاها لى لأشترى حلوى.

انفجرت أزڤينو بالضحك وكذلك دينيتِى.

"هذا لا شىء، فلدىَّ أربعون فرنكًا فى حقيبتى، يمكن دفعها له".

– احتفظى بها، فالعَم مَآ قد دفع بالفعل المهر. والمبلغ يصل إلى خمسة عشر ألف فرنك.

انفجرتا مرةً أخرى بالضحك. فإذا ما كان المهر الذى دفعه ماندوكو إلى الأخ الأكبر للعم مآ كان يمثل شيئًا ما فيما مضى، فاليوم فقدت العملة كثيرًا من قيمتها، ولم تعد القيمة التى يمثلها هذا المبلغ ذات بال. ذلك ـ بلا شك ـ سبب سخرية الأطفال من ماندوكو. ألم يكن يستطيع ـ حُبًا فى الرب ـ أن يترك

زوجته تمضى بالمهر؟ لم تنس دينِيتِى توجيه هذا السؤال للعم مَآ، الذى أجابها:

"يقال إن المال لا ينبغى أن يختفى فى قبيلة أخرى، مما دفع ماندوكو إلى مطالبتنا برد ما دفع. حقًا، لقد أنجب مع مونوجو أطفالاً. آخرون قد يتركون المهر، ولكن هذا فيما يبدو سوء حظ".

ليُفهم حفيدته بشكل أفضل، حكى لها هذه الحكاية:

"كانت هناك امرأة تُدعى بينيانى(*) تقيم بموكاب. كانت تضع ـ كل مرة ـ أطفالاً متوفين. اتُّهم عمها بأنه المسئول. ذات صباح، خرج من منزله، لم يكن يرتدى سوى تنورة حول رقبته. عبَر قرية من أقصاها إلى أقصاها. تحدث فى ذلك اليوم، فخيم الصمت على الجميع. قال إن ابنة أخيه لن تفقد بعد الآن أطفالها فى الولادة:

"إنها تعرِّض حياتها للخطر لو لم نقم بالواجب".

أتى العم بمداوٍ ليؤمِّن بيت ابنة أخيه. أخذ المداوى قرعةً ملأها بخليط يعمل كمثير لاجتذاب السحرة، ويدعى الموكاكى. علقه فى ساعة متأخرة من الليل، بركن من المنزل. نصح المرأة الشابة ألا تنقذ شخصًا مريضًا سيأتى ليطلب منها معروفًا، لأنه المسئول عن مشاكلها.

---

(*) بينيانى: هذا لشخص آخر.

في مفاجأة لكل العائلة، زوجها هو الذى سقط مريضًا. هربًّ العم بينيانى: كانت هذه فرصته الوحيدة كى لا تستسلم لمحاولة علاج زوجها. فى نهاية الأسبوع، أسلم الروح. استنتجوا أنه هو من رمَى عليها تعويذةً شريرة، وشرب الموكاكى فاحتضر. شعرت عائلة الزوج بالحرج.

منع العم ابنة أخيه من بكاء زوجها. ونسى رد المهر، حتى أن بينيانى لم تستطع الزواج حتى نهاية حياتها".

## ـ ٤ ـ

تساعد دينِيتِى أمها فى عزق مزرعة الفول السودانى. نزعت الأعشاب الضارة ووضعتها على جذوع الأشجار. خيمت حرارة ملتهبة. تبعتها الحشرات الصغيرة فى كل مكان. اضطُرت إلى ربط منديل على رأسها لتحمى نفسها. بعد ذلك، وضعت السماد تحت القلقاس لمنحه قليلاً من التربة العضوية. الأم موساڤو هى التى علمتها كيف تفعل ذلك. توقف العَم مَآ خلال مروره ليمتدح عملها.

"يجب أن تواصلى، فمن خلال هذا يتم الحكم على المرأة. فلا يمكنك الاكتفاء بقول "أنا امرأة"، إن لم تعرفى الزراعة أو الطهى"، أكمل حديثه.

رغم ذلك، قدمت دينِيتِى بالفعل براهينها. فهى تعرف كيف تفعل كل شىء فى غياب أمها. هى التى تعتنى بوجبات أبيها وجدها. ولا تُهمل أخواتها الأصغر سنًا الذين لا يستطيعون الاستحمام بمفردهم. أفليس هذا الاسم مناسبًا لها؟ لا أحد يشك فى ذلك. لقد أقنعت بشجاعتها القرية بأكملها.

ولو كانت دينِيتِى تعرف كيفية استخدام الساطور لزراعة بذور الفول السودانى، فالفضل يعود لجدتها. فهى تأخذها معها كل سبت إلى الحقل، لتتعلم كيف تتواصل مع الأرض. تعلمت شيئًا فشيئًا العثور على أفضل وضع لشق الحفرة التى تُستخدم فى غرس البذور، على إيقاع غناء وقرع أيادى النساء الأخريات اللائى يعاونَّها. فى هذه الروح الجماعية، تنهمك دينِيتِى دائمًا لتتقدم فى عملها.

لا يقتصر اليوم كله على هذه المهمة. قطعت أيضًا الخشب، وأخيرًا حصدت بعض الخضراوات التى عادت بها فى سلتها إلى القرية. عندما تقابل المارة، ينظرون إليها بإعجاب، ينادونها هنا وهناك، كأنهم يهنئون أمها على تربيتها الجيدة، تربية امرأة تستعد لتأسيس منزلها الخاص. وتصخب عليها طلبات الزواج من أعلى المُزايدين.

عند سماعها، ضحكت الأم موسافُو وهى تفرغ سلتها. ثم فكرت فى خطاب بعثته نُن أثارت خلاله قلقها على مستقبل أختها. فلو بقيت بالقرية، لن تستطيع مواصلة تعليمها. تريد نُن أن تذهب إلى المدينة لتتمكن من الالتحاق بالمدرسة الثانوية. قالت موسافُو لنفسها: "دينِيتِى ستتركنا قريبًا. فجدها يريد أن يبعثها إلى المدينة، عند نُن".

"يقولون إن الناس هناك تحصل على تعليم جيد. فالفتيات لا يذهبن إلى الأدغال. وفيما عدا بعض

الأعمال المنزلية، يمضين أغلب وقتهن فى المكتبات، ليتعلمن علم البيض. أريد أن تتعلم! هذه رغبتى، لأنى إن لم أكن قد أكملت تعليمى، فهو ما يرجع من ناحية إلى حملى المفاجئ، ومن ناحية أخرى إلى حالتى الصحية. يرجع الأمر إلى كل هذا"، أضافت بطريقة مبهمة، كأنما لتقلل من أهمية الأمر.

وفيًا لعادته، ذهب العَم مَآ يوم الأحد بعد القداس إلى موسَّاموكوجرو[1] ليزور صديقًا أو قريبًا. يمشى ويمشى، بلا لهاث، يرافقه حفيدان، دينِيتِى وأخوها الصغير ماكوسُّو[2]رمقت جدها بنظرة ثاقبة وهو يتبعها بعصاه. تريد طرح سؤال عليه، لكنها لا تعلم ماذا تفعل.

"عَم مَآ! هل يمكن أن أعرف أكثر تجربة تركت بَصمتها عليكَ خلال شبابك؟

توقف العَم مَآ، وضحك قبل أن يجيبها.

"التجربة الأكثر رهبة كانت تتعلق بمعرفة الخير والشر. فلا ينبغى القول "نعم" فى مكان "لا". والرجل يا ابنتى، هو الذى يمكنه القيام بشىء يتوافق مع أرقى طموحاته، لا مَن يقبل على عمله من أجل الإطراء، فيما هو ـ فى داخله ـ نكرة. الرجل الحقيقى هو القادر على حماية كرامته، حتى لو كانت السكين على رقبته".

(١) موسَّاموكوجرو: الرسالة التى تنشر المثل.

(٢) ماكوسُّو: الخنزير.

أكملت دينِيتِى مسيرها دون أن تنبس بكلمة.

"هل أجبت جيدًا على سؤالك؟"

نعم، أجبت جيدًا..

يلتف الطريق حول مجرى مائى.

"أشعر بالظمأ، يا جدى. فهل نتوقف لنشرب؟ سأنتهز الفرصة لمسح وجهى بالماء، لأنى أشعر بالظمأ والحر!"

جلس العَم مَآ على جذع شجرة. نظر إلى حفيدته وهى تنزل الحافة. لمحت دينِيتِى عصفورين يتبعانها ويقفزان من غصن لآخر، ثم يلمسان بالكاد سطح المياه برفرفة أجنحتهما. لم يفلحا فى اقتناص حشرة تسبح. فجأةً، سقطت ثمرة فاكهة وموَّجت المياه. ألقت نظرة خاطفة، هى ثمرة جوز نخيل أسقطها سنجاب. قطفت ورقة شجرة عريضة، شكلتها بعناية كوبًا شربت به. فجأةً، سقط غصن شجرة ميتة وأفزعها. رفعت عينيها فرأت ثعبانًا ضخمًا يمر من غصن لآخر، فى حركات أشبه بقفزات القرود. تملكها الخوف، فعادت بسرعة إلى العَم مَآ لتحظى برعايته.

"جدى، لقد رأيت ثعبانًا! إنه هناك، انظر! لا يزال على هذا الغصن".

لقد رأيته، يا ابنتى، لكنه لن يؤذيك. فيكفى أن ترتدى هذا العقد، لتصبحى معصومة من عضة الأفعى، بل إن شئتِ، فيمكنك مراقبته، لأنه لن يتحرك إلى أن نرحل.

تابع العم والطفلان سيرهم.

"كانت أمى تزرع هنا، قال العَم مَآ. فى ذلك الحين، وكنتُ فى عمر أخيك ماكوسُّو، وضعت فخاخًا حول المزرعة. لم يكن أبى يعلم أنى قادر على نصب فخ لحيوان فى الغابة الشاسعة. وذات صباح، كان قادمًا مع أمى، ولم يكونا قد أوصدا المزرعة بعد. حكت له أمى كيف نجحتُ فى قطع الطريق على القنافذ والحيوانات التى كانت تتلف المزرعة. شك أبى فى ذلك. بالنسبة له، لم أكن بعدُ الرجل القادر على معرفة فخاخ الحيوانات. فجأةً، لحظة النزول من الجبل، هو هذا الجبل نفسه، سمعا أنين حيوان: كان قد وقع فى فخى. كان ظبيًا بريًا ذا قرون طويلة ومعقوفة. غرس أبى رمحه فى قلبه. أخذا لحمه إلى القرية. لا أستطيع أن أقول لكما كم كان يزن، لكنه كان ضخمًا! فى ذلك الزمن، لم تكن هناك خيوط، فكنا نصنع الفخاخ بالحبال. حُملتُ على الأكتاف فى القرية، وامتدحوا اسم أبى فى كل مكان".

سعيدًا باستدعاء الأزمنة الماضية، استكمل العَم مَآ: "فى الماضى، كان أجدادنا يستخدمون الحجر الصوَّان لصنع أدوات الصيد والزراعة. لم يكن فى ذلك العصر حرفيون لنحت الحجر. جِنِّى النهر هو مَن كان يعمل. كانوا يأتون له بأطنان وأطنان من الحَجَر وبعد ثمانى وأربعين ساعة، تكون كل الأحجار قد تم صقلها. كانوا يجدون آلاف السكاكين والفئوس والسواطير والرماح. وذات يوم، أراد فتى جاحد

حضور تصنيع هذه الأدوات، رغم تحريم مراقبة الجنِّى. ركب رأسه. تسلق شجرة واختبأ بين أوراقها، وأدار نظره ناحية النهر. فجأةً، سمع هديرًا مع تماوج كبير للمياه. عصفت الرياح وظهر النَّدى. كانت الشمس تلتمع كفضة ناصعة. وعلى حين غرة، لمح الجِنِّى يخرج من الماء. دخل مغارة استبدل فيها ملابسه مرتديًا رداء العمل. كان جميلاً، وشعره ينسدل على كتفيه. صنع أول رمح، فالثانى، فالثالث. اندهش المتلصص من سرعته فى نحت الأحجار. أزاح الأغصان ليتمكن من أفضل مشاهدة، ويصبح هو الآخر حرفيًا كبيرًا، لكنه أسقط ورقة شجر ميتة من أعلى شجرته، وتحطم مشروعه. عندما رأى الجنِّى ورقة الشجر، أدرك أن هناك شخصًا يتلصص عليه. وقف وجال ببصره نحو قمة شجرة الأُكومة. رأى الفتى يرتعد من الرعب. أشار إليه بإصبعه، فتحول الفتى إلى عش حشرات! هكذا، ولأن الجِنِّى لم يعد يرغب فى أن يتلصص عليه أحد، نقل قدراته إلى امرأة عجوز حدباء، أنجبت ولدًا. علمت ابنها هذه المهنة، وفيما بعد، تعلم الابن طَرق الحديد بتردده على أهل البَر الآخر".

خرج العَم مَآ وحفيداه من الغابة. مروا بقرية تبدو مهجورة. هناك، قابلوا عجوزًا يكبر العَم مَآ، وتبادلوا السلام المعتاد. يمسك الرجل بالسكين فى يده اليمنى، ويضع البندقية على كتفه. يرافقه كلب أسود يهز ذيله عند رؤية الغرباء؛ يقفز الحيوان من حين لآخر خلف ساقَى دينِيتِى التى دفعته من الرعب.

"لا تخافى! فكلبى صديق وفى للأطفال". لم تتعرف دينِيتِى على الرجل العجوز. ظنت أنها المرة الأولى التى تراه فيها، لكنه يتذكرها بلا صعوبة.

سألها: "كيف حالك، يا دينِيتِى؟"

على خير حال.

سأدخل قليلاً إلى الأدغال لألقى نظرة على الفخاخ التى تركتها الأسبوع الماضى. أخواتك بالقرية، أمهم مريضة. قلت لها ألا تتحرك اليوم. أظن أن مشاغلها فى الفترة الأخيرة هى السبب: لقد انتهت من ثلاث مزارع هذا العام، الكبيرة فى المخيم، واثنتان قرب القرية، عند تل نهر بيبونجا[1] قبل نزول المنحدر. لأكون دقيقًا؛ فى مكان أول مخيم لى.

أعلم، فقد قابلتك هناك مع زوجتك كاك[2] سافو، فى طريقى إلى موكاب، لم تكن دينِيتِى قد وُلدت بعد؛ قال العَم مَا.

تبسمت دينِيتِى، وواصلوا طريقهم بعد أن ودعوا الرجل العجوز. سألت عن اسمه.

"هل نسيتِ كاج نزينجى؟ إنه زوج كاك سافو".

وصلوا إلى القرية حيث وجدوا كاك سافو واقفة فى شرفة مطبخها. ثبتت أوراق الطِّباق على شجرة لتجففها فى الشمس. تمتلك كاك سافو مزرعة كبيرة للطِّباق، لكنها أصبحت عجوزا، ولم تعد قادرة على

---

(١) بيبونجا: السلاحف.

(٢) كاك: جدة أو جد.

الذهاب إلى السوق الذى يبعد كثيرًا عن القرية؛ لذا تبيع محصولها على حافة الطريق: تعلقه على خشبة ترفعها على حاملين. ورغم ولاداتها الكثيرة، فقد عرفت كيف تحافظ على جسدها، وما من شعر أبيض لديها مثل كاج نزينجى.

"سامبا!"، قالت فى استقبال دينِيتِى.

قبلت الأطفال وحيَّت العَم مَآ.

"ماكوسو! أصبحتَ فتى كبيرًا. ودينِيتِى! آه! دينِيتِى أصبحت امرأة شابة أيضًا. صدق جدى حين قال إن النسل امتداد لحياة المرء. تعالوا هنا". دعتهم للجلوس.

"قابلنا كاج نزينجى، وقال لنا إنك مريضة".

أنا مريضة، يا عم مآ. ظَهرى يؤلمنى بسبب أعمال الزراعة. لقد زرعت ثلاث مزارع هذا العام. وعقدت آمالى على ابنتى التى تساعدنى فى عطلة نهاية الأسبوع، لكنها دخلت شهرها السادس ورحلت إلى تشيبانجا. فبقيت وحدى.

دينِيتِى وماكوسو ينظران إلى أطفال القرية الذين يلعبون بالقرب منهما. يشعران بفخر لوجودهما مع جدهما. بجوار أملاك كاك سافو، تقف امرأة مع ابنتها أمام مدخنة لتجفيف السَّمك.

ابتعدت دينِيتِى عن جدها؛ طلبت من كاك سافو دلوًا. ترغب فى إحضار مياه، لكن الجدة تأمرها بألا تلمس شيئًا.

"نحن نأتى بالماء من مسافة بعيدة عن القرية. فالأفضل أن تستريحى الآن أولاً. فلدىَّ انطباع أنكِ متعبة".

أعطت لكل واحد حفنة قلقاس؛ تركهم العَم مَآ؛ توجه إلى الطرف الآخر من القرية ليلقى التحية على الزعيم ويتناقش معه. وجده متمددًا على أريكة، ومنشته عند قدميه. تناول قطعة موز مشوى غمرها فى صلصة الجنيمبوى بلحم الخنزير المُتبَّل والمدخن. استقبل بحفاوة ابن أخيه. رغم تلك العلاقة، يلقبه الزعيم أيضًا بالعَم مَآ، لأن الجميع اعتاد على ذلك. اعتدل الزعيم فى جلسته، ووضع قبعته على الأرض، ومرر يده سريعًا على رأسه الأشيب، كمَن يريد أن يتخلص من حشرة تلدغه. صافحه العَم مَآ، تناول كرسيًا مقلوبًا ووضعه إلى يمين الزعيم، وبدأ بتلخيص الأخبار.

"جئت مع زوجتك(*) دينِيتِى وأخيك الكبير ماكوسُّو".

"لستُ على ما يرام منذ لقائنا الأخير، قال الزعيم العجوز. فلو لم يؤلمنى ظَهرى، تؤلمنى رأسى. لا أعلم لماذا. جاء طبيب هنا، صديقٌ لابنك. تعلم أنه لم يتبق أطباء بيض، فقد حل هؤلاء محلهم. وعلينا الثقة

---

(*) يطلق العم مآ على حفيده الأخ الأكبر، لأن ماكوسُّو يحمل اسم الأخ الأكبر للزعيم. وحسب العُرف البونى، تُعتبر دينيتى زوجة الزعيم، لأنه ـ كمسئول عن السلالة ـ بمثابة جدها، وبالتالى «زوجها».

بهم؛ لقد فحصنى، لكن المسكين لم يستطع فعل شىء، فلم تكن لديه أية أجهزة".

"لم تعد لدى مستشفيات الأرياف أية إمكانات، ردَّ العَم مَآ. وإذا كنت قد نجوت بحياتى، فذلك بفضل ابنتك نُن. فهى التى طلبت منى الذهاب إلى المدينة حيث تلقيتُ العلاج. هناك، تجد الجميع، البيض والسود. يعملون جميعًا يدًا بيد. وخلال أسبوعين، استعدت صحتى. تخطئ الحكومة عندما تبعث بالأطفال إلى المستشفيات والمستوصفات الفارغة. فلا أدوية، وذلك ليس خطأهم".

بعينين قلقتين، تأمل العَم مَآ المنظر: كل شىء تغير. عند عودته من الخدمة العسكرية، كانت هذه القرية بؤرةً للأنشطة، أما الآن فالأزمة الاقتصادية تسحق أبناءها، الذين ينزحون إلى المدن الكبرى ويهجرونها. يعتقد أن الأبناء الآن مفككون بسبب هذه الأوضاع. ولم يعد بالقرية سوى سبعة منازل، فيما كانت تضم فى الماضى أكثر من ألفى نسمة. سألت كومبا(*) زوجة أحد أحفاد العَم مَآ، ما إذا كانت دينيتِى تعرف القراءة والكتابة. تريد منها كتابة خطاب إلى زوجها. المرأة شابة، نحيلة وفارعة القوام. فقدت وزنها بسبب أعمال الزراعة. أرسلها زوجها إلى القرية لتعاون أمه المريضة. لدى وصولها، كانت فى آخر حملها. ولدت، لكنها ـ منذ ذلك الحين ـ لم تصلها أخباره. طلب العَم مَآ من حفيدته الحضور.

(*) كومبا: يتجنب.

"عليك بقلم وورقة لتكتبى خطابًا إلى أخيك الكبير".

عبرت كومبا عن نفسها بلغة البونو، وترجمت دينِيتِى أولا بأول إلى الفرنسية.

"قولى له إنه هو مَن طلب منى الحضور إلى هنا بسبب صحة أمه. وهو يعلم نوعية الحياة التى نعيشها فى القرية. فى البداية، كان على الأقل يبعث بقطعة صابون، لكن فى الآونة الأخيرة، لماذا لم يعد يريد أن يفعل ذلك؟ لقد أتيت ومعى طفلان إلى جانب حملى. وعندما وضعت طفلى، أرسل لى مستلزمات الطفل ناقصة. وذلك ما لم يُسعد أهلى. لقد شعرت بالحرج فى المستشفى عندما سألتنى القابلات عن اسم زوجى. قلت لهن إننى بلا زوج. فإن كنتَ لا تريد ذهابى إليك، فلابد من المجىء لأخذ الأطفال وحدهم. نحن على ما يرام، وأبعث له تحياتى".

دونت دينِيتِى ملاحظات وصاغتها بطريقتها، لكنها لم تُحرف الرسالة. أعادت قراءة الرسالة بالفرنسية، ثم ترجمتها إلى لغة البُونو. شعرت كومبا بالرضا. لم تنس دينِيتِى شيئًا مما أملته عليها. والترجمة واضحة.

أُعجبت دينِيتِى بطفل زوجة أخيها. طفل ضخم ممتلئ الخدين، يبكى ويتحرك بين ذراعى أمه. مدت الطفل إلى دينِيتِى التى تقدمت لتأخذه، فهدأ الطفل فى الحال. أخذت دينِيتِى فى غناء أنشودة له.

تساءلت عن غرابة أخيها الأكبر. لقد ترك زوجته وأبناءه فى القرية دون أية دلائل على أنه على قيد الحياة.

عادت لتأخذ مكانها بجوار كاك ساڤو، التى حكت قصة شيقة عاشتها امرأة فى منطقة فوجامو.

"تدعى إيانجى[١] قالت. أنجبت أطفالاً كثيرين بلا مشاكل؛ لكنها مع الطفل قبل الأخير حدث ما لا يمكن أن تتوقعوه. وضعت بيض دجاج. ورغم هذه المشكلة، فلم يتخل عنها زوجها. اجتمع مجلس الحكماء. جمع البيض، ووضعه فى قدر ضخم أودعه فى المبادچا ليفحصه فى اليوم التالى رجال البوِيتى[٢] وخلال ذلك الاحتفال الشعائرى الكبير، لاحظوا أن هذا البيض ليس سوى هدية من الجنِّى إلى العائلة. نصحوها بإعداده، مع إضافة بعض الأعشاب، دون تناوله. جففت البيض فى المدخنة، ولدهشتها الشديدة تحول إلى صلصال. دعكوا به المرأة التى سرعان ما حملت من جديد؛ لكنها ـ هذه المرة ـ أنجبت طفلاً. أصبح هذا الصلصال مصدر ثراء العائلة ومصدر خصوبة نساء القرية. لكن ذلك ليس كل شىء، استطردت كاك ساڤو. فبعد ثلاثة شهور، ذهبت لزيارة رجال البوِيتى لإعداد احتفالية شعائرية أخرى، من أجل حماية الطفل من رماة الشرور السحرية. شاركت

(١) إيانجى: النور.

(٢) رجال دين البويتى، الدين السائد بجنوب الجابون. راجع المقدمة.

القرية بأكملها فى هذه المناسبة؛ لأنها سمحت لبعض الأشخاص المحظوظين بإيجاد عزاء للشرور التى تهدد حياتهم اليومية. فرجال البوِيتى مشهورون ببصيرتهم وموهبتهم فى الشفاء. زين الراقصون وجوههم بالصلصال ومسحوق أحمر. جذوعهم عارية، ولا يرتدون إلا ما يستر عوراتهم. يرتدى البعض أليافًا من الأغصان على شكل حمّالة. يرقصون على أنغام القيثارة، آلتهم المفضلة، وأيضًا طبلة التَّام ـ تام. فى البداية، حولوا حوض مياه إلى بركة اصطادوا منها السمك. ثم حولوا فناء المبادجا إلى مزرعة زرعوا فيها الموز. أخيرًا، قطعوا طفل هذه المرأة إلى قطع غطوها بأوراق الموز، وأقاموا وليمة كبيرة حول جثته! اشتد حماس الأغانى والرقصات على أنغام التَّام-تام. ويمكنكم تخيل فزع الأم المسكينة، انفجرت باكية. اعتقدت أن موت طفلها حقيقى. ولكن فجأة، خرج راقص من وسط الحشد وهو يغنى أغنية جميلة. أمسك بهذا الطفل الباكى بين ذراعيه. أعطاه لأمه وطلب منها أن تتفحصه. ضمته إليها مبتسمة، لأنه حى يرزق. خلال هذا الوقت، تصاعد الصخب إلى عنان السماء لاستقبال الطفل، الذى أصبح معصومًا. بعد ذلك أوصوها بأن يرتدى قلادة البويتى التى تُسمَّى ديدومب، وأن تمسح له رأسه بالمنجولى، تعرفونها، فهى نوع من المسحوق الأحمر الذى يجعل الروح الحامية لا تفارقه. غموض كامل، لأن البِركة اختفت ـ شأن المزرعة ـ بعد الطعام، وحتى الطفل لم

يمسه خدش واحد. صباح اليوم التالى، رافقهم الراقصون إلى منزلهم، حيث زرعوا أمامه نخلة تحيط بها أحجار. وأصبح هذا المكان ـ منذ ذلك الحين ـ مقدسًا. أُسمى "مبيمب". وتحرس النخلة الطفل حتى لا يأتيه السحرة بسوء".

عاد العَم مَآ وعائلته إلى مويل دون إضاعة وقت، فهم لا يحبون السير ليلاً فى الأدغال. ما إن عادوا، حتى تبين لموسافو أن ابنها ماكوسُّو قد استغل نزهته ليحكى لهم كل ما تفعله. ليست هذه المرة الأولى التى يتحدث خلالها بلا رقيب، فانتابها غضب كبير:

"ماكوسُّو ليست لديه تفاحة آدم!"، قالت.

ذهبت إلى أبيها وهى تبكى:

"أشعر بالتعاسة، يا عم مآ، لأنى ولدتُ ابنًا لا يحمل صفات الرجال. كل ما نقوله فى السر، يحكيه إلى أى شخص يريد سماعه، كأنه امرأة".

عمَّن تتحدثين، بالتحديد؟

أتحدث عن حفيدك ماكوسُّو، عمَّن سأتحدث غيره؟ لأنه لا يحكى أسرارى لك وحدك، بل يروى للقرية كلها ما يحدث بالمنزل. وهناك ما هو أخطر، فهو يفشى أسرار عائلتنا. وهى عادة سيئة جدًا، إضافة إلى أنه يقضى وقته فى النميمة عن أبيه وأمه. أنت تعلم جيدًا أنه يعرض حياتنا للخطر، لأن البعض فى هذه القرية يستغلون أقل شجار أُسرى ليصيبونا

بشَر سحرى. ولابد من منع الألسنة الشريرة من تفرقة ما يجب أن يوحدنا. أعلم جيدًا أنه ما من ساحر يستطيع إيذاءنا طالما بقى مجتمعنا متماسكًا.

"كفَى بكاءً، يا ابنتى؛ أجابها العَم مَآ. لك الحق، فعلى الرجل أن يحلل أولاً ما يمكن أن يقال أو لا يقال. وإذا ما بقى ماكوسُّو ثرثارًا، فلن يصبح أبدًا رجلاً، ولن يستطيع تخليد سلالة الكالباس. هذه مسألة جدية، وسنجد لها علاجًا. عودى معه صباح الغد، واحرصى على أن تكونى هنا قبل بزوغ الشمس".

عندما جاءت الأم موسافو فى اليوم التالى، بصحبة ماكوسُّو، كان العَم مَآ قد أعد الطقس. على سطح المنزل، كان ثمة شاب يمسك برمح فى يد وفى الأخرى كوب ماء. أمامهم، أمسك شابان قويان بماكوسُّو من تحت إبطيه ورفعاه إلى مستوى السقف. طُلب من الصغير فتح فمه. فى الحال، وضع الرجل الذى يقف على السطح سن رمحه على لسانه، وصب الماء قطرةً قطرةً على الساطور. سالت برقة إلى حلق ماكوسُّو. أعادوها أكثر من مرة إلى أن حرر الماء العذب هذا الحلق المتلهف على كل خبر مثير.

بعد أربعة أيام، لاحظت الأم موسافو أن ابنها تعلَّم أخيرًا التحكم فى كلامه.

"هذا جيد، يا ابنى، قالت له. استمر فى التفكير قبل الكلام، لأن الحقائق نفسها لا يُستحسن ذكرها كلها.."

## ـ ٥ ـ

عادت موفَنجى إلى القرية، بعد إقامتها القصيرة فى نزومبى، يصحبها سباستيان فوافوا. نزلت من السيارة بُحيرةً من الدموع. أمسك أخوها بذراعها حتى يسندها. التف جمع من الأصدقاء والأهل حولها، الآن، تنتظرها محنة الترمل الرهيبة. توجهت على الفور إلى عائلة زوجها. ترتدى رداءً أسود. شعرها لا يزال أشعث. صوتها أجش وعيناها منتفختان. ذلك هو الدليل على أنها أمضت أيامًا فى البكاء. استقبلتها امرأة مسئولة عن ترتيب أنشطة الترمل، وترتدى تنورةً معقودة عند صدرها.

أما سباستيان فوافوا، فتوجه إلى المبادچا. توقفت النساء عن الصراخ. اقتربن حتى يتابعن ملخص الأخبار. لم يتخذن مكانًا وسط هذا المجلس؛ بل بقين على الجانب، جالسات على مقاعد ليستمعن لسباستيان.

"لقد جئت على عجل بسبب المصاب الذى حل بنا فى ذلك اليوم. أعتقد أنكم تلقيتم رسالتى، ولا أستطيع معاودة ما فيها. فيما عدا هذا الخبر، هناك

خبر آخر كان أحدوثة نزومبى: إنه الموت المأسوى، فى سبتمبر الماضى، لابن عم أجوا(*) لقد توفى فى الحى الذى يسمى الكاريبى. ولن أخفى عليكم أننا نتعجب من تصرفات أجوا. إنها تعطينا الانطباع بأنها على وشك الموت. تقول لنا إنها على اتصال بالرب. دائمًا تنام فى وقت متأخر وتستيقظ مبكرًا. نظرتها ثابتة، وتتحاور مع نفسها كل لحظة، فيما تلف أصابعها البوص لصنع الحصير. بل يقولون إنها تشكو مشاكلها إلى الشاهد الأعظم للعالم ليأتى لنجدتها".

فيما بعد، تحدث سباستيان لمدة ساعة عن وفاة ابن عمه.

"فى حى الكاريبى، الموت عند أطراف الأظافر. عاد ابن عمى ذات مساء من عمله متأخرًا. فكيف حدث ذلك؟ ما إن أغلق باب منزله، وبدأ خلع ملابسه، حتى سمع دق الباب.

"من الطارق؟"، سأل.

– إنه أنا، قال صديق له. جئنا لنأخذك لتشرب معنا فى بلان فو.

اعترضت زوجته:

لن تذهب. فالوقت تأخر. ويجب أن تنام.

سأذهب، فلن تمنعينى من الخروج مع أصدقائى. فلديهم ما يخبروننى به. إنه موضوع مهم.

(*) أجوا: دلائل مسبقة.

هـكـذا، رغم رفض زوجـتـه، قـرر الـذهـاب وخـرج. كانت المكيدة معدة.

انضموا إلى مجموعة من أصدقائهم فى بلان فو. هو أفضل حانة فى الحى. شربوا وتحدثوا عن حياتهم اليـومـيـة. كـان ابن الـعم فى حـالـة سُكر بيِّن. دخل فى سُبات بينما ظل الباقون مستيقظين. ذهب ليقضى حاجته، فدُس له ظفر سم فى الكوب. عند عودته لم يلاحظ أن لون الكوب قد تغير. لم تكن هذه بيرة وإنما نبيذ أحمر لإخفاء الظفر السام. أفرغ ابن العم الكوب. عنـدمـا وضـعـه، أحس بـأنه لـيس عـلى مـا يـرام. أصبح ثقيلاً وشعر بألم فى المفاصل فاعتذر واستأذن. عاد إلى منـزله تحـت مـطـر غـزيـر. أعـمـاه الـبـرق الـذى لم يـتـوقـف، كـمـا انـقـطـعـت الـكـهـربـاء عن حى الـكـاريبى بـأكـمـله. اضـطُـرت زوجـتـه لإضـاءة الـشـمـوع، وجـمـعـت أبـنـاءهـا جـمـيـعًـا فى غـرفـتـهـا. سـيـطـر عـلـيـهـا الخـوف ونـظـرت فى سـاعـتـهـا، كـانت الـثـالـثـة صـبـاحًـا. فى هـذه الساعة، طرق زوجها الباب.

"ما بوانج(*) افتحى الباب، أنا أحتضر!"

فتحت الباب، فارتمى بطوله على أريكة الصالون. تـقـيـأ دمًـا. أطـلـقـت زوجـتـه صـرخـة يـأس هـائـلـة. عـاد الـضـوء وأُضـىء الحى كله. كأن الـرب لم يكن يـريـده أن يموت فى الظلام.

خرج الناس من أكواخهم ليروا ما حدث له. حكَى بنفسه ما عايشه، ثم أعطى نصائح لزوجته:

(*) ما بوانج: ذكَر، تذكَّر.

"لابد من مراعاة الأطفال جيدًا. لا داعٍ لارتداء ملابس الحداد، فرحيلى مفاجئ. كنت أتمنى متابعة نموهم، لكنى أترك كل شىء بين يدى الرب. هذا المنزل لك ولأبنائنا".

تلك آخر جملة تمكن من نطقها. نُقل إلى المستشفى، لكنه أسلم الروح فى الطريق. بعد التشريح، استنتج الطبيب أنه توفى نتيجة تسمم.

لم ترتد ما بوانج ملابس الحداد، لكنها عانت بعد وفاة الفقيد. أصبحت نحيفة. ومنذ ذلك الحين، لم يكف الأبناء عن السؤال عن أخبار أبيهم. وهذا ما يضنيها.

"أمى! لماذا لم يعد أبى يأتى؟"، يسألها ابنها.

تصعُب الإجابة عن مثل هذا السؤال.

"أبوكم على موعد مع الرب. هذه اللحظة التى أتحدث إليكم فيها، يلتقيان وجهًا لوجه. يحاول أبوكم عرض مشاكلنا عليه، ليجد لنا الرب بداية الحل".

كان بمقدور أبى دعوة الرب إلى منزلنا.

تدخلت ابنتها: "أنا أيضًا، كنت أتمنى أن أقول له شيئًا ما".

ما هو؟

يجب أن ينقذ عائلتنا من البؤس والفقر، لأنك إذا نظرتِ جيدًا، يا أمى، فستجدين أننا نعيش فى تعاسة أكثر فأكثر منذ رحيل أبينا. بالإضافة إلى مرض الجد، فلو استطاع رعايته، فسوف يكون شيئًا جيدًا.

عندما كان جدكِ شابًا، سافر إلى بلاد بعيدة. وقال لى إنه عاش فى رغد. ولكن طاردته شياطين تقسيم الأرض وأشباح الجنس البشرى. ولأنه لم يكن من بلدهم، طلبوا منه ـ ذات يوم ـ ترك الأرض التى أحبها كثيرًا، وأصدقاءه وعائلته. واضطر لترك كل ممتلكاته.

وهل الأرض، مع ترك الجد لأحفاده، أعز ما يملك فى هذه الدنيا؟

الأرض هى الحب يا ابنتى، قالت والدموع تغطى وجهها. وهى لن توافق على شىء مماثل. إنه بالأحرى كُره البشر. هو ما يدفع الشعوب بأكملها منذ آلاف السنين إلى التقاتل. هو أيضًا ما انتزع منا أباكم رغم أن ساعته لم تكن قد حانت بعد.

لم يكن عليه الذهاب، يا أمى. فلا أحد يعلم ماذا يحدث هناك.

هذا بالتحديد ما أريد معرفته. وفى النهاية، فلا أحد يستطيع رفض نداء الرب. وهو ما فعله أبوكم. سيعرف كيف يجد الطريق الذى يصل به إلى الرب ليخفف من آلامنا هنا.

نمَّت ملامح وجه سباستيان عن حزن عميق، عندما نطق بهذه الكلمات.

"الموت! آه حقًا، أتى الموت ليضع نهاية لجمال الرجال والنساء، الذين يتبخترون فى الطرقات حتى مطلع الفَجر"، قال العَم مَآ، ليؤكد كلامه.

ثم قدم بدوره تلخيصًا موجزًا عن الحداد والحياة اليومية لكل القرويين فى مويل. رحل الجميع، وبقى سباستيان وحده مع الأب بيتُوفَا والعَم مَآ.

فى أول أسبوعين، نامت موڤَنجى على حصيرة. عانت جميع أشكال سوء المعاملة كأنها فى العبودية. عليها أن تبكى زوجها طوال العام. تعاونها سيدة الأرملة، وهى سيدة عجوز من عائلة الزوج المتوفى. هى التى تعلن بداية الطقس. فى هذه اللحظة بالتحديد، تقدم موڤَنجى، باكية، وصفًا لزوجها فى شكل صلاة طويلة:

"كان جميلاً، وكانت له مشية أبيه. وأسنانه كانت ناصعة البياض كأسنان الكلب. أنيقًا كان وفضائله كثيرة. فيا رب، ماذا فعلنا لتعاقبنا بهذه الطريقة؟ يا نزينجى المسكين، أوصيك بالذهاب إلى جدتك. اذهب! فهى تنتظرك. ينبغى أن تنقل إليها أخبارنا. فلابد أنها تفكر فينا نحن الذين بقينا فى الحزن والغم. سلِّم لنا على الجد كومبيلا[١] والأخت ماروندو[٢]والأخت الصغيرة ديكامبى[٣] ستبحث عن أمك دوجنجا[٤] ومبينا[٥] نحن نبعث لهم تحياتنا. نحن أيضًا، أتعبنا المرض، وسنلحق بكم قريبًا".

(١) كومبيلا: حُكَّه لى.

(٢) ماروندو: غير ناضج.

(٣) ديكامبى: نقص ما.

(٤) دوجنجا: الوتد.

(٥) مبينا: القبر.

عند هذه الكلمات، غطت وجهها الدموع. فكرت في عائلتها وفي كل من انتقلوا إلى ملكوت الموتى. هكذا. وعندما تطلق صرختها اليائسة، تتبعها كل النساء. يبكين بغزارة. أما أغلب الرجال فلا يصرخون مثلهن؛ ورغم ذلك تخلف الدموع آثارًا واضحة على وجوههم. فقد تأثروا بهذا الرحيل.

التقطت موفِّنجي نَفَسَها مرةً أخرى. الآن، تثق في نفْسها، فهي تعلم أنها نجحت في لفت انتباه سيدة المنتحبات، هذه المرأة السمراء النحيفة، التي تخيف الجميع وترهب النساء اللاتي لا يستطعن البكاء، لأنها ـ حتى تسيل دموعهن ـ تضع فلفلاً على نار، ثم تخرج وتغلق الباب. هذه الرائحة اللاذعة تجعلهن يعرقن. ولا تعود إلا عندما تسمع بكاءهن. لذا يسفحن دموعهن جميعًا كأنها من ينبوع لا ينضب.

هي أيضًا من تقدم لهن النغمة وإيقاع الموسيقى، ليتذكرن جميع أعمال المتوفى خلال حياته: آخر كلمة نطق بها، وآخر حركة.

كل يوم، تأتي زائرات ليوقظن من جديد هذه المشاعر، ولا تجد الأرملة وقتًا للراحة. تظل نائمةً طوال اليوم دون استيقاظ. ولتقضي حاجتها، يجب أن تصطحبها سيدتها.

بعد هذا الطقس الذي سيستمر عامًا، ستصبح الأرملة حرة، لأن لا أحد من أخوة زوجها سيطلبها للزواج.

"هل المرأة أكثر انفعالية من الرجل؟" تساءل العَم مَآ. قال لدينيتِي إن النساء أصل الحياة، إنهن مولِّدات وأرحام. هكذا، عندما يدعونا الرب إليه، يبكين ببراعة هائلة، ينطقن بكلمات مؤثرة تدل على ارتباطنا بالموتى، فيما الرجل يلعب دوره الخالد، دور بنَّاء القبور والمرشد، فهو يصنع للمتوفى تابوتًا جميلاً ويعد مقبرة جميلة لراحة روحه. وينظم أيضًا نقاشات مملة بين عائلات الفقيد، حتى لا يكون طريقه مفروشًا بالمكائد والعقبات.

قالت له دينِيتِي إن كثيرًا من المؤمنين لم يعودوا يحبذون هذه الطريقة، وإن الكاهن يراها مهينة للغاية.

"يجب أن تُصلُّوا إن أردتم ـ قال لنا ـ ليجد قريبكم مكانًا طيبًا فى السماء".

رغم رفض تلك الوسائل التقليدية، أجابها العَم مَآ، فإن رعايا الكنيسة لديهم فكرة جيدة عن مدرسة المنتحبات. يعتقدون أنهن عبقريات. بل إن الأب رولان يعجبه جمال أغانيهن وأشعارهن التى يطلقنها فى أوقات الحزن هذه.

انتظرت العجوز تشيتولا خمسة أشهر قبل أن تعطى لموڤنجى وشاحها الذى نسيته عند رحيلها إلى نزومبِى مع زوجها. لم تشأ إعادته إليها يوم عودتها، لئلا تزيد من انفعالاتها القوية آنذاك؛ عند أخذه، انهمرت دموع موڤنجى. ومع ذكريات الرحلة على المركب، عادت إليها صور كل ما شاركت فيه نزينجى وأنها فقدته إلى الأبد: المرآة والراديو.. هذا الوشاح

هـو الـشـىء الـوحـيـد الـذى بـقـى لـهـا من ذلك الـزمن، كبقعة لا تُمحى من على أصابعها. لا تريد إعطاءه لأحد. وذات يوم، وفيما ترتب غرفتها، فوجئت باختفائه. تساءلت عمَّن يمكن أن يكون قد أخذ آخر ذكرى لها. بكت وهى تواصل بحثها. فتشت كل متعلقاتها، وفى النهاية، وجدته فى جُحر فئران، خلف السرير، ممزقًا إلى قطع صغيرة تستخدم كوكر للحيوان الصغير. تحول بكاؤها إلى صرخات يأس، ووجدت العجوز تشيتولا صعوبة فى تهدئتها.

خلال عام حداد موفْنجى، أثرت فيها دراما جديدة، بلبلت دينِيتِى. وستصفها مطولاً فى خطاباتها إلى يولا.

فزوجة الفقيد نزينجى هى ابنة عم الشمَّاس الذى يطوف ـ سيرًا على الأقدام ـ قُرى المنطقة ليعلن تعاليم يسوع. ولكنه يؤدى مهمته فى بلد يتفكك تمامًا. ومنذ رحيل الأب رولان، وجد الشماس صعوبات كثيرة. فالبؤس المنتشر تسبب فى ارتداد الكثيرين من المؤمنين بالكنيسة. عادوا من جديد إلى الأديان الأرواحية [1] التى تقدم لهم جبلاً كاملاً من الوعود.

هو الأسبوع الأول من يونيو، بدأ ابن عمها مراسم تعميد بعض الرعايا فى دوجاندو [2] أقيمت الاحتفالية

---

(١) الديانات «الأرواحية animiste»، كالدين البويتى Bwiti، هى التى تؤمن بوجود الأرواح، لا لدى البشر فحسب، بل أيضًا فى الحيوانات والنباتات والصخور والظواهر الطبيعية، شأن الرعد، والتضاريس الجغرافية كالجبال والأنهار، إلخ (المراجع).

(٢) دوجاندو: السباب.

كالمتوقع. قدمت جموع غفيرة من كل أركان المدينة لتشارك فى هذه المناسبة المهمة التى تمثل الدخول فى ملكوت الرب. بعد التعميد، شكل الرعايا موكبًا رائعًا طاف حول الإرسالية.

عند وقت العودة إلى مويل، وقعت الدراما: لمس زورق الشماس ظهر فرس النهر فانقلب فى المياه. مات غرقًا. والتهمت التماسيح الشماس وأتباعه. ينتشر الذعر المُطبِق فى الأوساط المسيحية ,وفقدت الكنيسة واحدًا من أفضل خُدامها. كتب الرعايا إلى الأب الأعلى، وطالبوه بالعودة، لكنه كان فى مهمة بشرق إفريقيا، والحرب هناك تجعل الاتصال صعبًا. وسرت شائعة بأن الشماس قد التهمه جِنِّى النهر. هذا الجِنِّى الشرير وضَعه فى النهر زعيم قبيلة يكره كل من يرتاد كنيسة دوجاندو أو غيرها. أرعب هذا الخبر الرهيب المسيحيين فى موِيل، هؤلاء الذين لا يستطيعون حتى استعادة جثة الشماس ولا الكتب الإنجيلية.

نقل الصيادون شهادات عديدة بهذا الشأن: فكل مساء، حوالى الساعة الخامسة، يخرج الشماس من قاع المياه، عند منبع النهر. يتخذ مكانه بين رعاياه فوق الصخور ليصلى. ولكن مع اقترابهم يختفى المؤمنون. ويحكى نفس الأشخاص أنهم يلملمون أحيانًا كتب القداس التى تركها الشماس على الصخور. ووفقًا لهم، تهدد زوجة زعيم القبيلة بالرحيل من بيت الزوجية إذا ما واصل زوجها ممارساته السحرية. وطلب الزعيم من الجِنِّى الشرير قتل المسيحيين، حتى

لا تتركه. وعندما يعبر المسيحيون النهر لا يضعون صلبانهم على صدورهم، بل يخفونها فى جيوب قمصانهم، حتى لا يموتوا غرقًا.

خربت دوجاندو لأن المسيحيين يهربون من المدينة المسكونة بالجِنّى الشرير. لكن شيخ القبيلة توفى، ويقال إن صخرة على شكل صليب ظهرت وسط النهر، فى ذلك اليوم. إنه صليب الشمَّاس الذى تحول.

دخلت السفينة التى تُقل الأب رولان إلى الميناء فى شهر ديسمبر. استعد الجميع للاحتفال بعيد رأس السنة، الذى يؤشر على مولد يسوع الطفل.

"تلك هى المفاجأة الكبرى التى احتفظ بها الرب لسكان مويل"، قالت موفَنجى.

أحضر الأب الأعلى مواد لإعادة بناء الكنيسة. ذهبت موفَنجى لتحيته.

"كيف حالك، يا موفَنجى؟"

حمدًا للرب، يا أبتاه! لقد عدت مرة أخرى إلينا.

نعم، فأنا مضطر للعودة لإنقاذ ما تبقى. قد لا تعلمين كم تأثرت بموت الشماس. ألم يكن ابن عمك؟

نعم، من المحزن ما حدث، لقد فقدنا رجلاً، خادمًا مخلصًا للكنيسة، ولم نعثر على جثمانه.

شىءٌ محزن حقًا! ختم كلامه.

فى الصباح، التقت بأحد الأتباع القدامى للكنيسة

فى الشارع. انفجر الرجل بالضحك، ضحك ساخر، أثار انتباه الجميع.

قال: "موِيل معاقبة بسبب موت الشماس وأتباعه فى مياه النهر. والصخرة على شكل صليب التى تتوسط النهر ما هى إلا صليب يسوع المسيح، الذى مات لأجل خطايانا. هو الصليب الذى كان الشمّاس يحمله. يريد تذكيرنا بالطريق القويم. لقد عاش شعبنا طويلاً فى المعاناة من خطاياه، لأنه لم يشأ إطاعة القانون الإلهى. لقد ضحينا بشمّاسنا وبأخوتنا المسيحيين، لنبقى فى الظلام الأبدى للبدَع والشياطين الشريرة. لقد آن أوان التفكير فى حياتنا بعد الموت".

أجابته موڤَنجى: "صدقت. فعالمنا أصبح بالفعل حقلاً للمعارك، وأصبحنا نحصى الكثير من الموتى".

## ـ ٦ ـ

تقضى دينِيتِى إجازتها لدى عمتها التى تصحبها كل يوم إلى حقول الأرز الواقعة على ضفة النهر. تتعلم زراعة الأرز وطَرد الطيور. اكتشفت هنا مزرعة شاسعة، ومنذ البدء أعجبها هذا النشاط الثرى. حذت حذو عمتها، التى تحمل سلتها على ظهرها. وأدهشها منظر النساء المنحنيات، وفى أيديهن المناجل.

"عليكِ أن تتبعينى جيدًا، فهكذا نزرع. يكفى غرس البذور فى هذه التربة الطرية، ويسير كل شىء سريعًا".

تعمل العمة ببراعة، وبسرعة فائقة تترك دينِيتِى فى تفكير طويل. حاولت ابنة أخيها تقليدها: أمسكت بساق الأرز وانحنت، لكن التربة الطرية تعوق أحيانًا حركتها.

"لا أستطيع، يا عمتى. لقد بللت حتى فستانى!"

يجب ربطه من الأمام بعد رفعه قليلاً. ما من شىء صعب. يكفى أن تتابعى حركة يدى. فى يدى اليسرى، أحتفظ بحزمة الشتلات، فى يدى اليمنى،

لديَّ اثنتان أو ثلاث أغرسها فى التربة. حاولى، أريد أن أرى.

اعتدلت العمة، ووضعت يديها على أردافها، ونظرت إلى دينِيتِى وهى تعمل، تتقدم منحنيةً أولاً بأول وهى تزرع. اكتشفت الفتاة أن هذه العملية ليست سهلة. تيبَّس ظهرها. فاعتدلت وقامت ببعض الحركات لتليين أعضائها. ثبتت نظرها على الأطفال الذين لا يكفون عن الجرى بامتداد حقل الأرز المحاط بحبل تتدلى منه عُلب. انزلق أحدهم وسقطت رأسه أولاً. نهض، لكنه لم يعد بقادر على الرؤية بسبب الطين الذى يلطخ وجهه. فأجهش فى البكاء.

قالت له أمه: "لقد فعلت ذلك عن عمد. لا أدرى عمَّ تبحثون. اذهب لتغسل وجهك، وإذا عدت باكيًا، سترى ما سأفعل!"

أشفقت دينِيتِى على الطفل الذى يتحسس طريقه. انزلق مرةً أخرى وسقط فوق السلة الموضوعة بالقرب من الطريق.

استطردت أمه بصوت جهورى: "لا أصدق، إنك الأكبر، ألا تستطيع مساعدته؟ لا أدرى مَن أشار علىَّ بإحضاركم إلى هنا. بدأتم بالضغط على أعصابى. لم أعد أستطيع أن أعمل، لأنى مضطرة لمراقبتكم، أتساءل ما إذا كان الآخرون يعانون من نفس مشاكلى. حمدًا لله أنه لم يرزقنى سوى بكم الأربعة. وإذا طلب

منى إضافة طفل، فسأقول لا على الفور، لأنى معكم غير قادرة على البقاء على راحتى، فى ركنى. لكنى لو رزقت بعشرة أبناء، فستنفجر رأسى وستدفنوننى حية".

عادت دينيتِى إلى العمل، فغرست أكثر من مئة شتلة. لم يبق سوى بعض الأمتار لتنهى الصف. تنظر إليها عمتها وتقرأ التعب على وجهها.

"حان الوقت لتستريحى. لقد عملتِ كثيرًا. فى البدء، اعتقدت أنك لن تفلحى. وعند عودتك، ستصبحين فتاة معدة جيدًا لهذا النوع من العمل. أنا أعلم أن هذه المهنة لا تهمك بتاتًا. فقد اعتدتِ على غرس سيقان المنيهوت والقلقاس والموز.

أليست لديك مزارع موز، يا عمتى؟

لدىَّ مزرعتان، لكنهما بعيدتان عن هنا. لابد لك- للوصول إليهما - من عبور النهر والسير لمسافة طويلة فى السهل. تتخطين أحد الأدغال عند مدخل نهر يكتظ بالسلاحف، وتصعدين أربعة تلال، فتكتشفين منطقة خالية من الأشجار، يليها مجرى مائى هو أحد روافد هذا النهر. هناك ثمة شلال مياه، تعبرينه سيرًا على طريق من الحصى. وعندما تدخلين هذه الغابة، تكونين قد وصلتِ إلى المخيم. التربة غنية. وتساعد على نمو المزروعات بسهولة. عراجين الموز هناك أضخم مما تتخيلين. قد تصل إلى متر ووزنها ثقيل للغاية. وإن وضعنا اثنين فى سلتك، فقد لا تستطيعين

رفعها. أختك الكبيرة نُن تعرف هذا المخيم. وقد أخذتها إلى هناك عندما أتت مع العَم مآ، كان عمرها بالكاد عشرة أعوام. بكت فى منتصف الطريق بسبب المسافة. الجو جميل هناك، وستُذهلين إذا ما ذهبتِ هناك. فعندما تكونين فى المخيم، وإذا ما سطعت الشمس، يمكن أن تحظى بفرصة الإعجاب بغسيل جنِّى النهر، منشوراً على الصخور.

الغسيل! ردت دينيتِى، وعيناها متسعتان من الدهشة.

نعم، الغسيل! هناك أغطية ومناشف وملابس.. يمكن رؤيتها كل مرة تسطع فيها الشمس كالفضة اللامعة، لكننا لا نرى الشخص الذى ينشرها. وعندما نقترب من الصخور، يتلاشَى هذا الغسيل. لا يبقى سوى الحركة الكبيرة للمياه. نرى أشياء كثيرة فى هذا المكان. أحيانًا، تكون مجموعة ماعز، جميعها بلون أبيض. تقفز وتصيح، ولكن لا يمكن رؤيتها عن قرب.

فجأةً، اندهشت دينيتِى من رؤية راهبة إفريقية تنزل من زورق. اتجهت الراهبة إلى العمة وتحدثت معها باللغة البونية:

صباح الخير، أيتها الراهبة!

صباح الخير، أهذه المزرعة لك؟

هى لى، أيتها الراهبة، لكنى أعانى بخاصة عندما أضطر إلى عزق الأعشاب الضارة وطرد الطيور. شىء متعب.

جئت لأزور كل النساء اللاتى يعملن فى حقول الأرز، لأنى لم أعد أرى الكثيرات منهن فى الكنيسة. وأشعر بسعادة لما أراكن تعملن. هو أمر طيب، لكن الأحد هو اليوم السابع. ويجب أن تفكرن فى الرب لتحمدنه وتطلبن منه معاونتكن فى عملكن. يقول الإنجيل إن الرب عمل ستة أيام واستراح فى اليوم السابع. فلابد من الذهاب إلى الكنيسة لشُكر الطفل يسوع على عطاياه. لا أيام الأحد فحسب، بل أيضًا خلال الأعياد، عيد الميلاد وعيد القديسين وأحد السعف.

دون أن تترك فرصة للعمة كى ترد، استكملت:

"جئت من زيارة رجل عجوز، عند المنبع. يا إلهى! إنه عجوز ويعانى. لم يعد يقوى على السير. قابلت- الأحد الماضى- أحد المؤمنين فى الكنيسة، فقال لى إن هذا العجوز مريض جدًا. لم يعد يستطيع الخروج أبدًا. هزتنى هذه الرسالة.

سألتها العمة: "ألا تعرفين اسمه، أيتها الراهبة؟"

انتظرى، لأفكر قليلاً!

وضعت يدها على رأسها لتتذكره.

"تذكرت الآن، يدعى بامبو (*).

نعم! أعرفه جيدًا. فمنزله يقع فى مدخل القرية.

حقًا. لقد أحضرت له أدوية، وأعتقد أنه سيُشفى

(*) بامبو: فقدان الذاكرة.

بإرادة الرب.. لقد صلينا له كثيرًا مع كل المؤمنين الذين وجدتهم فى المكان. طلبت منهم تنظيف كوخه وملء أوانيه بالماء. وذلك ما تم. قابلت أيضًا بعض المتنصِّرين الجدد. قرروا حفظ أقوال الرب.

أيتها الراهبة، أقدم لك دينِيتِى، ابنة أخى الكبير. وهى تقضى إجازتها معى.

سلامًا، دينِيتِى! أتقضين إجازتك جيدًا؟

نعم، أيتها الراهبة.

عليك بالقدوم مع عمتك إلى الكنيسة، يوم الأحد.

سأكون هناك.

ابتسمت لهما الراهبة مارتينا، وأعطتهما كتيبات، وابتعدت وهى تسير حول حقل الأرز. لا يفوتها تطييب خاطر النساء وحثهن على استكمال أعمالهن الصعبة. يجدن جميعًا فيها امرأة غير عادية: فهى بسيطة وطيبة وجميلة. كما أنها على استعداد دائم لتقديم خدماتها، وطمأنة القلوب، التى مزقتها الآلام والبؤس والمرض. وإذا تطلب الأمر، تعمل فى الحقل كفلاحة عادية. لا ينتابها أدنى تردد، عندما تضطر إلى حمل سلتها على ظهرها والتوجه إلى الأدغال لإحضار خشب لمريض، أو عزق مزارعه. وهو ما يدهش غالبيتهن. ذهلت دينِيتِى من تواضعها، وقدرتها على تنمية العلاقات فى القرية التابعة لكنيسة القديس يوسف.

لدى الخروج من الكنيسة، استرعت الراهبة مارتينا انتباه كل الرعايا، لأنهم يرغبون فى العثور- على شفاهها- على تلك الكلمات المواسية لليتيم والمريض والشاب والعجوز. هذه المواساة هى ما يجعلهم قريبين منها جدًا.

الأحد التالى، ذهبت دينِيتِى لزيارتها فى الكنيسة. تحدثت الراهبة دقيقةً مع عمتها قبل أن تصحبهما إلى دار المسنين لزيارة أحد الرعايا المرضى. هنا اكتشفت دينِيتِى سمات شخصية هذه المرأة. لا أحد يعرف كيف يعتنى بالمسنين مثلها: ترعاهم وتهتم بوجباتهم. موجودة فى كل مكان فى آن واحد. وحرارة يديها على أجسادهم تريحهم، وبالنسبة لهؤلاء البعيدين عن أهلهم، تصبح أمًّا يقظة. إذا مرضوا، تقلق. بل تنظف بنفسها جروحهم. ترتب أسرتهم، تساعدها خادمة وصلت إلى هذا المكان كفقيرة، وقامت بأعمال بسيطة. مع السنين، رأت الراهبة مارتينا فيها شخصية جادة لمعاونتها. أصبحت الآن تقوم بعمل لا يستهان به. وهكذا أصبح كل الرعايا، الذين يذهبون إلى الدار معجبين بخصالها، وبخاصة شخصيتها الطيبة. تقول الراهبة إنه لا يمكن خدمة كبار السن دون صبر وإرادة. فهم لحوحون أكثر من الأطفال.

وفيما كانت تتحدث مع دينِيتِى وعمتها، تحركت سيدة فى الثمانين عامًا على كرسيها المتحرك، باكية.

"أيتها الراهبة! تعالى لترى ما فعلوا بى. لقد سكبوا ماء على سريرى ورموا خبزى. وقد وضعت أدويتى على الرف، ولا أدرى مَن أخذها".

تبعت الراهبة - ترافقها دينِيتِى وعمتها- العجوز المسكينة. ما إن وصلن إلى عتبة غرفتها، حتى صدمتهن رائحة كريهة. وكل شىء فوضى.

قالت لها الراهبة: "عليك بالهدوء. ستأتى الخادمة لترتيب غرفتك. أما الماء الذى بلل سريرك، فأنا أشم رائحة بول. لا مشكلة. ستنتظرين هنا. ستستبدل الخادمة الأغطية، وتأخذ الملابس المبللة إلى الغسيل. وتلك الأدوية لم تعد صالحة. سنرميها ونستبدلها".

انحنت لتجمع الأقراص المبعثرة على الأرض، ورمتها فى سلة المهلات. بعد بضع دقائق، وصلت الخادمة وهى تدفع بيد عربة ممتلئة بملابس نظيفة. فى اليد الأخرى، تمسك بدلو ماء تغطيه الرغوة. خمنت دينِيتِى أنه صابون مسحوق لتنظيف الأرض. ابتسمت لها، وأفسحت لها الراهبة مارتينا الطريق.

استأذنت دينِيتِى وعمتها الراهبة فى الرحيل:

"عليك بالعودة كلما تسنَّى لكِ الوقت"، عرضت عليها الراهبة.

اقتربت الإجازة من نهايتها. دينِيتِى سعيدة بالعودة إلى قريتها، ورأسها مفعمة بتعاليم ثرية عايشتها للتو: زيارة دار المسنين، العمل فى حقول

الأرز، الراهبة، عمتها والسيدات والعجوز ذات الثمانين عامًا؛ صور أثَّرت بها حقًا. فى ذلك الصباح، وضعت كل ما اشترته لها عمتها فى حقيبتها الصغيرة: زوجَى أحذية، أربعة فساتين جميلة أعدها خياط الحى، غطاءان وثلاث تنورات مصنوعة من قطع أقمشة متبقية. أحبت دينيتِى وضعها على سريرها بسبب ألوانها المبرقشة. اشترت لها عمتها أيضًا ملابس داخلية جميلة، وقطعتَى صابون وكراسات رتبتها بعناية فى حقيبة المدرسة الجديدة.

سألتها العمة: "هل تناولتِ قهوتك؟"

لا! لست جائعة، كما أنى لا أحبذ الأكل أثناء السفر.

ستجوعين خلال الطريق. فالمسافة طويلة حتى القرية. وإن كنتِ لا ترغبين فى تناول فنجان قهوة، فيجب تناول الطعام.

أعطتها قطعة خبز وسمكة مشوية.

"عليكِ تسليم هذه الأشياء إلى العَم مَا. فقد طلب منى شراء هذه البلطة له. وهذا الأنبوب ليس معجون أسنان. إنه مرهم للروماتيزم. وهو دواء فعال لآلام ظهره. وهذا الوشاح لأمك. أعطيها أيضًا هذا البلوفر، فعليها أن ترتديه مع هذا السروال عندما تذهب إلى الأدغال، لتحتمى من الأعشاب الضارة. أما كيس السكر وعلبة القهوة، فهما للعجوز بورروبو(*) والكرة

(*) بورروبو: الوحل.

للصغير نجوما؛ ونصف جوال الأرز للجدة تشيتولا، فقد طلبته منى فى خطاب أرسلته مع تآ فيليب. عليكِ إبلاغ يا دونجوت أنى سأحضر حفل إنهاء حداد الأخ الكبير أنطونيو. أما الآن، فأنا مشغولة تمامًا. وقد رأيتِ بنفسك كيف تلتهم حقول الأرز كل وقتى. فلابد من الاستيقاظ فى الصباح الباكر، ولا أعود سوى فى الليل. بل إننى - فى بعض الأيام - أعود متأخرة لدرجة أن البيت بأكمله يكون قد استغرق فى النوم. والأسوأ هو موسم الحصاد، حيث أكون مشغولة تمامًا. فعندما أستيقظ، أبدأ أولاً بترتيب المنزل، وأعد الغداء لزوجى وأبنائى. ولا يساورنى قلق، لتأكدى أن أبنائى عند عودتهم من المدرسة سيجدون ما يأكلونه".

سمعت دينيتِى أصوات بوق. أتت سيارة لتقلها. قبلت أطفال المنزل الذين ساعدوها فى تحميل حقائبها. سالت الدموع على وجه عمتها التى فاض قلبها بالحزن.

"سأرسل لك خطابًا مع تآ فيليب. أدعو الرب أن يحفظكِ أنتِ وجميع العائلة".

غمرت دينيتِى نشوة العودة، لكنها بكت بدورها لما لوحت بيدها فى إشارة وداع. صعدت إلى السيارة. أدار السائق المحرك. انطلق وتابعتهم العمة بنظرها حتى اختفوا خلف سحابة من الغبار.

لا تسير السيارة بسرعة: الموتور متحشرج. توقفوا فى قرية. ألقى السائق نظرةً ليرى من أين يأتى

العطل. بعد نصف ساعة، أدار الموتور مرةً أخرى، وأكملوا طريقهم بسرعة محدودة. وصلت دينِيتِى إلى العَم مَآ عند حلول الليل. استقبلها الجميع بسعادة غامرة. حكت عن سفرها، ووزعت الهدايا على أصحابها. بدوره، حدثها جدها عن صحة الجميع، وشكر الرب أنه حفظ دينيتِى طوال هذه الرحلة. ثم فتح خطابًا وأعطاه لحفيدته.

"أرسلته لى نُن. ستذهبين الآن لتتلقى العلم فى نزومبِى، لتتأهلى جيدًا فى مدارس البيض، وعند عودتك، ستصبحين امرأة مثقلة بالمعلومات والخبرة. ستتولى شقيقتك الكبرى توجيهك، لأن العيش صعبٌ فى المدينة بلا توجيه. ونُن ذات وضع جيد. فهى تسكن بيتًا جميلاً، وتعمل فى المستشفى، كما أنها اشترت سيارة. باختصار، فلديها وضع جيد يسمح لها بالتحدث بشكل أفضل عن المدينة".

دينِيتِى سعيدة بفكرة رؤية شقيقتها الكبيرة. بعد أسبوع من العودة من عند عمتها، تلقى العَم مَآ أخبار الراهبة مارتينا. مرض العجوز بامبو مرةً أخرى وأخذته الراهبة إلى دار المسنين. طلب إحضار شخص غامض باسم تانجمينا(*) فهو يريد نقل خبراته إلى حفيده. ذهب العَم مَآ على الفور للبحث عنه. ولن تراه دينِيتِى حتى رحيلها من القرية، لأنها- بعد بضعة أيام- أخذت الطريق لسفر أطول وأكثر مشقة.

(*) تانجمينا : الذاكرة.

هى أول إقامة لها فى نزومبِى. الوصف الذى قدمه لها العَم مَآ دقيق. وجدت منزل نُن كما وصفه. رغم ذلك، فالمدرسة الإعدادية تقع داخل إرسالية مسيحية، بعيدًا عن المدينة. تبعد ببضعة كيلومترات، ولا تريد نُن لدينِيتِى أن تقطع هذه المسافة الطويلة وحدها؛ لذا قررت إلحاقها كطالبة مقيمة فى الدير. ملأت نُن بنفسها الاستمارات لدى الراهبة الأم المسئولة عن الإقامة. أعطتها الراهبة قائمة بالأدوات ونظام الإقامة الداخلية.

اكتشفت دينِيتِى الإرسالية بإعجاب. ترجع المبانى إلى العصر الاستعمارى. وثمة حديقة كبيرة مزروعة بأشجار الفاكهة: المانجو، الجوافة، الأفوكادو، جوز الهند.. كل شىء جميل ومزهر.

تحتل المدرسة ثلاثة مبان ضخمة. تقع الإدارة فى مكان مركزى يشمل أيضًا مسكن أحد المعلمين. وليس بعيدًا، يُرى عنبر النوم ومنازل الراهبات. ويقع بيت الكاهن والكنيسة على ضفة النهر، وفى المواجهة مساكن المعلمين وعائلاتهم. استقبلت دينِيتِى الراهبة الأم التى نادت شخصًا ليساعد فى نقل حقائبها إلى غرفتها.

"ستظلين هنا، يا دينِيتِى. خلف هذا المبنى، ثمة ينبوع للفتيات. هناك تستحم زميلاتك الصغيرات. أعتقد أنك قرأت بعناية اللائحة الداخلية، وتعرفين الآن كيفية العيش هنا. ولا حاجة لتكرارها لك. جميع

من يأتون إلى هذه الإرسالية أخوة وأخوات. إلى اليسار، المنزل الصغير الذى ترينه هو المطبخ. تعد البنات بأنفسهن وجباتهن بالتناوب. والمطعم هو الغرفة المجاورة. ليس كبيرًا بالنسبة لعددكن الحالى. لقد شُيد بهذه الأبعاد لأن الدير ـ بالماضى ـ لم يكن يضم الكثير من الفتيات. أتمنى لك إقامة سعيدة بيننا".

جلست دينِيتِى على سريرها. الغرفة فسيحة. داخلها ستة أسِرَّة. لم تعد جاراتها فى الغرفة بعد، لابد أنهن ذهبن للتسوُّق من المدينة. عند عودتهن، صحبتهن الراهبة الأم التى قدمت لهن الوافدة الجديدة.

كل البنات متقاربات جدًا فى العمر. لم يحتجن وقتًا طويلاً لاستلطاف دينِيتِى. معًا، أخذنها لزيارة المدرسة والمطبخ والكنيسة، وحتى بيت الكاهن. وجدت كل شىء غاية فى الجمال. بُنيت المنازل جميعها بنفس الطريقة، الحوائط من الطوب والأسقف من القرميد. فوق كل سقف، تنتصب مدخنة. وسقف الكنيسة مميز، يرتفع على شكل منحدر حاد، وعلى قمته أضيف مبنى صغير مثلث الشكل. هناك تم تعليق الجرس. وكل يوم، يقرع طلاب المدرسة الإكليريكية الجرس لصلاة التبشير.

تصف لها البنات الكثير من المعلمين، لكنهن أكثر إلحاحًا على الراهبة المديرة: سيدة بيضاء، قصيرة ونحيفة تدير المدرسة بيد من حديد. تقول ألسنة

السوء إنها تغيرت كثيرًا. فى البداية، لما وصلت من فرنسا، كانت طيبة، ثم أصبحت فجأةً متشددة عندما وضعها الأسقف على رأس هذا العالم الصغير. تُركز كل السلطات بين يديها. ولم تعد للراهبة الأم كلمة. ومع ذلك، فهى التى تهتم بالدير والبنات. لكن لا، فكل شىء يتم هنا باعتبارها لم تعد موجودة! تشاجرت الاثنتان الأسبوع الماضى، وجاء الأب رولان لفض الاشتباك بينهما. تعجب الجميع من هذا التصرف، وخاصةً أن المديرة كان عليها إعطاء المثل الجيد. إحدى زميلات الغرفة أوضحت: "الراهبة الأم سيدة هادئة. قليلة الكلام. وإن أسأتِ العمل فى الفصل، تطلبك فى مكتبها وقت الفسحة المدرسية لتشرحى لها ما لا يسير جيدًا، إن كانت لديكِ صعوبات فى أية مادة. وما إن تصبح على دراية بصعوباتك، تعطيك نصائح وتساعدك فى تخطى معوقاتك. كل الفتيات هنا لا يحلفن إلا باسمها. يوم رحيلها، سنشتاق إليها كثيرًا".

تخطت الفتيات بيت الكاهن، وتوقفن عند شجرة لوز يجمعن ثمارها.

"علينا بالرحيل. فإذا ما رآنا القس هنا، فسيعنفنا".

أهو شرير؟

القس شرير. فهو لا يريد أن تتسكع الفتيات فى فناء المدرسة. بل يرفض أن يستذكرن دروسهن فى

الفصول. يقول إننا نتبع الأولاد بدلاً من إنجاز واجباتنا.

سرن للخلف فى اتجاه الدير. عند حلول الليل، تمددت دينيتِى على سريرها، بعد الاستحمام فى النبع المخصص للفتيات مع باقى زميلاتها. ورغم أن الراهبة الأم قد استقبلتها بحرارة مثل زميلاتها فى الغرفة، إلا أنها تشعر فى بعض الأوقات بالوحدة. لقد تركت بالكاد عائلتها، ولن تراهم قبل الإجازة. فتحت قلبها للأخريات اللاتى أكدن لها أنهن جميعًا فعلن مثلها. وفى عطلة كل أسبوع، تأتى نُن لأخذ أختها الصغيرة لتقضى معها وقتًا ممتعًا. صباح السبت، تقومان ببعض المشتريات فى متجر كبير، ومساء الأحد، بعد الصلاة، تعيدها إلى الإرسالية.

مع مرور الأسابيع، اعتادت دينيتِى المدرسة الداخلية. فالراهبة الأم أصبحت تقريبًا كاتمة أسرارها. وفى المساء، بعد أن تنتهى من استذكار دروسها، تذهب لتفضى لها بهمومها. تدق دينيتِى الباب مرةً واحدة، فتأتى الراهبة لتفتح لها.

"آه! دينيتِى! ماذا يمكننى أن أقدم لك؟"

وأنا عائدة من المذاكرة، فكرت فى القدوم لألقى عليك تحية المساء. أود أن أطرح عليك سؤالاً.

تفضلى، ما هو؟

إلى أية منطقة بفرنسا تنتمين؟

من منطقة دوفينى. يمكنك أن تنظرى إلى هذه الخريطة. تاريخيًا، تم التنازل عن هذه المقاطعة لملك فرنسا، فيليب السادس عام ١٣٤٩م . وكانت احتكارًا تقليديًا للابن البكر للملك، قبل أن تندمج بصورة نهائية فى المُلك عام ١٥٦٠م .العاصمة تُدعَى جرينوبل، ونحن نُدعَى الدوفينيين.

أيمكن، يا أختى الراهبة، أن تعطينى ما أقرؤه؟

لا أدرى ماذا أعطيكِ. خذى! أعطيك جريدة. هى "الصليب" . تتحدث عن السلام فى عالم عادل..

أختى الراهبة! أنا مضطرة لأن أعترف لكِ: هناك فكرة تراود روحى، ولا أستطيع طردها من رأسى. فهى تروح وتجىء.

أيمكن أن تكونى أكثر وضوحًا؟

أريد أن أتحدث معكِ عن إيمانى. أشعر بالتمزق بسبب انتمائى إلى قبيلة الكالباس. فعندنا، أهم شىء بالنسبة للمرأة، هو قدرتها على زيادة السلالة. وأقول لنفسى إنى إذا ما شعرت بداخلى بأنى أريد أن أصبح مثلك، فستلفظنى عائلتى.

أنصحك بالتفكير الطويل قبل اتخاذ القرار. وأقول لكِ إنى عانيت نفس المشكلة. كان أبى معلمًا يريد إلحاقى بكلية الحقوق. لم يتفهم أهلى كيف عمل الرب على تغيير فكرى.

بعد هذه المحادثة الطويلة، تركت دينِيتِى- مستغرقة فى التفكير- الراهبة.

## ـ ٧ ـ

بعد وصولها للإرسالية ببضعة شهور، عاشت دينِيتِى تجربة ستقلب حياتها. كانت قد انتهت من نزهة مع الراهبة الأم وكلبها الضخم. فجأةً، عند عودتها إلى العنبر، عبرت موجة مضيئة نظرها. وضعت يدها على وجهها وتشبثت بدرجات السُّلم. لم تفهم ما جرى حقًا. تمددت على السرير وشعرت بالنوم يجتاحها.

فكرت: "لا أريد النوم فى الحال، سأقرأ قليلاً أولاً". أخذت كتابًا عن التاريخ العثمانى. لكن لم يستهوها انقلاب يناير ١٩١٣م بقيادة إسماعيل أنفر باشا والشبان الأتراك. أقفلت الكتاب وأخذت آخر يتحدث عن الصين. "وإذ عاد الدلاى لاما إلى لاسًا، أعلن استقلال التبت.."، وبدأت جفونها تثقل شيئًا فشيئًا ،ثم غطت فجأةً فى سبات عميق. نقلها فى البداية كابوس إلى ضفاف النهر: كانت تجذف فى زورق، والمياه هائجة، فعلق المجذاف بصخرة وانكسر. فقدت دينِيتِى السيطرة على الزورق. قادها التيار إلى شلال. تأرجحت فى الفضاء، انقلبت ثلاث مرات حول

نفسها، قبل أن تغوص، ورأسها يسبقها، فى الدوامات. صرخت فى نومها.

خائفةً، استيقظت منتفضة. ظلت جالسة على سريرها؛ وأخذت مسبحة. بدأت فى التسبيح وهى تردد: "أؤمن بالرب". عندما انتهت، عادت إلى النوم. بجوارها، تغط زميلاتها فى النوم كقطط تستريح بعد التهام فئران ضخمة.

انتابها حلم آخر. نُقلت إلى قمة جبل. ترى منه مدينة رائعة، مبنية من الأحجار بسقوف تلتمع لدى أقل ضوء من الشمس. مدينة يحميها حائط كبير وجدرانها من ضوء مشابه لضوء الألماس.

على حين غرة، أمسك يدها ملاك وقال لها:

"ابتداءً من اليوم، اخترتك لخدمة الرب. انظرى كم هى بديعة تلك المدينة! إنها من صنيع الأعلى!"

استيقظت فى الحال، ولفتها سعادة غامرة.

فى الصباح، كانت بالغة الانفعال؛ وذهبت للقاء الراهبة الأم.

"أيتها الأم الراهبة، أعتقد أن ما يحدث لى الآن هو نتاج تأمل طويل. لقد اتخذتُ قرارًا مهمًا، أرغب فى خدمة يسوع بأن أصبح مثلكِ".

يا ابنتى، لا يمكن لأحد ألا يبالى بنداء الرب.

أيتها الأم الراهبة، أعتقد أن هناك حبًا يتخللنا: إنه أكبر من الحب الذى يمكن أن أمنحه لأخى.

آه حقًا! كما يقول الأب رولان، إنه حب لا نجده حتى لدى مَن يحبنا. ولابد أن نعلم أنه بفضل يسوع نصبح قادرين على حب أكبر. وهذا لا علاقة له بما يمكن أن نتخيله.

عندما أقول إن المحبة تنقذ العالم، أثق فى ذلك فعلاً، يا أمى الراهبة.

نعم، يا دينيتِى، المحبة تنقذ العالم. فشخص يسوع، وكلماته، وأفعاله، وحياته الموهوبة تكمن فى قلب هذه العقيدة. يسوع يجسد هذه المحبة، محبة الرب.

سأخدم الرب، أيتها الأم الراهبة. لقد تحدث إلىَّ فى البداية عبر الموجة المضيئة التى عبرتنى الليلة الماضية. وقد أرانى ملاكٌ المعجزات، أخذنى إلى الجبل، وجعلنى أرى منجزات الرب. إنها مدينة عظيمة، خلابة، تمتد على آلاف الكيلومترات. ويتمتع رجال ونساء وأطفال هذه المدينة بالجمال. قال لى إن أحدًا فى هذه المدينة لا يموت جوعًا أو عطشًا؛ لا أحد يعانى من أى مرض. ويحظى الجميع بوافر الصحة. آه! ولا تتخيلين- يا أمى الراهبة- مدى سعادتى بفكرة أن أصبح خادمة الرب منذ الآن.

القرار الذى اتخذتِه حكيم، ولكن فكرتِ برويّة؟

نعم فكرت جيدًا، يا أمى الراهبة، لكن..

أتفهّم اضطرابك. فأنت لا تعلمين كيف ستستقبل عائلتك هذا الخبر.

هذا تحديدًا ما أخشاه، يا أمى الراهبة.

لقد عايشت تلك التجربة، كما شرحت لكِ من قبل. وعليكِ أن تفهمى، يا دينِيتِى، ألا أحد يستطيع الوقوف أمام إرادة الرب. فاتركى لى هذه المهمة. فأنا على دراية بالعائلة الإفريقية، ولن أجد مشكلة فى إقناعهم، بخاصة جدك، وأولاً أختك نُن.

الأحد التالى، قُدمت دينِيتِى إلى رعايا الكنيسة باعتبارها وافدة جديدة إلى الأسرة الدينية، فالرب تجلَّى فى اختيارها خادمة له. بعد شعائر الصلاة، دعت الراهبة الأم دينِيتِى إلى الدير، لتتحدث معها حول إيمانها.

بعد أسبوع، تلقى العَم مَآ خطابًا من الإرسالية ومن المدرسة. عند قراءته، شعر فى البداية ببلبلة ثم استشاط غيظًا. لا يفهم لماذا أخفت عنه دينِيتِى قرارها، ولماذا تركت شخصًا من خارج العائلة يخبره. أعاد قراءة الخطاب، وأقنع نفسه- فى النهاية- بأنه لن يستطيع عرقلة هذا النداء، خاصةً أن حفيدته- وفقًا للراهبة الأم ـ قررت خدمة الرب. كما اعتقد أن باستطاعتها إخراج عائلتهم من العزلة بسبب الشيطان ماندوكو، الذى أنجب العديد من الأطفال من ابنته قبل أن يطلقها. قال لنفسه: "يا رب، إن أردت دخول منزلى، فستجد الباب مفتوحًا. فأنا هنا أنتظر قدومك لأستقبلك بالرقص والشدو والمزامير".

بعد ظُهر الأحد، عاد العَم مَآ من الكنيسة بصحبة ماكوسُو. جلس بداخل المبادچا مع الأب

بيتُوفا. تحدث معه عن دينِيتِى، وخطاب الإرسالية ونداء حفيدته.

"ماكوسُّو، فلنقرأ هذا الخطاب مرةً أخرى"، قال العَم مَآ.

عزيزى العَم مَآ،

نحن نقدر مجهود دينِيتِى فى المدرسة. فهى تلميذة مجتهدة ومنضبطة. وقد نجحت فى الامتحانات. ونطلب من العائلة بأكملها مساندتها فى الدراسة. وعليك معاونتها؛ لأنها وافقت على خدمة الرب. إنها خائفة لأنها مواجَهة بمشاكل سلالتكم: المرأة الولود هى فقط مَن تحظى بالاحترام فى قبيلتكم. وموافقتها على أن تكون فى خدمة القدير تمنعها من الإنجاب. وأيضًا، نرجو منكم عدم إبعادها عن مجتمعكم، بل ـ على العكس ـ نطلب منكم أن ترأفوا بها. فليس لها أن تعانى بحجة أنها لم تطع تقاليدكم. فهى لا تملك شيئًا إزاء نداء الرب. لقد تحدث المسيح إلى حفيدتك دينِيتِى، مثلما تراءى لأبناء زبديا: سمعان ويعقوب ويوحنا.

إنها ذات إيمان قوى، لأن الروح القدُس اختارها لخدمة السيد، ربنا. فهل تذكر رسالة بولس الرسول لتيموثاوس حيث قال: "اجتهد لتكون جديرًا بالرضا فى عين الرب كصانع لا يخجل من صنيعه، الذى يعلن رسالة الحقيقة. تجنب المناقشات الفارغة والمناقضة للإيمان، لأن من يتمسكون بها يبتعدون أكثر فأكثر عن الرب".

أتوجه بتحياتى إلى العائلة كلها.

الراهبة الأم.

عندما قرأت الأم موسافو هذا الخطاب، استشاطت غضبًا. هى التى كانت تحلم بأن تتزوج دينِيتِى برجل من المدينة!

"هذا مؤكد، قالت، إنها قد تجد زوجًا مهذبًا وجديرًا بالاحترام: شخص طيب ورصين. إنها تكمل دراستها، كما أنها مثقفة، فلِمَ لا نطلب منها أن تجرب حظها؟"

قاطعها العَم مَآ: "هناك نساء متعلمات فى المدينة. وأيضًا رجال، لكن هناك الكثيرين من العُزَّاب من بينهم. وليس كل من يعيش هناك يتمتع بأخلاق حميدة. فهناك المدمنون والكذابون والمجانين والعاهرات والمتسكعون، كصهرك هوبير ماندوكو. فلدَى دينِيتِى فرصة الهرب من هذا كله، عند النظر من هذه الناحية. كما أنها ستضرب ضربتها: ستصبح عائلتنا الأكثر احترامًا فى القرية".

نعم، لكنها لن تحظى بطفل!

قضت دينِيتِى عامًا دون عودة إلى مويل. وهو ما لا يعجب العَم مَآ، الذى بعث إليها بخطاب طويل يعبِّر خلاله عن استيائه. اعتذرت له دينِيتِى فى ردها. وأكدت على أن نُن ترغب فى قضاء الإجازة القادمة مع العائلة. لذا أبقتها شقيقتها الكبرى، لتتمكنا من السفر معًا. تفهم العَم مَآ، لكنه طلب منها ـ فى

خطاب آخر - تحديد يوم وصولهما. وهذا ما فعلته. ولما عُرف الخبر فى مويل، استقبله الجميع بالرضا.

"ستصل نُن ودينِيتِى فى خضم موسم الجفاف. وبالتالى، فعلىَّ الإعداد لذلك مسبقًا. فلهذه الزيارة أهمية عظمى فى نظرى. وستضيف إلى صورتى فى القرية"، قال العَم مآ.

تساءلت دينِيتِى بقلق عن رد فعل عائلتها، وبخاصة الأم موسافو، عندما تعلم أنها لا تزال مسكونةً بالرغبة فى أن تكون راهبة.

بعد شهر، لا يزال العَم مَآ يحاول إقناع الأم موسافو:

"المشكلة لا تكمن فى الإنجاب. بل عليكِ الحُكم من منطلق عظمة إيمان دينِيتِى التى، بهذا العمل، تشرف قبيلتنا".

غير أن الوقت لم يمهلهما لإنهاء مناقشتهما. فقد توقفت سيارة محملة بالأمتعة عند مدخل القرية. نزلت منها امرأتان، غير معروفتين، الواحدة تلو الأخرى، ومنديل معقود حتى الحاجب ليحتميا من الغبار. هنا وهناك، انطلقت صيحات الاستبشار للترحيب بقدومهما، وانتشر الخبر فى أرجاء القرية كنثار البارود. هرع الناس من كل مكان. لا أحد ظل بلا اكتراث. أحاطوا بالسيارة. والكل يعبِّر عن سعادته بطريقته. ولابد من التمتع بسيقان قوية لتحمل قبلات الأطفال الذين يصلون راكضين. غطت الدموع وجوه العجائز من الانفعال الذى شعرن به عند رؤيتهما.

انقبضت دينِيتِي لدى اطلاعهم على الأخبار.

"عَم مَآ! اجتهدتُ فى المدرسة. وحصلت على نتائج جيدة، لكنى خشيت إخبارك بأن الرب نادانى لأكون فى خدمته. أعرف واقع تقاليدنا وحكاية قبيلتنا الكالباس. والجدة بنجى[1] كانت ستفضل أن أنجب أطفالاً لزيادة سلالتنا. وهى أيضًا النصيحة التى قدمتها لى أمى، لكن الرب كان قد قرر أمرًا آخر. وأعرف أن قرارى صادم لكم. فلا داع للقلق: أنا نفسى، تقلبت فى سريرى طويلاً قبل أن أتخذه. وعندما شعرت بأنى مستعدة، ذهبت للقاء الراهبة الأم. لن أصبح راهبة عادية، لأن الإرسالية اتخذت قرارًا بإرسالى إلى المدرسة الوطنية للصحة. وسأصبح بذلك، بعد نهاية الدراسة، راهبة ممرضة مثل الراهبة مارتينا التى تعرفونها جيدًا.."

بكت من الانفعال، فيما قبَّلها جدها ليهدئها.

"لقد استقبلنا الخبر أنا والأب بيتُوفا بشكل طيب، وأقنعنا العائلة بأكملها. قبل وصولكما بفترة، وصلنى خطاب قس أبرشيتكم والراهبة الأم. وقد تحدثا إلىَّ طويلاً عنكِ وعن ندائك. ونحن لا نلومك على شىء. فأنتِ على خطى أسلافنا الذين عرفوا ـ منذ فجر الزمن ـ كيف يمثلون قرية مويل فى كل مكان يدعوهم إليه الواجب. ولهذا السبب أعطيتكِ اسم دينِيتِى[2] لأنى أدركتُ أنك- إن آجلاً أم عاجلاً-

(١) بنج: خشب جاف.

(٢) الاسم يعنى: الشرف، الكرامة (المترجمة).

سترفعين اسم قبيلتنا. شيء رائع! ونحن بحاجة إلى خمسة أشخاص مثلكِ لترتفع هامة قريتنا. وأطلب من الأطفال الذين ينظرون إليكِ اليوم أن يقتدوا بك. لا أقول أن يفعلوا تمامًا مثلكِ، ولكنهم إن نجحوا- على الأقل ـ فى دراستهم وحياتهم العائلية، فسيمكنهم بدورهم إسماع صوت أسلافهم، ولن تتلاشى قريتنا. سنقول دائمًا إن الإنسان ذا الصوت العذب والخافت، هذا الرجل الذى يتحدث كصوت القيثارة، وُلد بمويل، هو ابن العَم مَآ، أو بيتُوفا، أو تآ فيليب، أو يآ دونجوت، أو بيزانس، إلخ.. فى ذلك الحين، سيتاح لهم الوقت للتعريف بشجرة قبيلتنا عبر أنحاء البلد بأكمله".

لا تشعر الأم موساڤو بالرضا حيال تصريحات دينِيتِى، أو حيال الإجابة التى قدمها العَم مَآ. نادت ابنتها إلى المطبخ، وتحدثت إليها على انفراد.

"أترين موقفى؟ لقد اعتمدت عليكِ كثيرًا؛ قلتُ لنفسى إن شقيقتك الكبرى أحبطتنا، أما أنتِ- على الأقل- فاعتقدتُ أنكِ ستجدين زوجًا طيبًا، وأنكِ ستنجبين أطفالاً كثيرين. وأشعر بالصدمة لسماع أنك تريدين أن تصبحِى راهبة.

هناك أسباب عديدة وراء هذا النداء، يا أمى. أريد غسل العار الذى ألحقه بنا ماندوكو. لقد تنصل من أختى وأبنائها وهو ما لم يسرنى أبدًا. علىَّ أيضًا أن أحقق رغبتى بأن أكون فى خدمة المحتاجين كالراهبة مارتينا. لقد أثَّرت فىَّ بقوة عندما ذهبت إلى

دار المسنين مع عمتى. سرعان ما أدركتُ أنى لا أريد فقط أن أصبح راهبة، بل أن أتعلم مهنة التمريض.

أخذتها موسافو بين ذراعيها.

"دينِيتِى، صغيرتى، ألن أفقدك؟"

لما هزت ابنتها منفعلةً رأسها بالنفى، أضافت:

"إذًا.. هكذا.. موافقة، طالما أن هذا هو قرارك. فلتفعلِى كل شىء بإرادة الرب".

اختصرت دينِيتِى إجازتها، وعادت إلى الدير. سعدت الراهبة الأم عندما رأتها تخرج من السيارة.

"إن كانت ذاكرتى جيدة، فهذه هى دينِيتِى الصغيرة التى تعود لنا"، قالت للأم المديرة، بابتسامة.

اندهشت الفتاة عندما رأت الراهبتين معًا. "فلنشكر الرب، إن استطاعتا أخيرًا التفاهم!". صافحتهما بوجه بشوش.

"كنت أعلم أنكِ ستعودين لنا سريعًا. هل تلقيتِ خطابى؟"؛ قالت لها الراهبة الأم.

حصلت عليه بواسطة قس كنيسة القديس شارل لوانجا. فمطار المدينة- فى الوقت الحالى- فى حالة من الخراب إلى حد أن البريد يُنقل سيرًا على الأقدام. وثمة قائد دراجة فى قريتنا يأخذ على عاتقه بريد الرعايا إذا ما تغيب القس. وقد تلقى العم مَآ أيضًا خطابك وأخذه فى الاعتبار. وعند وصولى،

شعرت بالخوف وكاد قلبى أن يتوقف، لكن الرب هدأ من روعى. شرحت لجدى أنى وُلدت من جديد، وأن الملاك جبريل اختارنى لخدمة يسوع. وبكيتُ من الانفعال عندما انتهيتُ من كلامى. ولحسن الحظ، فقد أخذنى العَم مَآ بين ذراعيه، وهو يطمئننى. قال لى إنه استطاع إقناع والدتى وجميع أفراد عائلتنا. وشاركه فى الرأى الأب بيتُّوفَا. ويعتقد أن اختيارى سيرفع عاليًا اسم سلالتنا".

فصلت الراهبة الأم دينِيتِى عن زميلاتها. نقلتها إلى غرفة مجاورة لها. لكن الراهبة المبتدئة احتفظت بعلاقات طيبة مع زميلاتها السابقات. تغير منهجها الدراسى بسبب إعدادها المهنى. ترى كثيرًا الراهبة المديرة، وتطلب نصائحها. وعلى عكس الصورة التى رسمتها لها باقى الفتيات يوم وصولها للإرسالية، اكتشفت دينِيتِى فيها شخصية متفتحة، طيبة، متفهمة وخدومة. ذات مساء، أعطتها الراهبة الأم مجموعة كتب لتثرى مكتبتها التى لا تحتوى حتى الآن على كتب دينية.

وجدت ـ فى هذه المجموعة- تعاليم سمحت لها بإثراء حياتها الروحية. عاشت حياة بسيطة موزعةً بين زميلاتها وتعليمها الدينى. تذهب إلى النبع مثل الأخريات، تغسل ملابسها فى دورها. كما تعد الوجبات.

وعندما تأتى نُن لزيارتها، تتقاسم كل ما تعطيها مع باقى فتيات الدير. وكل أحد، لا يفوت رعايا الكنيسة أن يتركوا لهن شيئًا ما.

"عليكم بِحَفز دينِيتِى على مواصلة تأهيلها. قدموا لها المساندة المعنوية والمادية حتى لا يتذبذب إيمانها. إنها فتاة ذكية مفعمة بالمعرفة. وستحمى عما قريب كنيستنا الفتية التى لم تؤهل حتى الآن راهبات. فهى ستكون الأولى"، يذكر القس فى نهاية القداس. ويأمل أن يلفت نظر رعايا الكنيسة إلى الأهمية التى ينبغى إسباغها على هؤلاء الذين قبلوا خدمة الرب.

ذات يوم عند عودة دينِيتِى من تدريبها، وجدت امرأة تبكى وسط الطريق، وطفلها بين ذراعيها.

"ما بكِ، يا سيدتى؟"

طفلى مريض. ولا أدرى ماذا أفعل. هجرنى زوجى. وأنا لا أعمل. فكيف سأطعمه، أيتها الأخت؟

سأرافقك إلى المستشفى. فطفلك يبدو مريضًا.

أخذتهما دينِيتِى إلى غرفة التمريض، حيث قدمت علاجًا للطفل. ونجحت فى إقناع الطبيب بإدخاله إلى المستشفى. وانهمكت المرأة فى شكرها.

عادةً ما تكون فترة الإجازات فرصة مناسبة للمقابلات والتفكير والصلاة. هى فرصة دينِيتِى لتعميق ندائها الروحى، لاسيما أن الاعتكاف الروحى قريب. وجميع الطلاب يتحدثون عنه بسعادة. فلديهم أسبوع راحة. هى فترة التأمل، بعد فترة من العمل الشاق. ودينِيتِى حرة، لكن ليس تمامًا. فهناك عمليات التأهب للعمل، وتشارك فى سلسلة من المؤتمرات. والأب رولان المبجل هو المعد الرئيسى لها. لقد خطط

محاضرات لمتخصصين فى مجالات عدة: الصحة، الزراعة، السياسة، والدين.

لاحظت دينِيتِى أن الأب رولان المبجل بالغ الاهتمام بالشبان: هؤلاء الخبراء ـ كلٌّ فى مجال محدد- أوضحوا للمجتمع الصغير الخطوة الواجب اتباعها فى الحياة. وغالبًا ما يقدمون إجابة واضحة على الأسئلة المختلفة التى يطرحها الشبان.

تحدث إليهم مدرس الأدب عن الهيام الدون جوانى. أوضح لهم أن كلاً منهم له أصول. فكرت دينِيتِى فى عائلتها وفى قريتها. شعرت بالحنين. فهذا الدير المنعزل عن المدينة يشعرها بالحزن، بعيدًا عن موطنها، لكنها عندما تفكر فى المهمة التى أتت لإنجازها، تعود إليها من جديد الأفكار الواضحة. هل يمكن اعتبارها هائمة كدون جوان؟ لا تعتقد ذلك حقًا. فهى هنا للتعلم.

تحدث إليهم طبيب عن حماية الأم والطفل. رفض الإجابة عن جميع الأسئلة الخاصة بالإجهاض. رفض أن يستمع إليهم، ربما لأن سياسة الدولة إنجابية، وربما أيضًا لأنه يتحدث فى إرسالية. فكر الشبان أنها بالفعل مشكلة، ولكن لا يزال هناك الكثير من الجهود المطلوبة بخصوص تعليم الفتيات، والهياكل الخاصة بالمستشفيات فى بعض أنحاء البلد.

لفت نظرهم رئيس المقاطعة الزراعية إلى أهمية العودة إلى الأرض للقضاء على البطالة. فهو قطاع

مهم للبلد. فالتربة غنية، والأمطار غزيرة. فلابد إذًا من تعبئة الطاقات لتطويره للوصول للاكتفاء الذاتى فى الغذاء.

تحدث بدوره مسئول الحزب الأوحد عن الوحدة وعن رؤيته لتطوير البلد. حاول الشبان طرح بعض الأسئلة الخبيثة عن عمل جهاز الدولة، لكنه لم يُشف غليلهم.

"لا أستطيع الإجابة. أترون هذا الكتاب؟ لست أنا من كتبه، بل الرئيس شخصيًا. اقرؤه، لأنه يحوى كل الحقائق التى تبحثون عنها: إنه الكتاب الأخضر الشهير!".

قوّى القس إيمانهم ضد الإغواء. لخص لهم "سِفر أيوب" هذا الرجل الثرى الذى عانى بسبب إيمانه.

"من هو الرب، حقًا؟ سألهم المتحدث. هذا السؤال يظل قائمًا بشكل خفى فى "سِفر أيوب"(*). إنه سؤال مطروح بطريقة متفردة فى قرننا الذى يشكك فى كثير من المعتقدات المؤكدة! مؤكدٌ أن "السِّفر" يخبرنا بما ليس من صفات الرب. وهو ما يساعدنا على إزاحة الأوثان، والصور الزائفة التى نواصل رسمها للرب. ويطالبنا بعدم خلط الرب نفسه بفكرتنا عنه. وعند إزاحة أفكارنا المسبقة، يمكننا استقبال جِدَّة الإنجيل".

---

(*) سفر أيوب: أحد أسفار «العهد القديم» (المراجع).

اختتم الاعتكاف الروحى البهيج بحفل مدرسى. ودينِيتِى سعيدة. لأنها عملت بجد طوال هذا العام. وتخيلت كيف سيستقبل أهلها خبر نجاحها. ستصرخ فرحًا بالتأكيد الأم موساڤو، مثلما فعلت عند قبولها فى الشهادة الابتدائية. ولن يفوت العَم مَآ إعداد حفل كبير ليشكر آلهة السلالة، الذين رعَوا خطوات حفيدته.

## - ٨ -

ذات صباح، فتحت مونوجو بابها. أطلقت صرخة عالية عندما وجدت زوجها السابق، هوبير ماندوكو. كان يرتدى ثيابًا رثة. لم تسمح له بدخول المنزل.

"أريد رؤية أبنائى، فهل يمكن لى الدخول؟"

لا يمكنك الدخول وأنت بهذه القذارة. أفضِّل استقبالك فى الشرفة.

لن تبدئى من جديد، فرغم ذلك أنا أب لأبنائى.

لقد مرت أعوام كثيرة لم تطأ فيها قدمك هذا المنزل. فى البداية، اعتقدت أنك نسيت، لكن شيئًا فشيئًا، بمرور الأيام، انتهيت إلى إدراك أنك لفظتنى تمامًا.

لقد جئت لرؤية أختك لأطلب غفرانها.

منذ وقت طويل لم تزرنى دينِيتِى فى نيماكامب. لقد قررت الرحيل إلى الدير لتصبح راهبة كى تغسل العار الذى أصبحت سلالتنا ضحيته.

اضطرب هوبير. لن يفهم أى شىء. فمنذ عام، وهو يفعل كل ما فى استطاعته ليوفر المال الذى يدفعه

إلى محام جيد، لكنه اكتشف أن ذلك غير كاف. والحل الأمثل لمشكلته يتحقق من خلال دينِيتى. فإذاً ما زوَّج دينِيتى إلى ذلك القاضى الشاب، فلن يلاحقه القضاء.

"جئت لأشرح لكِ مشكلة مهمة، يا عزيزتى؟"

ما هى؟

لقد تشاجرت الشهر الماضى مع صاحب العقار، لأنه أراد مصادرة أثاثى، لأنى لم أدفع الإيجار لمدة شهرين. كان حظى سيئًا. فقد جُرح خلال هذه المشاجرة، وانكسرت ذراعه. وتقدم بشكوى ضدى للمحكمة.

وماذا تريدنى أن أفعل لك الآن؟ فمنذ وقت طويل وأنا لا أعتبرك داخل حياتى. ولم أعد قادرة على الشفقة على مصيرك. لقد هجرتنى مع أبنائى. ولو لم أكن أعمل، لما كان لى أن أدرى مصيرى. كنت أعرف أن سلوكك السيئ سيقودك يومًا إلى السجن.

لا ينبغى أن تحكمى على الفور بإدانتى، قبل أن تقول العدالة كلمتها بهذا الشأن. فقد أكون على حق، أنتِ لا تعرفين. وفى المقابل، وجدت رجلاً مستعداً لمعاونتى. ولكنى بحاجة إلى معونة دينِيتى لهذا الغرض.

انفجرت مونوجو بالضحك.

"ما علاقة دينِيتى بهذا الموضوع؟ بصراحة! لا يبدو عقلك طبيعيًا"

دينيتِى، أختك.

أختى، نعم! بعد أن هجرتنا طوال سنوات، فى خزى بسبب حلوى بأربعين فرنكًا.

الرجل الذى أتحدث إليك عنه، هو قاضٍ. ويرغب فى طلب يد أختك للزواج.

أتجرؤ على الحديث إلى دينيتِى عن الزواج لإنقاذ منحرف. هذه المرة، أظن أن سعيك خائب. لقد طلقتنى لأنى كنت ولودًا، واليوم تأتى لطلب مساعدة دينيتِى، أختى الصغيرة، لتنقذك من موقف مشوش. أتمنى أن تكون فقدت صوابك. فإذا ما علم العَم مَاَ بهذا الحكاية، فأعتقد أنك لن تطأ بقدمك هذا المنزل مرة أخرى. دينيتِى، كما يشير اسمها، مشغولة بمعركة أخرى ،فهى تريد إنقاذ سلالاتنا من الغرق المحيط بنا. ولهذا السبب قررت أن تهب حياتها للرب.

سأجعلها تعدل عن تفكيرها. فهذا القاضى قادر على تحريرى من براثن العدالة، إذا فقط ما تزوجته.

فلتذهب إلى الشيطان! لن تقع أختى الصغيرة فى هذا الفخ.

دخلت مونوجو منزلها وهى تصفق الباب.

يقع دير الراهبات على بعد مائتى كيلومتر من نيماكامب، لكن هوبير لم يتخل عن فكرته: لقد وجد عريسًا لدينيتِى الصغيرة، وعليها أن تتزوج القاضى ليحل مشكلته. آخذ حقيبة سفره، واستقل عبَّارة متجهة إلى نزومبِى. أثناء الرحلة، فكر ليعرف كيفية

صياغة جملته الأولى. لكن مشكلة أخرى ظهرت له: تساءل عما إذا كان سيتعرف على دينِيتِى. قال لنفسه إنه إذا ما كان قد نسى مؤخرًا وجهها، فذلك لأنه كان فى حالة سُكر. لدينِيتِى ملامح أمها. "سأبذل مجهودًا لتذكرها"، فكَّر.

وصل إلى نزومبِى عند حلول الليل. أحس بالغربة. توجه إلى أول من قابله. وعليه تبدو أمارات القلق.

"أنا لا أعرف تلك المدينة. هذه أول مرة أجىء إلى هنا. أيمكن أن تقودنى إلى الإرسالية؟"

أنا عائد إلى منزلى. وليس لدىَّ وقت لأقودك إلى الإرسالية.

فماذا أفعل فى هذه المدينة بلا مرشد؟

توسل إلى الغريب ليحرس حقيبته. انطلق فى الشارع. لم يتعرف على أحد يستطيع مساعدته. يتحرك الناس فى مجموعات صغيرة. نادى على رجل:

"عفوًا سيدى! من فضلك، سيدى!"

ماذا تريد؟

أسعى لمقابلة أخت زوجتى. وهى فى دير الراهبات.

آه، إنه بعيد حقًّا! والوقت تأخر للذهاب إلى هناك.

لا أعرف أحدًا هنا. ولا أعرف أين أذهب.

أستطيع استضافتك لليلة واحدة، وصباح غد سأصحبك إلى الدير.

عاد إلى الشخص الذى بقى مع حقيبته.

"أشكرك، يا سيدى".

ثم تبع الغريب الذى وافق على مساعدته، محاولاً تذكر وجه دينِيتِى. كان قد رآها وقت الطلاق، لكنه لم يعرها انتباهه.

"سأطرح عليك سؤالاً، قال. ألا تعرف دينِيتِى، أخت زوجتى، الراهبة؟"

ليست لدىَّ أدنى فكرة عنها. فمنذ زمن بعيد، لم تطأ قدمى الكنيسة. كان ذلك أيام الإرسالية القديمة. كانوا يُعلِّموننا القراءة والحساب. ولأدخل مدرستهم، اضطررت للهروب من قريتى. وعند وفاةِ أمى، جاء أبى ليصحبنى معه عام ١٩٥٣ لأرعى أخوتى وأخواتى. كانوا جميعًا فى سن صغيرة. تعلمتُ الصيد، مهنة أبى، وحصلت على أول شبكة صيد. تزوجت من زوجتى ندومبى(*) وبنيت منزلى الخاص. منذ ذلك الحين، لم أعد إلى المدرسة. أيمكن أن نشرب شيئًا فى المتجر الواقع فى الجهة المقابلة؟

لا مشكلة، فلنذهب.

دخلا إلى البار. وضع الصياد حقيبته. لابد أنه عائد من العمل: فملابسه مبتلة ويفوح برائحة السمك. جلسا وطلبا بيرة.

---

(*) ندومبى: وفرة.

"إن سمحت، فقد حان الوقت للتعارف".

أنا أدعى دونجا (*).

أنا ماندوكو هوبير.

إلى أن أعرف ماذا تعمل فى الحياة، يا هوبير، ولماذا تبحث عن أخت زوجتك؟ شعر هوبير بانقباض فى حلقه. وأحس بالغم.

لم أعد أفعل شيئًا بالحياة! كنت فى السابق إداريًا. وفقدت وظيفتى دون أن أعرف السبب، وأعيش حياة بائسة. جئت لأرى أخت زوجتى لتنقذنى من موقف معين. لا أريدها أن تبقى بالدير، فأنا بحاجة للمال. وأريد أن تتزوج من قاضٍ لتحررنى من براثن العدالة.

إن كنت فهمتك جيدًا، فقد ارتكبتَ جريمة، أليس كذلك؟

لقد ضربتُ صاحب العقار الذى صادر أثاثى، مما تسبب فى كسر ذراعه. قدم شكوى ضدى بالمحكمة. وسأمثُل أمام القضاء الشهر القادم.

أتظن أن أخت زوجتك تستطيع إخراجك من ذلك، إذا ما تزوجت بالقاضى؟

نعم. لكنى إلى حدٍّ ما قلق.

ممَّ تقلق؟

---

(*) دونجا: نقص.

ـ أنا قلق بخصوص أخت زوجتى.

ـ أتظن أنها ستقبل عرضك؟

ـ أخشى أن ترفضه.

ـ أما أنا، فسيدهشنى أن تقبل.

ـ انفجر الصياد بالضحك. توقف وحدق به.

"أنت شخص غريب! تقول إنك أتيت لتزور أخت زوجتك التى تعيش فى الإرسالية، وإنك إدارى فقدت وظيفتك، ولم تقل لماذا وقع عليك هذا العقاب. كل ما أعرفه أنك قضيت شهورًا دون دفع إيجار، وأنك ضربتَ صاحب العقار. والآن، تقول لى إنك قلق.

ـ وما شأنك؟ أتشغلك حياتى الخاصة لهذه الدرجة؟

أمر طبيعى أن أهتم بها. لا تنس أنك ستكون الليلة ضيفى؛ وأنا لا أستضيف أى شخص. فلا أعاشر سوى ذوى الأخلاق الحميدة. لكنى بدأت فى الشك بك، منذ أن قلت لى إنك تريد تزويج أخت زوجتك، فى حين أنك لست أباها.

مهلاً، لا داعٍ للغضب! سأشرح لك سبب قلقى، لكن فلتعلم، يا دونجا العزيز، إن الجميع لهم ماضٍ. وأحيانًا ما تصعب مواجهته، وخاصةً إن لم يكن عظيمًا.

يبدو لى أن هذه حالتك!

بالضبط.

شىء جيد أن تتذكر ما فعلت بحياتك، لتفهم على نحو أفضل ما يمكن أن يحدث. فهل لى أن أعرف السوء الذى ارتكبته تلك الفتاة فى حقك؟

بل هى بريئة. ففى الماضى، أسأت إليها، لكنى أنَّبتُ نفسى. والآن، أعتقد أنى كان ينبغى لى مواصلة حياتى مع زوجتى وأبنائى. فعلى هذا النحو، كان بمقدورى أن أتقدم.

فجأةً، سمعا شخصًا يكلم نفسه خلفهما. ألقى هوبير نظرة. رأى رجلا قذرًا، جذعه عارٍ، وشعره أشعث، يضع حول عنقه عُلبًا مربوطة على شكل قلادة. يجرى وهو يصفق بيديه، مرتديًا سروالاً داخليًا صغيرًا ممزقًا عند ردفيه، حتى ليمكن رؤية مؤخرته. على حين غرة، قفز مثل الجدى، نظر يمنةً ويُسرة، توقف، وانفجر ضاحكًا، ودار حول هوبير.

"أنا أعرفه! إنه يتسبب فى المطر وفى الجو الصحو فى إدارته. إنه فاسد. الكثيرون هكذا. إنهم يطلبون من المواطنين المساكين الآلاف مقابل ملف بسيط. الفساد هنا، سيقتلكم. تظن أنك منقذهم ودرعهم. لم يُبعَد بلا سبب. الوظيفة هنا.. آه! حكومية، لكنها لا تدور لصالحنا. وإذا ما توجب أيضًا دفع المئات.. النقود! نعم! هى النقود. لقد طلبوا زوجتى. أعطيتها لهم. واليوم، يأتون لأخذ طفلى.. آه، لكن! أنا، رفضت. وإذا كنت لا أريد أن أكون شخصًا

مهمًا يقود سيارة ضخمة ومكيفة ويقيم فى قصر. فهل يضر ذلك أحدًا؟ أقول لكم إنى أرفض بيع طفلى. فلا تـأتـوا لى مـرة أخـرى. وأنـتم تـمـرون بـسـيـاراتـكم الضخمة".

يـجـرى ويـجـرى ويـصـفق بـيـديه. يـضـحك بملء شـدقيه. أخـرج مرآة صـغـيـرة من جـيـبه وأخـذ يمشط شعره.

هـوبيـر منزعج، لكن الصياد يسخـر منه. انفجـر بـالضـحك بدوره، وهـو يمسح الدموع التى سـالت على وجهه، حين قال له رفيقه التعس:

"لا أعرف هـذا المخبول، أتتـخيل! للتَّو وصلتُ إلى نزومبِى، وها هو كيف يعاملنى. فأين رآنى؟

لا داعٍ للـغـضـب. فهـذا الشـخص مـريض. يُدعى مويـسُّو، مـجـنـون. ألا تـرى زيه المـضـحك؟ لقـد فقـد ذاكرته منذ توفيت زوجته بشكل غامض.

انفجـر الصياد مرةً أخرى بالضحك إلى أن سالت لا دمـوعه فـحسب، بل أيضًـا أنفه. هـز هـوبيـر رأسه. ابتـسم لـكن صـدره مـهـتـاج من الـغـضـب. تـذكـر كل مـا ارتـكبه مـن أعـمـال تـدليس فى كل الإدارات التـنـفـيـذية التى أوكلت إليه. قال لنفسه: "ربما يكون على حق، لقد بعت أكثر من مئة وظيفة بقنينات خمر. هناك آخرون دفعوا لى نقودًا، لكن بلا أية فائدة؛ بل لم أرد لهم ما دفعوه". ظل ساكنًا برهة.

"ألديك مشكلة؟"، سأله الصياد.

ما أزال أفكر في هذا الرجل الذي أشار لي بإصبعه.

قلت لك إنه مجنون. لا ينبغي أن تعيره اهتمامًا. حسنًا، ماذا نفعل الآن؟ أيمكن أن تستكمل؟

يلوم هوبير نفسه. فعين قابيل له بالمرصاد.

لملم مويسُّو، المجنون، قطع خبز من القمامة. وضعها في كيس، وتوجه إلى الأدغال وهو يكلم نفسه، كأن هناك شخصًا آخر بجواره. مويسُّو مجنون، لكنه رجل كغيره، يؤمن فعلاً بما يقول. إنه صورة المجتمع. لديه أحاسيس وعواطف قوية، لكن إذ تعاني ذاكرته، فإنه ينطق بالغرائب. ولا أحد يبالي؛ لأن هذه الحقائق تأتي على لسان مجنون. ويضحك الجميع، نظرًا لعدم وجود وسائل لمواجهته، لأن الأبله أحيانًا ما يُكرَّم في هذا البلد.

ظل هوبير مضطربًا عندما رحل بصحبة الصياد. توقفا ليشاهدا أطفالاً يلعبون الكرة في ملعب البريد، الذي يغطيه العشب. تأملا باندهاش تسلل لاعب موهوب بالكرة ليسجل هدفًا. رفع الجميع الذراعين إلى السماء.

استأنف الرجلان سيرهما ببطء. رغم ذلك، قطع هوبير الصمت.

"وماذا حدث لي في النهاية؟ عزيزي دونجا، لا أستطيع المواصلة هكذا: فالوضع مؤلم جدًا".

تذكر الوقت الذى طلق فيه زوجته. الآن، لا أحد يرعاه. يأكل أحيانًا بالمطعم، أو عند أصدقاء. فى البداية، عندما كان يعمل، لم يكن يعير الأمر أهمية، لكنه ما إن فقد وظيفته حتى شهد تغيرًا كبيرًا فى حياته. والآن، يعود فى ساعات متأخرة، ويفرط فى الشُّرب، يفرط كثيرًا. لم يعد يتحكم فى نفسه. ينتشلونه من المجارى المائية. حاول أن يعاد توظيفه، لكن إدارته الأصلية رفضت، لأنه أصبح سكيرًا.

وصلا إلى منزل الصياد. الجميع يغطون فى النوم. مصباح عواصف فى الصالون يعطى ضوءًا باهتًا. الباب الرئيسى مغلق بالمفتاح. فتش دونجا فى جيبه، فلم يجد شيئًا. سحب نفَسَين من دخان سيجارته. ترك الحقيبة تسقط. انحنى ينظر فى كيسه، فانحل حبل. تسبب الحبل فى إسالة عرق بارد على جسد هوبير، الذى ابتعد بسرعة. ظن أنه ثعبان.

"ماذا تخشى لتقفز بهذا الشكل؟"

أنت من أخافنى. أعتقد أنك تضعنى فى اختبار. لقد ناضلت بما يكفى هكذا".

انفجر دونجا بالضحك.

"لم تمت بعد وتريد أن تحدثنى عن نهاية نضالك، لابد من النضال حتى النهاية، كما كان أبى يقول لى".

كان على حق، لكنى ميت بالفعل! ألم تر ملابسى الرثة؟

طريقتك فى الكلام تذكرنى بصديق كان يدفعنى إلى الضحك كل مرة يبدأ فيها بالكلام. كان يعتقد أنه أكثر رجال العالم بؤسًا، فلن تقارن نفسك بى. فأنا لست سوى فأر الكنيسة، الذى يبحث فى كل الأركان عن فتات القربان الذى سقط من القس، لكنى ـ لسوء الحظ- لا أجد شيئًا. أنت، لست مسكينًا، فأنت أفضل حالاً لأنك ذهبت إلى المدرسة. فحتى لو أخذوا وظيفتك، فيمكنك أن تقول لهم شيئًا. وسينصتون إليك. نحن لسنا متشابهَين. فهم لا ينصتون إلَىَّ، فأنا بلا مؤهلات.

لا أدرى ماذا تريد أن تقول.

أريد الحديث معك حول حياتى كصياد. لم أعد قادرًا على الصيد لأن شبكتى مثقوبة فى مواضع كثيرة. ولم يعد لدىَّ زورق، فالمحرك يزعجنى كل لحظة. ذهبت إليهم لأطلب قرضًا. قالوا لى إننى لست موظفًا. ولا حق لى فى قرض. أريد تغيير كل شىء: شبكتى وزورقى ومنزلى..

من حق الجميع الحصول على قرض، لكن لابد من راتب وحساب بنكى.

فتح دونجا الباب، وزوجته ندومبى وأبناؤه نائمون بالفعل.

ندومبى! أنا هنا. أهناك ما يمكن أن يؤكل؟

استيقظت ندومبى ببطء بالغ. حيَّت الغريب.

"من هذا الرجل؟"، سألت.

هو...

أنا ماندوكو هوبير.

هل أنت من المنطقة؟

أنا من نيماكامب. جئت بحثًا عن أخت زوجتى.

وهل أخت زوجتك هنا؟

هى بدير الراهبات. وأنا أبحث عنها لتحررنى من موقف صعب.

أيمكن أن أعرف ما الموقف؟

شرحه صعب. بل أشعر بالقلق؛ لأنى لست متأكدًا من أنها ستتعرف علَىَّ.

أنت تمزح. لمَ لا تتعرف عليك أخت زوجتك؟

إنها حكاية طويلة.

هادئ، أخذ سيجارة. طلب نارًا. مسح عود الثقاب بطرف ملبسه لأنه مبلول. انتظر بضع دقائق، ثم أشعله. تقابلت نظراته مع نظرات ندومبى. أحنى رأسه. ندم على مصارحتها عن حياته. كان يجب أن يحتفظ بذلك لنفسه. أخيرًا، فكر بأن ذلك بلا أهمية. على العكس، كان عليه أن يقول المزيد، حيث يمكن أن تساعده على إيجاد أخت زوجته.

أتتخلى دينيتِى عن ندائها الدينى من أجل إنقاذ زوج أختها من مأزق؟ هذا غير مؤكد، قال لنفسه، لكنه سيجتهد فى ذلك، حتى لو لم تكن المهمة سهلة.

هطلت الأمطار. الأمطار قوية. سمعوا خطوات تقترب من كوخ الصياد، وفجأة سمعوا صوتًا قويًا يشبه سقوط رجل. جرى هوبير ليرى ما يحدث، إنه شخص يتخبط على الأرض. ساعده فى النهوض، لكنه انزلق بدوره. غطى الوحل الرجلين. أضاء الصياد لهما بكشافه.

"أشكركم"، قال الرجل وهو يضع قبعته فوق رأسه.

نظر هوبير إليه بإمعان. لا يشبه أحدًا من المنطقة. فهو يحمل علامات على خديه. دعاه دونجا، لكنه رفض ضيافة الصياد.

"لا أعلم متى ستتوقف هذه الأمطار. أُفضل مواصلة طريقى، على كل حال، لست بعيدًا"، ثم استكمل سيره تحت المطر.

عندما رأتهما ندومبى يعودان، قالت:

"هناك ماء بالحمَّام للغريب".

سأذهب، أجاب هوبير.

الحمَّام مكان مُعَد بين المنازل. لم يستحم فى مثل هذا المكان منذ زمن بعيد. بعد الحمَّام، فتش حقيبته، لكنه لم يعثر على الرداء، الذى كان ينوى ارتداءه صباح الأحد. ارتدى بيجامته وذهب إلى دونجا.

"لقد نسيت وضع رداء فى الحقيبة. لا أدرى ماذا سأفعل صباح الأحد".

لا مشكلة، فسترتدى ملابسى، فى انتظار أن تغسل زوجتى ملابسك.

فى الصباح التالى، جرب ارتداء ملابس الصياد. السروال فضفاض جدًا، وكذلك الجزء العلوى.

"لسنا بنفس المقاس"، قال له.

- فماذا ستفعل إذًا اقتربت ساعة القداس وندومبى بللت ملابسك. لن تجف قبل المساء. فالجو مكفهر.

ألقى هوبير نظرة على الخارج، الأرض مبتلة، والمكان الذى انزلق فيه لا يزال يحمل آثار قدميه. بعد تردد طويل، قرر عدم الذهاب إلى الدير فى هذا الرداء. فى المساء، ذهب إلى فندق "لامونتانى". ولأنه لم يملك ما يكفى لدفع أجرة الغرفة، قال لموظف الاستقبال إنه فى رعاية جمعيته، التى سترسل الشيك فيما بعد.

يقع الفندق على شاطئ البحر. والغُرف تحتل مبنى من عدة طوابق، شُيد منذ عهد بعيد. لا مصعد، والنزلاء يُضطرون إلى صعود السلالم. ورغم ذلك، فالمطعم مبنى مستقبلى يطل على حديقة كبيرة، ذات أزهار جميلة. على مسافة قليلة، يبدو الكورنيش بأشجار جوز الهند المزروعة بطول الشاطئ.

يقع الفندق فى وسط المدينة. ما إن يخرج منه النزلاء، حتى يجدوا أنفسهم على اتصال أوَّلى بهذا

المَد البشرى الغزير ومتعدد الألوان. عَلاقة دافئة يجد كل واحد فيها غايته.

تسلم هوبير بسرعة غرفته، ثم عاد إلى النزول واستقر فى الشرفة حيث يراقب مجىء وذهاب النزلاء الأجانب. يستمتع رجل أعمال برتغالى برؤية جموع تتشاجر على قوارير جاز أمام محطة سيارات.

"أعشق هذا، صاح الرجل. فحركات الحشود تذكرنى بمابوتو".

بمعاونة صديق بمثابة مرشد له، فاوض البرتغالى الباعة الجائلين الذين يكدون- رغم صعوبة الأوقات الحالية- فى بيع بضائعهم، مهما كلف الأمر. فيما بعد، توقفا على شاطئ البحر، وقت الغروب، ليتأملا احمرار قرص الشمس وانعكاسه على سطح المياه. بعد ذلك، جلسا إلى مائدة بشرفة مقهى حيث طلب رجل الأعمال بيتزا. تردد مرشده، لكنه ـ فى النهاية ـ اختار هو الآخر بيتزا. فى انتظار الطعام، تحدثا بشكل ودى، وقنينة بيرة فى اليد.

فى الليل، وحيدًا فى غرفته، والجوع يقرصه، لم يستطع هوبير النوم. نزل، وجلس فى أحد مقاعد الاستقبال، وأخذ يتصفح بعض المجلات. توقف بعض السائحين أمام متجر الهدايا، حيث باعت لهم السيدة بورا تحفًا فنية سيأخذونها معهم. أوضحت لهم أنها تحصل عليها من القرى الحِرَفية. وتحصل على البعض الآخر من بلدها، رواندا.

خرج من البار نزيل سِكِّير، تفوح منه رائحة البيرة. تأرجح ثم جنح إلى مكتب الاستقبال.

قال: "أنا سعيد لقدومى لإفريقيا"

– ولماذا؟ سأله موظف الاستقبال بأدب.

أشعر بالسعادة فى العيش هنا.. فلديكم يصَّاعد هذا الدفء الإنسانى الذى قد لا تجده فى مكان آخر.. أنتم متضامنون مع بعضكم البعض.. وأى شخص يندمج فى المجتمع ما إن يصل إلى الأرض الإفريقية..

لاحظ أن الموظف لا يسمعه بإمعان، فالتف نحو هوبير.

"عندنا، الوضع عكسى. فالتصنيع جاء لقتل القيم الحقيقية. والتواصل بين البشر أصبح بالغ الصعوبة، وطوال الوقت نحن وحيدون أمام الآلات. لهذا آتى كثيرًا إلى بلدكم".

غمز بعينه إلى هوبير وأضاف: "آتى إلى هنا أيضًا لأتذوق سحر وجمال الإفريقيات".

رن التليفون. أمسك موظف الاستقبال، المنحنى على المكتب، بالسماعة. سمع صوتًا شاكيًا لنزيل لا يستطيع عمليًا التعبير عن نفسه. لحسن الحظ، أظهر مُحول الخطوط رقم غرفته، غرفة جون باركينسون. أيقظ الموظف، الذى لا يفهم ما يقوله زميله الذى يجيد الإنجليزية. بعد لحظات من الحوار، أعلن بصوت متخوف: "يجب الاتصال بطبيب على عجل".

بحثا عن عنوان طبيب فى الدليل. اتصلا بثلاثة أطباء، لكنهما لم يحصلا على رد إيجابى. اتصلا بعيادة جماعية. أجابهم صوت نسائى.

أوضحا لها: "النزيل لا يستطيع مغادرة السرير، لقد أصيب بالملاريا، وإصابته بالغة".

أنا قادمة، أجابت الطبيبة.

انتظرا ثلاثين دقيقة. ركنت سيارة أخيرًا أمام الفندق. نزلت منها سيدتان، الصغرى ترتدى مريلة تمريض. فجأةً، تعرف هوبير فيها على دينِيتِى. تأكد أنها بالفعل أخت زوجته، لكنها مرت أمامه دون أن تراه. ولم يجرؤ على التقدم، وخشى من مصافحتها.

"أين المريض؟"

فى غرفته.

عندما دخلتا الغرفة، كان جون ممددًا على السرير، تنتابه التشنجات. ارتعش من الحُمَّى، شاحبًا، وعيناه غائرتان فى الحدقتين. حاول عبثًا النهوض. بمعاونة دينِيتِى، استطاع أن يجر نفسه حتى الحمَّام حيث استطاع فى النهاية التقيؤ. ورغم أن المرض أضعفه، إلا أنه وقف محنيًا. اندهشت دينِيتِى من طول قامة الأجنبى.

لا تتقن الطبيبة اللغة الإنجليزية، ودينِيتِى- التى تعاونها- لا تعرف منها كلمة. لذا، تحدثت إلى موظف الاستقبال الذى قام بالترجمة أولاً بأول.

هل أكل هذا المساء؟

لا! تناولت فقط عصير برتقال. تناولتُ إفطارى هذا الصباح، لكنى لم أتناول شيئًا وقت الغداء.

فحصت الطبيبة مريضها أثناء الحوار، ثم أعطت تعليمات لدينِيتِى التى أعدت له حقنة. شكرهما جون بحرارة وقد تحسنت حالته النفسيَّة. نزلت دينِيتِى مع الطبيبة، لكنها لم توجه كلمة لهوبير الذى انتظرها أسفل السلم.

اتكأ هوبير على مكتب الاستقبال، يدردش مع الموظف الليلى الذى حدثه عن مهنته.

"عملى شاق، وأعمل بلا توقف. أستقبل اتصالات من جميع بلدان العالم. فالنزلاء يأتون ويجيئون ليل نهار. بعضهم لا يكف عن تقديم طلبات، ويعطوننى تعليمات علىَّ اتباعها حرفيًا".

هز هوبير رأسه وهو يستمع إلى هذه الأقوال، ثم ابتعد عن الاستقبال. وحيدًا، وقف فى الظلام. يشاهد البحر وهو يجرف نصيبه من الحطام إلى الشاطئ. انتقل هوبير إلى ما وراء الأفق، ربما إلى جوار عائلته. هبت ريح قوية. تخبطت أغصان جوز الهند. وصلت إليه رائحة البحر، تصاًعد أيضًا عندما تنصَب المياه على الشاطئ. تسافر بهوبير إلى عالم آخر. إنه يحب أريج الليل، والريح المحملة بالماء الذى يبلل قدميه. يشاهد الأمواج الموارة تتكسر على لحاء الأُكومة المتناثر على الشاطئ. يمنحه صوت الأمواج

المتكسرة أحاسيس قوية. يحلم.. ربما بسفر قريب يفكر فيه.

اندهش لرؤية خيال البرتغالى بعيدًا فى الضباب. فرجل الأعمال يحب الصيد، كما أنه أحس بملل من بقائه فى غرفته بالفندق دون فعل شىء. مزودًا بأدواته، اتجه إلى الشاطئ. المد عالٍ. تقفز صنارته، وتقفز. فجأةً، اقتنص سمكة طربون. جاهد لأكثر من ساعة قبل أن يستطيع إخراجها. صيدٌ رائع، فى قوام طفل ذى سبعة أعوام. توقف مُورِّدو الخبز الذين يمرون فى الصباح الباكر من فرط الاندهاش.

"سمكة ضخمة حقًا، ولابد أنها ثقيلة الوزن". قال الموظف الليلى المنتظر لبديله.

ممسكًا بسمكته حتى آخر ذراعه، مر الصياد بفخر أمام النزلاء المستعدين لطائرة السابعة صباحًا. توجه مسافرو "الترنزيت" إلى الاستقبال لتوقيع فاتورة نفقاتهم، قبل التوجه إلى قاعة المطعم لتناول الإفطار. وهوبير حزين: فلا حق له فى وجبة الإفطار تمامًا كوجبة العشاء.

"أشعر بصعوبة فى الرحيل"، قال له أحد النزلاء.

أجابه هوبير: "إنه جزء من الرحلة. إننا نتعرف على أشخاص جدد، نتبادل كلمات ودودة، وعندما نبدأ فى الاعتياد، يتوجب الرحيل".

اشترى البرتغالى جريدة من الكشك. يدور هوبير أيضًا داخل المتجر، يتصفح المجلات.

"أتريد شراء شيء، يا سيدي؟"

لا، يا سيدتي. أنا أشاهد فقط، قال هوبير.

إن كنت لا تنوي شراء شيء، فلا داعٍ لتجعيد الجرائد. فالزبائن الفعليون سيأتون لشرائها.

ألستُ زبونًا؟

أنت زبون فقير.

خرج هوبير من هناك مغتاظًا بعض الشيء، لكنه امتثل وتوقف عن هذه المناقشة حتى لا يجذب الأنظار.

بعد أسبوع، وجد هوبير الفندق مظلمًا. بالكاد تضيء ثلاث شموع الاستقبال. لا يعرف موظف الاستقبال كيف يشرح له المشكلة. خمَّن هوبير على الفور أن الكهرباء انقطعت بسبب عدم دفع الفاتورة. هز رأسه. أُعطي شمعة وصعد إلى غرفته. لا يستطيع النوم: فالجو حار جدًّا! وزجاج الغرفة مثبت، فلا يمكن فتحه لإدخال بعض الهواء إلى الغرفة. نزل إلى الاستقبال. قدم شكوى. رحل بعض النزلاء إلى فنادق أخرى. توقف شيئًا فشيئًا الهَرَج، وحل الصمت بالمدخل.

لقتل الوقت، دردش هوبير مع موظف الاستقبال. أحس بالتعب، وذهب إلى حجرته. في الصباح، أيقظه النور. اتجه إلى الحمَّام، فتح الصنبور وترك المياه تنهال عليه. ارتدى ملابسه البائسة، ورتب أخيرًا

حقيبته. كذب على موظف الاستقبال: ادعى أنه ذاهب للتسوق. فى الحقيقة، ترك الفندق. فليس لديه مال لدفع أجرة الغرفة ولا حتى لأخذ تاكسى.

مشى ومشى بلا توقف، وحقيبته على ظهره. مر من شوارع مليئة بأكداس من القاذورات. رائحة مقززة تفوح منها. الذباب يطير فى كل مكان. وبعض الكلاب تتعارك فى قفة تُستخدم سلة مهملات، بحثًا عن طعام. طردوا طائر النغَّاف الذى كان يلتقط الذباب الصغير.

مرت الساعات، وواصل هوبير المشى بلا هدف. بعض الشوارع مكتظة. عند الظُّهر، مر بأشخاص متعجلين عند الخروج من مكاتبهم. سمع جلبة تأتى من طرف الشارع. اقترب فوجد حشداً من الناس يستمعون إلى خطاب شخصية سياسية:

"نقول لكم إننا إن أردنا حل مشكلة الصحة فى بلدنا، فلابد أن نبدأ أولاً بالبيئة.. لماذا البيئة؟ لأننا لاحظنا أن الأوساط التى نعيش فيها مليئة بالمستنقعات وتلال القمامة. علينا إذًا تنظيفها، وبالتوازى بدء حملة ضد العوامل الناقلة للمرض، وهى الفئران والبعوض. فى الماضى، كانت هناك حملات لإبادة الفئران والحشرات. كانت تهدف لمحاربة كل هذه الأوبئة. فمحاربة الميكروبات هذه سياسة وقائية. لكن ذلك لا يكفى، فلابد أيضًا من توفر أطباء يأتون إلى المرضى خلال حملات تطعيم ضد الحُمى الصفراء والسُّل والملاريا.."

لمح هوبير صديقه الصياد الذى ينصت باهتمام. نهض دونجا فيما دوى التصفيق الجماعى احتفاءً بالسياسى. توجه نحو هوبير الذى يعوم فى ملابسه.

"لقد رحلت بلا وداع. كيف يمكنك التجول بمثل هذا الرداء؟"

لم ينبس هوبير بكلمة. جال بنظره فى الحشد بعيون فزعة.

"ماذا حل بك؟"، ألح دونجا.

رد أخيرًا هوبير، لكنه وجد صعوبة فى التعبير.

"كنت فى الفندق".

"هل يخفى شيئًا عنى؟"، تساءل الصياد.

- هل وجدت أخيرًا دينِيتِى؟

نعم، رأيت دينِيتِى بالفندق، كانت بصحبة سيدة بيضاء. جاءتا لعلاج نزيل كان مريضًا.

هل تحدثت إليها؟

لا! أجابه وهو يهز رأسه.

كان بمقدورك الذهاب إلى دير الراهبات. ماذا تنوى فعله إن لم يكن لديك ذلك المال؟ لا تتخيل أنى أستطيع مساعدتك. فلم يعد الصيد مجديًا.

لا يرد هوبير. يمزق الجوع أمعاءه: لم يأكل شيئًا منذ الصباح. حلقه جاف. وفكرة دخوله السجن أضافت إليه المزيد من العذاب. شعره أشعث وعيونه منطفئة. فكر فى زوجته وأبنائه.

"لماذا تُصر على فكرة تزويج أخت زوجتك إلى قاضٍ؟ ألا توجد طريقة أخرى؟ أتسمح لك عاداتكم بذلك؟"

ليست هناك طريقة أخرى. لقد كذبت على القاضى وقلت له إن دينِيتِى ابنتى. وأعرف جيدًا أنى لست أباها ولا حق لى عليها.

وصلا إلى المنزل. ندومبى تطحن الفلفل.

"أين وجدت الغريب؟"؛ سألت زوجها.

كنت بالمؤتمر السياسى حين قابلته. كان يبحث عنى.

جئت لأخذ ملابسى. سأعود إلى بلدتى، نيماكمب.

إن ذهبت، فمن المؤكد أنك ستذهب إلى السجن.

عليك بالبقاء معنا للعشاء، عرضت ندومبى.

بعدها، سأصحبك، وعده دونجا.

تناول هوبير كرة قلقاس، ولكن بلا شهية: فكر فى عائلته. بعد العشاء، رحل مع صديقه. عبرا حى الصيادين. نودى عليهما من كل ناحية. لم يمرا أمام منزل دون أن يتوقفا للتحية. سألوهما عن رأيهما فى الانتخابات التى تجرى بالبلد، لكن هوبير رفض أن يعلن موقفه. فى كل الأكواخ، يدور الجدل حول هذا الموضوع. ولا يتردد الساخطون فى تسمية أعداء الديمقراطية. فهم يريدون انتصار مرشحهم.

هنا يشربون، وهناك يصلحون شِباكهم. نساء يفترشن الأرض منهمكات فى تدخين السمك لبيعه قرب السوق. تنوراتهن مبللة وممتلئة بالحراشف، وتفوح منها رائحة اللحم المتعفن.

تناقش هوبير ودونجا فيما يجب فعله. فى النهاية، تنازل هوبير عن حلمه بتزويج دينِيتى. يعرف أن العادات لن تغفر له هذا الخطأ. لكنه لم يعد قادرًا على الهروب من الشرطة والعدالة اللذين يطاردانه فى كل آن. اقترح عليه دونجا أن يختبئ بمخيم صيد يقع- بعيدًا بعض الشىء- على شاطئ البحيرة. مكان بعيد عن كل شىء، وهادئ. بل عرض عليه أن يشترك مع فى الصيد. فهو يأمل فى أن يساعده هوبير بعلمه فى الإفلات من الفقر الذى يتخبط فيه. وافق هوبير.

فى المساء، بعد الأعمال الزراعية، يستريح هوبير فى ظل شجرة ضخمة. تأمل سفوح التلال الممتدة على مدى البصر، وهذه الخضرة الجميلة التى تكسوها. الجو لطيف. وتغريد الطيور يأخذه إلى نوم عميق. أمام هذا المشهد الهادئ، شعر هوبير بتأنيب الضمير.

"لقد أفرطتُ فى اتباع الأشياء الحسية: النساء الجميلات، الحياة الجميلة، الكحول، أصدقاء السوء، ونسيت عملى وعائلتى. اليوم، أصبحتُ فى هذا الوضع، كأن الرب لم يعطنى كل شىء".

فجأةً، حلُم أنه فى زورق مع صديقه. كانا يصيدان عندما رأيا دورية مياه وغابات مكلفة بحماية

البيئة. توجه المركب نحوهما. قفز هوبير فى الماء. ظل مفقودًا بعد محاولات تفتيش بالمكان. قُبض على الصياد وأُدخل السجن. طالب ببراءته، لكنه اتُّهم بخرق القانون الذى يمنع الصيادين من الصيد فى المياه الحكومية، وبمساعدة شخص على الهروب من العدالة. استيقظ هوبير منتفضًا، وأدرك أنه لم يكن سوى حُلم. لكن عدم رؤيته لدونجا لثلاثة أيام جعلته يخشى أن يكون قد تم القبض على صديقه.

يسأل أهل نزومبِى: "هل توفى ماندوكو؟"

ثمة أشياء عجيبة تحدث فى المنطقة. فقد صياد شبكته وسلاحًا ناريًا. ويشعر السكان بالهَم. وفُقدت بهيمة دون أن يجد أحد تفسيرًا لذلك.

دفعت زوجة الصياد ثمن غضب أهل هوبير الذين اتهموا زوجها بأنه مسئول عن اختفاء ماندوكو. وقعت فى حيرة، فهى لا تعلم أن دونجا خبأه فى مخيم، ولا تعرف كيف ترد على هذه المضايقات.

ذات صباح، وجدت رجال الشرطة وقد أتوا للقبض على زوجها الذى لم يخبرها حتى بالسبب. سُجن زوجها. ولم يعد يعاونها أحد فى تربية الأطفال. قلقت من بقائها بلا أية معلومة عن هوبير. أربكها غيابه المفاجئ، وتساءلت عما إذا كان دونجا قد فكر جيدًا فيما فعله. ما الدسيسة التى ارتكبها إلى حد أن يعتبره الجميع مشبوهًا؟ لماذا رفض أن يحدثها عن الأمر؟ أمضت ليالى من الأرق فى التفكير بقَدرها.

سرت شائعة فى المنطقة بخصوص خطابات غريبة وضعت عند مدخل منازل القرى على طريق نيماكامب. أسفل الخطابات، وضع حرف هـ. أليس هو هوبير الذى يترك مكاتيبه على الأبواب، شأن الروح القدس الذى أعلن مجيئه لشعب إسرائيل؟

مونوجو، زوجته السابقة، قلقة جداً. مضى عام منذ أن سمعت شيئًا عن هوبير. تخيلت أنه مات. ارتدت ملابس الحداد وخلعتها. لكن روح المفقود لا تفارقها. تحس بأنها تراه فى الصالون. تسمع خطواته. وكثيرًا ما تنتابها كوابيس يظهر فيها. ذات ليلة، اضطرت إلى الاتصال بالشرطة؛ لأنها تخيلت سماعها نبرة صوته. فتشوا المنطقة بأكملها. لكن هوبير ظل مفقودًا. ذات صباح، مبكرًا للغاية، فيما الليل لا يزال يخيم، سمعت صوتًا. نهضت ووجدت خطابًا مدسوسًا تحت الباب. مُوقَّع من زوجها. هناك أيضًا آثار أقدامه فى الفناء. سارعت للاتصال بالشرطة. لكنها لحظة أن أرادت أخذ سماعة التليفون، انقطعت الكهرباء. ظلامٌ مُطبِق. أمسكت يد خشنة بوجهها. تساءلت مونوجو عمَّن يحاول إفزاعها. فى الظلام، لم تستطع التعرف على المعتدى. شمت فحسب رائحة الفاكهة العطنة. أطلقت صرخة خوف رهيبة، وفقدت وعيها.

عندما فتحت عينيها، كان الضوء قد عاد. على وجنتها الآن آثار لحرف هـ. لمحت فيما بعد دبلة على الإنجيل. تذكرت هذا الخاتم. فهو خاتم زوجها.

هذه المرة، تعرف أنها على حق. هوبير بلا شك على قيد الحياة.

"ماذا يريد؟"؛ تساءلت.

أخذت الخطاب الذى وجدته على عتبة منزلها، وأصبحت متيقنة ومتأكدة أنه لم يمت.

هوبير وحيد، وحاصرته مشاكله، وقرر أن يسلم نفسه للشرطة. وُضع على الفور فى السجن. انتشر الخبر فى كل مكان إلى أن وصل إلى نزومبِى. تناقلته الصحف وأظهرته على أنه نجاح كبير للشرطة التى كانت تبحث عن المتهم منذ شهور.

يبيع فتى صغير، واقف فى مفترق طرق، الجرائد اليومية مترجلاً، لحظة الإشارة الحمراء. اشترى منه قاضٍ جريدة. تصفحها فوجد فى الصفحة الثالثة صورة الرجل الذى كان يدعى أنه سيصبح حماه. هز رأسه، مفزوعًا من القصة المخيفة للصحفى.

أمضى هوبير ليلته الأولى فى الزنزانة. أسوأ ليلة فى حياته: لم يستطع النوم داخل هذه الحجرة الضيقة. فكَّر فى الصياد وما قالته له زوجته. فكَّر فى دينِيتِى التى لم يستطع مقابلتها مرةً أخرى لإيجاد حل لمشكلته. رائحة البول والقاذورات لذعت أنفه. شعر بغثيان واختناق. نظر إلى علبة السردين وقطعة الخبز اللتين قدموهما له. كان فأران سمينان، يظهران بالكاد بسبب قلة الإضاءة، يقضمان طرف الخبز. تعرف عليهما من صراخهما. إنه وحيد، وجلده يقشعر،

يرتعش. ثمة ثقب صغير يسمح له بالتواصل مع الحارس، إلا أنه لا يزال مُستجداً: لا يملك الحق فى المطالبة بشىء. فكر فى كل ما فعل، وطلب من الرب الغفور أن ينتشله من هذا الوضع. لا يدرى كيف غط فى نوم عميق، ناسياً فجأةً همومه.

مرت بضعة شهور، وفجأةً ـ وسط الليل ـ أيقظ صوت مسموع بالكاد هوبير. تلاشَى فى الريح. لم ير أحداً. لم يسمع سوى خرير خافت:

"كنتُ مستعداً للاستجابة، لكن ما طلبنى أحد، كنتُ متاحًا، لكن ما بحث عن مساعدتى أحد. أعلنت: "هأنَذا، قد وصلت"، لكن لأُمَّة لم تكن تتحدث إلَىَّ. لقد مددتُ يدى طوال الوقت لِمَن لا يريدونها، لِمَن يتبعون طريق السوء ويركبون أهواءهم. إنه شعب يتحدانى دائمًا وجهاراً. فى حدائقهم، يقومون بتضحيات.."

لم يفهم هوبير ماندوكو ما يحدث له. تختلط الأفكار فى رأسه. شد شعره فى الاتجاهات الأربعة. لم يتذكر سوى أنه سمع هذه الكلمات على لسان الأب رولان.

على حين غرة، شعر بحرارة لا تُحتمل تغزو زنزانته، تبعتها رائحة دخان. سمع الصرخات الشاكية التى يصدرها المساجين المفزوعون. يجرى آخرون بامتداد الممر. خلعوا الأبواب بضربة واحدة بقضيب من الحديد لتحرير زملائهم. شعر حراس السجن

بالغيظ. مع ذلك، خشوا من الاقتراب من المساجين المهتاجين.

صرخوا: "اشتعلت النار، لن نبقى هنا بعد الآن! نستطيع الهرب الآن".

تصاعدت النيران، لعقت الحوائط والأسلاك الكهربائية. أصبح السجن أسود من الدخان. لهيب النار منتشر. يظهر صغيراً، وعندما تهب الريح، تكبر ألسنة النار أكثر فأكثر. انهارت المبانى، اتجهوا لكل ناحية لمحاولة إطفاء النار والقبض على الهاربين؛ لكن لأن الهرب والقبض عليهم متناقضان، نجح كثير من المساجين فى الإفلات، فيما بقى آخرون محاصرين بألسنة النار. والنار تطقطق.

وصل أخيراً عمال المطافئ فى سياراتهم الحمراء. جذبوا خراطيم طويلة، ورشقوا السجن بدفعات مياه كبيرة. دفعوا الأبواب بأحذيتهم، فانفتحت بسهولة كبيرة، لأنها لم تبد أية مقاومة، بعد أن التهمت النيران نصفها. دخل الحراس إلى الزنازين، وأخرجوا منها جثثاً متفحمة. سمعوا صوتاً خافتاً يطلب النجدة: إنه هوبير. وجدوه محبوساً فى زنزانته. احترق وجهه وجزء من ظهره. لم يشأ الهروب مع الآخرين. أكان على حق أن استمر حتى نهاية منطقه؟ ربما حلمه الغريب هو الذى منعه.

"أتعرف الشخص الذى أشعل النار"، سأله الحارس.

لا! فقد شعرت بحرارة قوية، وسمعت دقات. وطلب شخصٌ ما منا اتباعه، لكنى فضلت البقاء هنا، لم أعد أريد الهرب، آريد محاكمتى.

بعد عشرة أشهر من السجن، فُتحت قضية ماندوكو أخيرًا. تابع الصياد عن كثب نهايتها، حتى أنه جاء من نزومبى لحضورها.

الطرف المدَّعِى موجود بالقاعة ومعه شهود كثيرون. حكى المالك القديم الأحداث كما جرت، لكنه نسى أن يقول إنه وجه كلمات نابية إلى ماندوكو. فجأةً انتفض ماندوكو: "إنه يكذب، سيدى رئيس المحكمة. لقد سبنى على الملأ. لهذا السبب ضربته. قدم شكوى ضدى، فقابلت قاضيًا من هذه المحكمة. وعدنى بمساعدتى، لكنه اشترط أن أزوجه ابنتى. فكرت ووجدت أنها مشكلة بسيطة. لكنى كنتُ سيئ الحظ: فالفتاة المعنية كانت أخت زوجتى، وأصبحت راهبة. من هنا، لم تعد الأمور معقولة، وأنا لا أملك أى حق فى خرق القوانين التقليدية. فهى ليست ابنتى، ولا أستطيع الوقوف فى طريق إيمانها. لهذا السبب، لم يساعدنى القاضى، الجالس بجواركم".

لا يجب سماعه، سيدى الرئيس، فأنا حتى لا أعرفه؛ أصر القاضى المتهم.

سكوت! لا تتشاجروا! لم يسألك أحد عن شىء، غمغم القاضى الجالس بجواره. يا سيد ماندوكو، عليك فقط بذكر الأشياء الخاصة بهذه القصة.

رفع أحد المحامين يده.

"نعم! فلتتحدث".

موكلى يطلب التعويض. فعلى ماندوكو أن يدفع له مبلغ اثنين وخمسين ألف فرنك للضرر وتعطيل المصالح، لأنه تسبب فى كسر ذراعه خلال هذه المشاجرة، وعدم قدرته على العمل لستة أشهر.

سيد ماندوكو، ماذا تقول؟ سأله رئيس المحكمة.

يمكن أن تقبلوا كل أقواله، لكن كل ما أعرفه أنه رجل متعطش للمال، ويحب ابتزاز المستأجرين لديه.

تناقش القضاة فيما بينهم برهة، ثم أعلن رئيس المحكمة الحكم.

"سُجن ماندوكو لعشرة أشهر كادت أن تكلفه حياته، حين اشتعل السجن بالنيران. وأخذنا فى الاعتبار أنه لم يحاول الهرب فى هذه المناسبة. فحُكم عليه بتعويض بخمسين ألف فرنك كحد أقصى. رُفعت الجلسة".

جُن هوبير بالفرح. قبَّل دونجا الذى ذهب ليدفع المبلغ للمالك القديم المخذول.

"يُقال إنك تخرج من السجن وخدودك ممتلئة! واضح أن صحتك جيدة، لكنك لن تبقى مع سوء الحظ هذا فى جسدك"، نصحه الصياد.

آه، نعم! أهكذا إذًا أصبحت ملعونًا؟

هذا ما يقال عندما يخرجونكم من السجن. فهذا ليس وَسطًا صالحًا، أتعلم؟ لقد قابلتَ مدمنين ولصوصًا وقتلة.. صافحوك، فعلقت بداخلك قاذوراتهم. انظر إلى هيئتك.

ألقى هوبير نظرة شفقة على حذائه المفتوح وثوبه الرث. حل صمت بين الرجلين.

"لديك حق، أجابه، ولكن ماذا نستطيع أن نفعل؟"

أعرف رجلاً يسكن فى الطرف الآخر من النهر. سيطهر لك جسدك.

أخذ هوبير حقيبة ملابسه الصغيرة، ورحل بصحبة صديقه.

عند الصباح، توجها إلى النهر. فكَّا الزورق من المرفأ. لم يكن هناك الكثير من الأشخاص. كانت سيدتان تجلسان أمام كومة موز، فى انتظار الزبائن. صعدا وجذفا ببطء. مسح هوبير- وقد غطاه العرق- طرف المجذاف، وهو يتأمل طائر القاوَند على جذع شجرة يسحبه التيار.

"لابد أن نجذف لنسرع، قال دونجا. فقد لا ندركه".

انساب الزورق على الماء. صفر هوبير وغنى صديقه بقلب مبتهج. رسيا قرب نبت الحِراج. ربطا الزورق إلى وتد، وأخذا طريقًا يوصلهما إلى منزل العرَّاف المهيب. على بعد خطوة، لمحا مبادچا بجوار

منزل من الطين يغطيها سقف من القش، وأبعد قليلاً حظيرة دجاج عبرا المدخل حيث استقبلهما نباح كلب أبيض. قام فتى، جالس بجوار النار، بتجفيف طبلة التام-تام. شد الحبال التى تدعمها. فيما كان آخر يستمتع بدحرجة طوق وهو يدور فى مكانه.

نظرا إلى داخل قاعة المبادچا. العرَّاف جالس. يهيئ شعلات محلية ستستخدم فى الليلة القادمة. جلد النمر يغطى العمود الرئيسى فى الكوخ، وخلفه تمثالان: أحدهما يمثل رجلاً والآخر امرأة. يحملان مرايا. لم يعبرا حتى عتبة الباب حين قال لهما العرَّاف:

"أعرف الهدف من زيارتكما. صديقك يعانى من مشكلة، لقد خرج من السجن. يريد غسل جسده ليصبح نقيًا بما يعيد تأهيله داخل المجتمع".

هز رأسه وأضاف:

"لقد جازف بالموت".

ليبدى موافقته على كلام النجانجا(*) ضرب الصياد الأرض بقطعة خشب. سعد العرَّاف حين لاحظ أن الزائرَين وافقا على كلامه. صافحهما، وتحدث عن عائلته وسلالته. شعر هوبير بالخوف، لكن الصياد طمأنه.

أجلسهما المداوى. يرتدى تنورةً بسيطة حول وسطه. تناقشوا برهة، واتفقوا على المبلغ الذى سيدفع

(*) النجانجا: المداوى.

مقابل إقامة الطقس. أخرج الصياد من جيبه جوربًا، فتحه وأخذ من داخله خمسة عشر ألف فرنك. أضاف أيضًا بعض الهدايا التى وضعها أمام العرّاف. قام العرَّاف بتمريرها أولاً تحت قدميه تكريمًا لأرواح أسلافه قبل أن يعطيها لزوجته.

جاءت، والبسمة على شفتيها؛ قامت بإيماءة ركوع، شارةً على الاحترام، لأنها لا تستطيع الوقوف أمام الرجال. حيت الغرباء، وانحنت أمام زوجها، ثم أخذت الهدايا التى قدمها لها. خطوتها هادئة وواثقة. سوداء، طويلة وجميلة. على ذراعها اليمنى، ثمة علامات: كل علامة ترمز إلى أحد خُطابها السابقين. إنها مواطن جمال تجعلها متألقة فى عيون الرجال. واعتادت نساء المنطقة على تشذيب أنيابهن، وتشريط ظهورهن وبطونهن، ليقع الرجال فى أسر سحرهن.

أمسك المداوى بجرابه ووضع بداخله أحجبة تنير بصيرته. قاد هوبير والصياد وسط الغابة. الممر طويل وملتف. صعدوا مجرى مائيًا. ساروا ببطء مما سمح للنجانجا بجمع بعض الأدوية. فجأةً، انتبهوا على صوت شلال.

"وصلنا"، قال لهم.

تأمل هوبير جمال الغابة. شاهد شجرة معترشة، وسنجابًا، وفراشة ويرقةً على جذع شجرة. تصفر بلا توقف حشراتٌ ذات صراخ عال. حبس أنفاسه. نظر إلى الماء العذب الصافى. غطس قدميه واستمتع

ببرودته. النهر ليس واسعًا، حيث يجرى فى ظل دغل من أشجار البندق.

خلع هوبير ملابس السجن؛ قذفها فى التيار وألبسه العرَّاف تنورةً بيضاء. أجلسه فى منتصف النهر. دعك جسده بلحاء الشجر وأوراق نباتات مختلفة، وهو يردد تعاويذ. تحدث بطريقة غير مفهومة لغير المُلقَّنين. ظل لوقت طويل يتحدث بهذه اللغة. لقد ورثها عن أبيه. هذه العبارات السحرية تسببت فجأةً بشىء غريب: هبط ثعبان صغير من الشجرة، غاص فى الماء ومر بين ساقَى هوبير الذى ارتعد من الرعب، ثم اختفى فى حفرة على الشاطئ، فيما كان عصفور رمادى يغرد فوقهم. أخذ العرَّاف صندوق الأدوية وقلبه على رأس هوبير، الذى ارتعد من البرد. دعكه العرَّاف بأوراق الشجر. غطى جبينه بصلصال. مضغ دواء بصقه على رأسه، ثم جعله يرفع ذراعيه إلى السماء. "لقد وافق جنِّى أسلافى. الآن، أنت حر. عُدت من جديد رجلاً نقيًا".

فى نهاية طقس التطهير هذا، عادوا إلى المنزل بلا التفات إلى الوراء، حتى لا يمس هوبير الحظ العاثر مرةً أخرى.

## - ٩ -

يسير التاكسى بلا أماكن محددة للتوقف، ويتباطأ السائق عند كل تجمع ليأخذ زبونًا. تتوقف الآلة الصغيرة حسب الحاجة، لسوء حظ بعض الزبائن، المتعجلين للوصول لأماكن عملهم.

جلست سيدة بجوار دينِيتِى. وجهها متورم؛ لأن زوجها ضربها فى ساعة متأخرة ليلة أمس. حكت أنهما تشاجرا بسبب لقائها بزوجها السابق، موسى، ليتناقشا حول مشكلة العودة المدرسية لطفلهما.

فى العام الماضى، كان ابنهما يعيش لدى أختها الكبرى، التى انتُدب زوجها بعيدًا عن نزومبِى، مما طرح مشكلة حضانة الطفل، وخاصةً أن أختها تعول أسرة كثيرة العدد. وكان على زوجها السابق، بالتالى، أن يبدى موقفه من هذه المسألة. اتفقت معه على موعد للمناقشة. لم يقل زوجها الحالى شيئًا وتركها تذهب. خلال لقائهما، اتفقا على إلحاق ابنهما بالمدرسة الكاثوليكية بنزومبِى، وأن يكون موسى مسئولاً عن حضانته. عادت مسرعةً إلى بيتها لترعى صغارها. لم يكن زوجها بالمنزل، والأطفال تُركوا لشأنهم. لم تقل شيئًا، كانت تعرف أنه مع أصدقائه.

عاد فى الثانية صباحًا. كانت العائلة كلها تغط فى النوم. عرفت أن الوضع سيسوء أكثر. فقد أخبرها الأطفال أنه خرج مع موجانجى. فمعها كثيرًا ما يذهب إلى الكازينو، وكثيرًا ما يحدث ذلك عندما يذهب إلى هناك. سمعت خبطة قوية على الباب.

"منجى! منجى! افتحى الباب وإلا فسأهدم المنزل، سأرى أين يجب أن تنامى مع الأطفال".

منزعجة، نهضت وفتحت. انقض عليها دفعةً واحدة وضربها كأنها كلب، رغم بكاء الأطفال الذين توسلوا إليه أن يتوقف.

أوضحت لها دينِيتِى أنها ليست الوحيدة التى تعانى من مشاكل فى العائلة، وحكت لها بعض الأحداث المؤسفة لعدد من أفراد سلالة الكالباس.

منذ زمن بعيد، وعلى مدى سنوات، لم تنجب الأم ديكامبى(*) سوى أطفال موتى، إلى أن جاء اليوم الذى أنجبت فيه ابنًا حيًا. ترك الابن نيماكامب ليستقر بنزومبِى. عاش حياة صعبة مع أسرته. والديون تجاه مقرضيه تثاقلت حتى عجز عن دفعها. استولى عليه الشر، فأنهى حياته متظاهرًا بأنه حادث صيد. تم تشريح الجثة. لم يكن ثمة أثر لرصاصة، لكنه ابتلع سُمًا تقليديًا من شعر نمر. فما من أحد استطاع تحقيق العدالة بنفسه. لمراجعة بنود عقود القروض، توجه المقرضون ـ بعد الدفن ـ إلى أبنائه. كان لديه

(*) ديكامبى: نقص.

ما يقرب من خمسين ابنًا، من سبع عشرة امرأة مختلفة. قدموا حقل الذرة كدفعة. لكن الدين تزايد من عام لآخر. استغل المقرضون الأرض لحسابهم. وعاش نسل ديكامبى فى الفقر. أزعج زعماء العائلة وضعُ هذه الأسرة التى تربطها صلة قرابة بالجدة أجوا، وخاصةً العَم مَآ الذى أراد دائمًا أن يرى سلالته ملتزمة بالفضيلة. والواقع، أن بعضهم بحث عن مخرج من خلال تجارة المخدرات. من بين هؤلاء العَم ماندُو. روت أجوا إلى دينِيتِى أن فمه كان ممتلئًا بالرغوة يوم ولادته. أدرك السحرة الذين كانوا يختبئون فى شجرة القابوق، الواقعة عند مدخل المدينة، مَن تسببوا فى مرضه. لهذا السبب، كان لديه ميل معلَن للكوكايين. قُطعت الشجرة، لكن تصرفاته لم تتغير، فلما مات سحرته. لم تفهم أجوا السبب. فى كل مكان فى نزومبِى تُحكى هذه القصة. ويُقال إن المدمنين والتجار يتخصصون فى غسل السيارات لإخفاء أنشطتهم. ويمضون أغلب أوقاتهم فى بارات الرقص فى ممارسة أعمال دنيئة والتدخين، واليد اليمنى فى الفم لتمسك بسيجارة الحشيش. لغتهم تليق بشبان العشوائيات، والنقود هى الـ"بيّا"، والفتيات هن الـ"جوز". ويتم التعرف عليهم بسهولة من ملابسهم ومشيتهم. يحلقون شعرهم بتسريحة الرَّاستا ويرتدون جينز باهتًا وتى-شيرت صُنع فى الولايات المتحدة الأمريكية. وجوههم تشبه تمثالاً نُحت على نحو سيئ، وعيونهم منتفخة بسبب قلة نومهم فى الليل.

ترى دينِيتِي أن العَم ماندُو شخص مهووس. لم تلحقه تعويذة شريرة. وحتى لما كان فى صغره، كان يجتذب أنظار عائلته بتصرفاته. كان يتسكع بدلاً من الدراسة؛ كان يفضل قضاء الوقت مع أصدقائه على التعلُّم. كان يذهب معهم ليدخن خفيةً فى الغابة. وتم اقتراح عدة حلول: إعادته للقرية، ومنعه من الخروج، لكن ذلك لم يكن سهلاً، لأنه كان يربك كل الخطط.

بعد بضع سنوات، بدأ فى التسبب فى الخسائر. باع تليفزيون أخيه الكبير، وأفرغ خزانة ملابسه. بعد هذه الصفقات، انتهى مآله إلى الشارع، وأصبح تاجر مخدرات. ظهر أكثر من مرة فى الصفحة الثالثة من الجريدة، فى أخبار الحوادث. فى فبراير الماضى، تم القبض عليه مع اثنين من شركائه بحوزتهم مئة جرام كوكايين، كانوا ينوون بيعها. واتُّهم بأنه العقل المدبر للعصابة.

توقف التاكسى فى محطة خدمات. فجأةً، حاولت سيارة صغيرة الانطلاق بالقرب منهم، تعرفت دينِيتِي فيها على صديق للجدة أجوا. نادت عليه، فتوقف ما إن لمحها. نزلت لتلقى عليه تحية الصباح.

"دينِيتِي! أنا سعيد برؤيتك. ألديكِ أخبار عن العَم ماندُو فى الآونة الأخيرة؟

لا!

هناك شائعات منتشرة. يبدو أنه أثار حفيظة تاجر كبير. فمنذ أسبوع أو اثنين، كان يتردد على فندق

لامونتانى. يُقال إنه يختبئ هناك فى الليل، لأنه مطارد من قبل مجموعة تجار مخدرات. كان يدفع حسابه فى الفندق، فى بادئ الأمر، لكنه سرعان ما عجز عن الدفع. ولم يكف عن الكذب: "سأدفع عندما يعود رب العمل من السفر". أبدى موظفو الفندق تفهمهم، لأنه كان لطيفًا معهم. كان يترك بقشيشًا للجميع، وكان مظهره ينم عن رجل فاضل. ولما تكاثرت الشكوك فيه، ترك الفندق بلا أثر على أنه حى. عاد إلى منزله، لكنه لم يظهر طوال النهار. الليلة الماضية، تشاجر مع أصدقائه فى حانة. هرب مرةً أخرى. وأمس، أسَرَّ إلى أخت صديقه: "لا أدرى ما إذا كنت سأشهد الكريسماس". وعندما حاولت معرفة السبب، أطبق فمه. وهذا الصباح، وجدوه متوفيًا فى سريره، وفى يده مسدس. قال رجال البوليس ـ الذين اكتشفوا الجثة– إنها عملية تصفية حسابات. وفيما نتحدث الآن، هرب المجرمون".

عند سماع القصة، كانت دينِيتِى على وشك فقد وعيها. الآن، تبكى بحرقة. أخذها صديقها فى سيارته لإعادتها إلى منزلها. ولا تدرى كيف تعلن الخبر لجدتها.

قريبًا سيمر شهر على معرفة أجوا بالمأساة التى حلت بماندُو، ولم تصلها إلى الآن أخبار عن أبنائها. لكنها لا تقلق فعليًا على دينِيتِى. تقول لنفسها إن حفيدتها بين يدى الرب، لكنها قلقة للغاية على ابنتها

ماكيكى[١] وابنها تاكيكى[٢] فلا تستطيع البقاء لا مبالية بصمتهما. فرغم أفعال تاكيكى المشينة، إلا أنها تحتفظ بحبها له، ربما لأنه خرج من بين أحشائها.

"يا إلهى! ماذا أفعل لأستعيد هذين الطفلين؟ فحسب آخر الأخبار، وجدت صغيرتى ماكيكى عملاً لدى مقاول فرنسى، لكن منذ أن رفضتُ أن ترحل معه، لم أعد أراها"، بكت أجوا.

بالفعل، كان كل شىء يسير بشكل جيد إلى أن عرض مدير ماكيكى أن يأخذها معه إلى فرنسا. لكنها عندما بدأت علاقة مع الشاب إيبامب[٣] كانت قد حملت بالفعل من آخر، الصغير ماباجا[٤] وسرعان ما تغيرت معه، دون أن يفهم ماباجا السبب. أصبح حلم ماكيكى أن تسافر مع صديقها الجديد إلى فرنسا للتعرف على هذا البلد الجميل. أعلنت الخبر إلى أجوا التى رفضت اقترانها بأجنبى. قالت لها أمها إن ماباجا من شبان القرية، ولن تحدث مشكلة إذا ما تزوجته. لكن ماكيكى رأت أن ظروف صديقها ليست جيدة بما يكفى لعيش حياة سعيدة مع الطفل، الذى توشك على ولادته.

رغم اعتراض الأهل، قررت ترك بلدها. ولأن حملها غير ظاهر حتى الآن، فلم تمتنع عن مقابلة

(١) ماكيكى: أم صغيرة.

(٢) تاكيكي: أب صغير.

(٣) إيبامب : الأبيض.

(٤) ماباجا: الشكوك.

صديقها الفرنسى. وتحملت تهكم أصدقائها فى المدينة.

ذات صباح، استقلت تاكسيًا لزيارة صديقتها نينجون. باحت لها بهمومها:

"أريد الزواج من فرنسى والسفر معه إلى باريس. لكنى للأسف أحمل فى أحشائى طفل ماباجا.

وهل يعلم ذلك صديقك الفرنسى؟ سألتها نينجون.

لم أخبره بعد.

ستحتفظين بسرك حتى سفركم إلى فرنسا، أليس كذلك؟

التزمت ماكيكى الصمت.

- الأفضل أن تقولى له الحقيقة؛ أضافت نينجون.

أخشى ذلك، فإذا اعترفت له بأنى أحمل طفل ماباجا، فسأفقد هذه الرحلة.

تعرف نينجون ممرضًا فى حى الكاريبى. يُجرى مانفومبى(*) عمليات إجهاض فى منزله، بصورة غير شرعية. ومريضاته من أفقر نساء المدينة.

تعرفت عليه ماكيكى. شرحت له أنها تريد إجراء الإجهاض بإرادتها، لأنها على وشك الزواج من رجل ليس الأب. خرجت من منزلها دون إخبار أحد. كان

---

(*) مانفومبى: الجثث.

المرض واثقًا من نجاح العملية، فقد أجرى الكثير من العمليات بلا مشاكل. لكن زوجته منعته ـ فى هذا اليوم- من إجراء هذه العملية، فقد انتابها، فى الليلة السابقة، حلم مفزع. رأت جسد شابة بلا حراك متروكًا فى منزل، والناس يأتون فى طابور طويل ليبكوها. النساء شعَّثن شعرهن، وعقدن تنورات حول أجسادهن.

لم يستمع مانفومبى إلى نصائح زوجته. استقبل فى منزله ماكيكى بعد الظهيرة. بقى وحده مع مريضته. لم تشك أبدًا فى خبرة مانفومبى الذى أبدى براعته، مع ذكر قائمة النساء الزبائن عنده.

مع ذلك، فقلبها مضطرب.

لم ترتد سوى ملابسها الخارجية. الغرفة التى ستُجرى فيها العملية هادئة، وليس هناك سوى صوت المذياع الذى يبث موسيقى عذبة. ارتدى المرض مريلة بيضاء، كجراح حقيقى. ارتدى قفازه. مذعورة، رأته ماكيكى يعد الحقنة. لكن الطبيب المزعوم ابتسم. ربما لأنه واثق فى نفسه.

"سترين، كل شىء سيكون على ما يرام؛ لن تتامى تمامًا، لن تحسى بألم، ولن تسمعى سوى صرير المقص".

خدَّر ماكيكى. فجأةً، أصبح وجهها شاحبًا، كأن الدم لم يعد يجرى فيها. جسدها بلا حراك. لم تعد تتحرك نهائيًا. أجرى عمليته باعتقاد أنها ستصحو،

لكنه سرعان ما لاحظ أنها توفيت. مذهولاً ومغموماً، أوصد الغرفة التى ترقد بها الجثة. بقى وحده فى المنزل مع الجثة، لأن زوجته سافرت فى الإجازة الأسبوعية عند أهلها، وأحس ببرد جليدى بأنحاء المنزل. تساءل كيف سيخبر أهل الفقيدة.

استجمع شجاعته. فى الخارج، وجد أمامه ثلاثة رجال بمظهر غريب، الأول ملتحٍ، والثانى أصلع، والثالث كسيح، يتناقشون فيما بينهم. عن بُعد، رأى سيدة تسير بخطى مسرعة. تشبه زوجته. ترتدى ملابس مبقعة بالدم، حاول اللحاق بها، لكن الرجل الملتحى أوقفه. أعلن مانفومبى براءته.

"لستُ أنا من قتلها، لكنى أردت مساعدتها فقط".

ماتت بين يديك. لقد رأيناك!

حاول الإفلات، لكنهم أمسكوا بمريلته، فلم يستطع. قاوم كثيراً، ووقع على المذراة التى يمسك بها الأصلع. اخترقت قلبه. سبح فى بحر من الدماء. ترك الغرباء فريستهم وفروا.

فى الصباح، اكتشف الجيران بذهول بالغ جثة الممرض وقد اخترقتها المذراة، موضوعة على مقدمة سيارته. جرى أحدهم لإبلاغ الشرطة. جاءوا فى الحال، لكنهم ـ خلال المعاينة ـ اكتشفوا وجود جثة أخرى. ماكيكى ممددة، ميتة، على منضدة فى غرفة شبيهة بقاعة عمليات. شاع الخبر فى المدينة بأكملها. وتم استجواب زوجة الممرض.

تأثر أهل الكاريبى القلائل بهذه الوفاة التى غمرت الجميع فى حزن عميق. فى حى أجوا، كان الناس أقل إجماعًا. فالبعض يرسم لها صورة مُداهنة:

"كانت فتاة نحيلة، طويلة وسمراء. نميزها بسهولة بالنقطة السوداء فى جبينها. كانت كأنها تضع كُحلاً خفيفًا. وجسدها الفارع يعطيها أناقة خارقة. كانت فريدة من نوعها بفضل مشيتها، صراحتها وابتسامتها".

الآخرون يحددون:

"نعم، لكنها كانت ساذجة. ربما لهذا السبب عجلت بموتها".

وهكذا، فى نزومبِى، يثبتونها فى ذاكرة مَن لم يعرفوها. غير أن الجميع طرحوا أسئلة عن الوفاة الغامضة للممرض.

سمعت أجوا نباح كلاب وصراخ عُقبان. هذا نذير شؤم، فقلقت. لما تأكدت من صحة خبر وفاة ماكيكى، لم تعد تحتمل الاهتمام وحدها بكل شىء. فكرت فى ماندوكو. هو الرجل الوحيد الذى تعرفه هنا. سمعت أنه يقيم فى فندق لامونتانى. وقررت أن ترسل إليه دينِيتِى.

رفضت الممرضة فى البدء. لم تستطع تخيل أن تلتقى وجهًا لوجه بالرجل الذى أهانها علنا.

"ألا يمكن لك أن تغفرى له؟"، سألتها أجوا.

– أغفر لهذا الرجل؟ لا أستطيع، يا جدتى. ولكنى– رغم ذلك– سأفعل، بسبب الملابس التى أرتديها، تنهدت وهى تشير إلى ملابسها كراهبة مستجدة.

وجدت دينيتِى نفسها أمام فندق خال. لا أحد بالاستقبال. أخيرًا، وجدت بعض الموظفين المهمومين.

– صباح الخير، أيتها الراهبة!

– صباح الخير!

– أترغبين فى شىء؟

– ألديكم نزيل باسم ماندوكو هوبير؟

– المكان مغلق منذ أسبوعين. لقد جئنا فقط لنطالب بمستحقاتنا.

الفندق مهجور. الزهور ليست مشذبة. العشب ينمو فى كل مكان. المطعم خال. والأرض يغطيها رمل أبيض، خلَّفه بعض مَن يرتادون الشاطئ يوم الأحد. ثمة روائح بيض عفن تفوح من المطابخ. الهدوء والحزن على وجوه الموظفين يشارفان الكآبة العميقة.

اضطربت دينيتِى عند رؤية مثل هذه الجوهرة تتحول إلى أطلال. أسَرَّ أحد الموظفين لها بأن هناك منشآت كثيرة فى البلد تتحول إلى أوكار للمدمنين واللصوص. عند الخروج، التقت بصياد، يمسك بيد شبكة وبالأخرى دلوًا مليئًا بالسمك. لدى رؤيته ملابس الراهبة، تساءل دونجا عما إن لم يكن أمام زوجة أخت

هوبير. قدم نفسه إليها باعتباره صديقًا لماندوكو. ابتهجت دينِيتِى بهذه المقابلة التى اعتبرتها هبة من الرب. تكلم معها الرجل عن حياة الهارب، وعن ندمه على تصرفاته حيالها وقت الطلاق. أكد:

"ماندوكو يقيم فى نيماكامب. لقد خرج من السجن حيث قضى عقوبته. وقد بحث عنكِ طويلاً ليزوجك بالقاضى الذى وعده بتبرئته، غير أنه لم يجدك".

– لقد عانقت الحياة الدينية، وتزوجت المسيح لأنقذ الأرواح الضالة، أجابته دينِيتِى وهى تبتسم.

## ـ١٠ـ

عادت دينِيتِى إلى مويل بعد سنين عديدة من الغياب. تغيرت القرية. لم تعد تشبه صور طفولتها التى احتفظت بها من الذكريات الغائمة.

"أعتقد أن منزلاً كبيرًا كان يقع هناك، قالت لأزفينو، صديقتها التى قابلتها. نعم، ما أزال أتذكر طقس التوائم الذى أقمناه للاحتفال بأخوتى الصغار.."

فى ذلك الوقت، كان عمرها سبع سنوات. وضعت الأم موسافو توائم. ليلة الاحتفال، سمعت دينِيتِى صوتًا هائلاً. كان رجال يغنون بأصوات مبحوحة. ارتمت بين ذراعى أمها التى طلبت منها عدم الصراخ، لأن مويرى، الرجل التمساح، سيظهر قريبًا.

"إنه يأتى من النهر ليبارك أخوتك".

أهو روح؟

يصعب معرفة ذلك.

فى تلك الآونة، لم تخبرها أمها بشىء. فلم تعرف دينِيتِى سوى أن الرجل التمساح يدعى مويرى، وأنه

سيأتى فى الحال، وأنه سيستغل فيضانًا غريبًا للوصول حتى منزلهم.

تزايدت صيحات الرجال. كانت تبكى لفكرة أن ترى أخوتها بين ذراعَى الرجل التمساح.

"لا داعٍ للبكاء، نصحتها أمها. فهو لن يأكلهم. فمويرى ـ فى جوهره ـ هو الروح الحامية للتوائم. فهو يجعلهم محصنين وأقوياء".

فجأةً، أحست بريح قوية تهز سقف منزلهم. سمعت ما يشبه صوت موجة البحر، التى تتكسر على الشاطئ. انطفأت جميع الأنوار. لم يعد هناك سوى المشعل الذى يرشد الراقصين. إيقاع خطواتهم متناغم مع قرع الطبول، الذى يضيع وسط صراخ وخوار الرجل التمساح. لم تستطع أبدًا تفسير كيف ترك النهر مجراه لينتقل مويرى إلى منزلهم. فى نهاية الطقس، أصبح أخوتها الصغار مبتلِّين. ولاحظت برك مياه صغيرة فى كل القرية رغم أنه موسم الجفاف. بحثت عن آثار الرجل التمساح. قالت لها أمها إنه تلاشى مع الفيضان.

بصحبة أزفينو، أكملت دينيتِى نزهتها بمويل. فجأةً، تعرفت على الكوخ القديم لأجوا. تذكرت أن العَم مَآ روى لها هنا قصة تانجمينا. قصة جميلة عن حب الحكمة. جلست مع صديقتها على دكة خشبية، وحكتها لها. حدقت فيها أزفينو. وفية لتلك العادة التى ورثتها عن أمها، قامت دينيتِى بحركات بذراعيها

مع الكلام، ونطقت الكلام ببطء لتجعل الرسالة سهلة الفهم. روت الأحداث بمزيج من السخرية والتهكم، مثلما علمها العَم مَآ. ويداها مضمومتان على ركبتيها، استمعت صديقتها بانتباه إليها، وخاصة أن الحكاية مؤثرة.

كل شيء بدأ فى فترة وفاة العجوز بامبو. تخيلن كم اضطربت الراهبة مارتا، التى وهبت قلبها وروحها لإنقاذه. وتستعيد تعبير العَم مَآ عندما يتحدث عن وفاة شخص فى مويل: "كان لدى أمى قرعة ممتلئة بالزيت، فامتص النمل الأحمر كل شىء". فى القرية، لا يترك الموت أحدًا فى لامبالاة. لابد من وقفة لمعرفة ما حدث فعلاً. فليس مبهجًا رؤية جارنا يموت لأن خيطه انقطع. فوفاته بمثابة تآكل لجزء من أرضنا. وحياته تمثل جزءًا من حياتنا. فنحن جميعًا معلقون بنفس الخيط..

تتذكر دينِيتِى أنه فى اليوم الذى جمعهم جدها ليحكى لهم حياة تانجمينا المضطربة، كانت القرية غارقة فى شبه ظلمة. فى السماء التى كانت لا تزال بلون أزرق داكن، كانت النجوم مثل سن القلم الجاف على ورقة كراسة، وقد خطها فنان فقط ليقطع وقته. جلس الأطفال على شكل دائرة حول العَم مَآ، منتبهين حتى لا تفوتهم أية تفصيلة. كانت الأم ماسافو أيضًا تستمع وهى مستغرقة فى صُنع سلة. تنقع من حين لآخر الأعواد الجافة فى المياه لتجعلها أكثر مرونة.

ساءت حالة العجوز بامبو حتى أن الراهبة مارتينا عادت به إلى دار المسنين. فى الحال، طلب تانجمينا. سمع العَم مَآ عن الرجل الحكيم، لكنه لم يكن يعرفه. يعرف فقط أنه يمكنه مقابلته على بُعد بضع ساعات من المشى، بالقرب من دوبيندا(*) ذهب للبحث عنه منذ الفجر. وجده فى مرعاه، وسط السهل، فشرح له قلق العجوز بامبو ـ الذى يريد نقل معارفه إلى أحفاده.

قال تانجمينا: "فكرةٌ جيدة، فلا يجب أن يموت أحد ومعه كل معرفته. ورجل حكيم مثله عليه مشاركتها مع ذريته. سأذهب غداً لزيارته بالإرسالية، حوالى الواحدة بعد الظهر".

اخترت ساعة جيدة، أجاب العم مآ، لأن الراهبة مارتينا تستريح فى هذا التوقيت، وسيكون لدى العجوز بامبو إمكانية الحديث معك فى هدوء.

لن ترحل هكذا. فهنا، لا مشروب أقدمه لك. والأفضل الذهاب إلى منزلى الصغير فى آخر السهل.

تركا القطيع، وسارا بضع دقائق ليصلا إلى كوخ تانجمينا. يأتى إليه ليستريح به بعد رعى حيواناته.

المنزل صغير، لا يحوى سوى غرفة وشرفة. وهو مبنِى من لحاء الخشب وسقفه مغطى بالقش. أعده لنفسه فقط. الغرفة ريفية، والسرير ليس فيه سوى مجرد مكان. لا ملاءة، بل فقط نشارة خشب.

(*) دوبيندا: منخفض.

"هذا مسكنى الثانى، قال تانجمينا. كومة الخشب التى تراها هنا تنقذنى فى موسم الجفاف. فأنا آتى إلى هنا لأتدفأ".

خلف الباب قرعة ضخمة ممتلئة بعَرَق البلح.

"إنه للُطف منك، يا تانجمينا. فالراهبة مارتينا تمنعنا من شربه، لكنى سأتناول القليل".

اتفقا على موعد فى اليوم التالى بالإرسالية. تأخر الوقت، وأسرع العَم مَآ فى العودة من دوبيندا بهذه الأخبار السعيدة. أخبر على الفور زوجة باميو، العجوز بوروبو، أنه قابل تانجمينا الذى أبدى استعداده لخدمة زوجها.

بهذا الخبر، كانت بالغة السعادة لعلمها أن حفيدها سيتعلم أخيرًا خبرة جده. إنه بمثابة شرف لها، كما أنها أملت أن ترى عائلتها تمتلك كل ما تحتاجه لتصبح فاضلة فى نظر العائلات الأخرى بالمنطقة. فهى تعتقد أن الحكمة التى ستنتقل إلى عائلتها هى دليل لكل إنسان تواق للإنصاف والعدل. فهى وحدها التى تقودنا على الطريق القويم.

فى اليوم التالى، وصل العَم مَآ إلى الإرسالية الدينية، فيما كانت الراهبة مارتينا على وشك الخروج. قابل فلاحًا بسيطًا، بصحبة كلبه.

"صباح الخير يا سيدى"، قال تانجمينا.

فلتعذرنى، يا سيدى، ولكن لماذا تحيِّينى؟

كيف! ألا تعرفنى؟ أنا تانجمينا، مَن جئتَ للقائه بالأمس بخصوص العجوز بامبو!

تانجمينا؟ لكنك تغيرت تمامًا.

ربما لأنى تنكرت بهذا الشكل، فلم تتعرف علىَّ.

لا! سيكون من غير اللائق التقليل من شأن شخص محترم مثلك، شخص يمتلك معرفة هائلة! وإذا ترددت، فلأن عينىَّ تؤلماننى بسبب هذه الشمس التى تتوهج، كأن الرب سيتنزل من السماء.

أتظن ذلك؟

فى الحقيقة، كما يقولون فى المدينة، فجهود البلد كلها محشودة للبحث عن تانجمينا، فاعتقدت أنه شخص يدَّعى أنه أنت. لهذا السبب وقع قلبى فى الإثم. سيد تانجمينا، أنت شخص حقًا نبيل!

ارتسمت ابتسامة عريضة على شفتَى تانجمينا.

"معك كل الحق. فى هذا البلد، يريد الجميع ادعاء أنه تانجمينا، الرجل الحكيم".

دخل العَم مَآ إلى جناح العجوز بامبو. عند مدخل الغرفة، لمح العجوز خيال العَم مَآ وشخص آخر معه لم يستطع التعرف عليه. توقف حفيده نجوما عن اللعب لما دخل الرجلان إلى الغرفة.

قاما بتحية العجوز بوروبو الجالسة على مقعد صغير بجوار السرير الممدد عليه بامبو. كان يتنفس بصعوبة. صافحه تانجمينا. أعطوه مقعدًا. فوجئ

بالنظرة العميقة للرجل العجوز، نظرة تنم عن معاناة احتضار طويل.

"سعدت بوجودك، قال له. أقدم لك حفيدى. هو همزة الوصل بين حياتى وبين الأجيال القادمة. ولهذا طلبت منك المجىء، لأنك قادر على منحه المعرفة. سيعرف الخضوع لمتطلبات الحكمة، ولن يحكم على شىء إلا بها. كنت على وشك البكاء عندما تركت منزلى إلى هذا الملجأ. لم أكن أريد إلا دفنى مع صلصالى. قال لى عمى، عند وفاته: "إننى أسلمك هذا ليخدمك، وعليك التفكير جيداً فى الأجيال القادمة"، وأعطانى صلصال السعادة. هذا ما علىَّ فعله بدورى. فقد ورثناه عن جدتى، التى أنجبت تسع بيضات دجاجة، حولها أجدادى إلى صلصال. هو حقاً صلصال السعادة. فهو يجلب الخصوبة والذكاء والحكمة والقوة".

ارتجفت شفتاه تحت تأثير الكلام. بكت العجوز بوروبو، وأنصت بانتباه نجوما الصغير إلى جده الذى روى حكاية قبيلته. أعطى تانجمينا الطفل كوب ماء وورقة شجر عليه مضغها طوال حديث جده.

دار المسنين كأنها منقطعة عن العالم الخارجى. لم يعد هناك صوت سوى صوت بامبو العجوز يرن فى الغرفة الصغيرة. لكن، كيف سيتمكن نجوما من استيعاب جميع أسرار قبيلته فى يوم واحد؟ تساءلت العجوز بوروبو. ودون أن تطرح هذا السؤال، أجاب عنه العجوز بامبو بنفسه.

"تانجمينا، أعهد إليك بحفيدى، ستعلمه حكمة العالم كلها، ليكون قادرًا على فهم كل ما يتعلق بالسماء والأرض".

أخرج من تنورته صُرة الصلصال التى أعطاها للصغير نجوما.

أضاف: "هى لك".

ما إن نطق بهذه الجملة، حتى أصابه الوهن. أظلمت الغرفة، فيما كان النهار لا يزال بالخارج. قبل تانجمينا رعاية الصغيرة ليعلمه حكمة العالم.

عند خروجهم من الغرفة، هبت ريح عاتية، تبعها إعصار فعاصفة. انهالت أمطار غزيرة على المدينة. وتدين العجوز بورويو بحياتها إلى الأب أوجين الذى نقلها بسيارته.

تحت العاصفة، فكَّر تانجمينا فى قطيعه الذى تركه طليقًا فى سهل دوبيندا، اتخذ طريقًا مختصرًا يؤدى إلى مسكن صديقه. الممر زلق، انزلق وسقط فى الطين. كان صديقه قد نام بالفعل، أيقظه وطلب منه مصاحبته للبحث عن حيواناته.

فى الصباح، وصلا إلى المرعى، فقابلا كبشًا ضخمًا هائجًا.

صاح تانجمينا مستنكرًا: "قطيعى!"

سيطر على الحيوان بصعوبة. بمعونة صديقه، احتاج إلى يوم كامل ليتمكن من إدخال الماعز فى

الحظيرة. عندما انتهيا، كان الظلام قد حل. لمس فى جيبه علبة الثقاب، لكنها مبتلة. وقفا داخل الكوخ، لا يريان شيئًا. فجأةً، تذكر أنه ترك علبة ثقاب على جذع شجرة. تنفس الصعداء. جفف يده بخرقة وأشعل النار. الطعام الذى تركه مساء الأمس لا يزال موجودًا. سخَّنه. شرح لصديقه- وهو يأكل- معنى الرسالة التى تركها العجوز بامبو إلى ذريته.

فى الأيام التالية، سقطت أمطار مصحوبة ببروق ورعود على المنطقة بأسرها. رأى فيها تانجمينا نُذُرًا بوفاة العجوز بامبو.

ذات مساء، لاحظا فى العتمة خيالاً صغيرًا يقترب من الكوخ.

"من عساه يأتى فى مثل هذا الوقت؟"؛ سأل صديق تانجمينا.

واه! أنصت قليلاً إلى صوت الطفل الذى يقترب منا، أجابه.

اقترب منهما شيئًا فشيئًا. حدق تانجمينا فى الظلمة وتعرف على نجوما الصغير. الطفل منفجر فى البكاء.

أبلغهما: "العجوز بامبو أسلم الروح".

- لا ينبغى أن تبكى، قال له تانجمينا. فذات يوم ستعرف الحزن الحقيقى. لا ينبغى أن تنظر خلفك، فعليك- من الآن فصاعدًا- أن تنظر أمامك. اليوم، لم

تعان من شيء. فجدك هو مَن مات. وأنت لم تعش طويلاً إلى جواره. عندما ستفقد أمك وأباك، ستشعر كأن العالم انقلب رأسًا على عقب. وستعتقد أنك الوحيد فى هذه الحالة، وتظن أن الرب حرمك من السعادة والفرح. مع ذلك، مع الوقت، سيصبح كل شىء عاديًا، وسترى بوضوح أكبر. فالأحداث المؤثرة على مسار الحياة هى ما يجب مجابهتها. الحدث الأكبر الذى سيؤثر فيك هو وفاة زوجتك الأولى. هنا، ستفقد من كنت تعتبرها كأمك. أنت تعرف تقاليدنا. فعليك أن تكون رجلاً لتقاوم كل محن الموت.

غمرت وفاة العجوز بامبو دار المسنين فى حزن عميق. السماء كئيبة والمدينة كلها غارقة فى السواد. صدر الراهبة مارتينا مبلل بالدموع. كان لديها بصيص أمل عندما حقنته بدواء جديد. بل قال لها إنه يشعر بتحسن. ظلت تذهب وتجىء. أحست بالعجز. فهو أول فقير يسلم روحه فى دار المسنين. يمكن فهم غضبها الممزوج بالحزن وكل العاطفة التى أكنتها للعجوز بامبو. "لكل منا أجله، حتى لو وُلدتم توائم". ترددت جملة الراهبة مارتينا هذه فى ذهن العَم مَآ، عندما نظر إلى جسد صديقه الممدد على سرير الموت. كانت وفاة بامبو صدمة للجميع، ولكن بالأخص لمَن كان بمثابة أكثر من أخ له. حفرت الدموع آثارها على وجهه. فكر أن صديقه كان يمكن له أن يعيش ثلاثة أو حتى خمسة أعوام أخرى. كانت شخصيته قوية. والعَم مَآ كان معجبًا خاصةً بشجاعته. تآلفا منذ أول يوم من لقائهما، كأنهما متعارفان منذ الأزل.

"إنه لمحزن ما فعلته بى"، فكر فى سره.

لم أفعل شيئًا، أجابه المتوفى بصوت خافت. هو القدر الذى كان له رأى آخر.

آه! نعم.

تمعن العَم مَآ فى روحه لمعرفة فيم كان يفكر حقًا هذا الرجل. راودته فجأةً فكرة، كانت بمثابة اكتشاف لمستكشف. وأثلجت صدره. فهم أن الوقت القليل الذى أمضاه بامبو على الأرض كان كافيًا ليعرفه بملذات العالم. عند وفاة زوجته، قال إن أيامه معدودة. لم يعد يعيش بفضل إرادته الشخصية، بل بإرادة الرب. أسَر إلى العَم مَآ أنه صلى ليقول: "هو أنت يا رب مَن أردت بقائى على الأرض، سأبقى إلى أن تدعونى". الرب الرحيم عادل، لأنه كان وحيدًا لما طلب هذا الفضل. لم يكن بمقدوره أن يكمل واجبه. أثلج صدره ميلاد نجوما. قال إنه سيتمكن من إزاحة عبء عن كاهله، وهو ما فعله بأن عهد بالطفل إلى تانجمينا مع إعطائه الصلصال. وتانجمينا مُرحب به، لأن بدونه لن يستطيع أحد إكمال تعليم نجوما.

فى المدينة، يتحدث القليلون عن وفاة العجوز بامبو. لم يكن أغلب الناس يعرفون معدنه الأصلى. لكن فى دار المسنين، لا أحد يتردد فى الثناء عليه.

كان شيئًا غريبًا أن يقوم رجال البوليس بتفتيش الإرسالية، ليلة وفاة العجوز. قيل إنهم يبحثون عن تانجمينا، لكنهم إذ لم يجدوه، قرروا انتظار يوم الدفن.

"ماذا سيحدث؟"؛ تساءلت العجوز بوروبو.

إنها قلقة بخصوص حفيدها، فإذا تم القبض على تانجمينا، لن يستطيع حفيدها الإفادة بعد من حكمته.

انتهى نجارو الإرسالية من صناعة التابوت. رقد فيه جسد العجوز بامبو. اشترى له الأب أوجين ملابس جديدة من متجر اللبنانيين.

"لكن، لماذا ينبغى دائمًا أن يرتدى الموتى ملابس جديدة؟"؛ سأل نجوما تانجمينا.

الطريق الذى يقود إلى الله دائمًا ما يكون نظيفًا، والإنسان المدعو للقائه لا ينبغى أن يتقدم بملابس متسخة. لهذا السبب، يتم تغسيل المتوفى وإلباسه ملابس نظيفة.

فجأةً، لدى إلقاء القس الترتيلة الجنائزية، ركنت سيارة شرطة أمام الكنيسة. نزل منها ثلاثة رجال شرطة. ركع أكثرهم تدينًا ووشم الصليب. اقتحم الآخران القاعة. تمعنا فى وجوه الحاضرين. وجدا فى الصف الأول رجلاً عجوزًا ملتحيًا يجلس إلى جانب طفل صغير. تقريبًا أصلع، عدا بعض الشعرات التى تنمو على الجانبين. ظهره محنٍ، ويمسك بعصا فى يده اليمنى. لم يستطيعا التعرف على تانجمينا. ناديا على الراهبة مارتينا ليسألاها ما إذا كانت المعلومات التى لديهما صحيحة.

"أيتها الراهبة، ليتمجد اسم الرب".

لنشكر الرب، أجابتهم. ماذا يمكنني أن أقدم لكم؟

نحن نبحث عن رجل باسم تانجمينا. إنه يمتلك كنزًا عظيمًا.

ما نوع هذا الكنز؟

إنه يمتلك حكمة البلد بأسرها، ويُقال أيضًا إن العجوز بامبو، قبل وفاته، عهد إليه بطفل صغير لينقل إليه هذه الحكمة.

أنا لا أعرف هذا الرجل، اعترفت الراهبة. لكن لا أحد يمكنه أن ينكر فى البلد أن تانجمينا يُسهل نقل المعارف. فالجميع يعرفون حكاية الملك، الذى كان على وشك الموت- أكملت. استدعى تانجمينا لتعليم ابنه، ليستطيع إكمال مسيرته. عكف تانجمينا على ذلك، وتعلَّم ابن الملك- إزاء دهشة الوزراء- تاريخ مملكته فى ثلاثة أيام. ظل تانجمينا يعمل فى القصر لبضعة أشهر، ولما أحس الملك بأن أسراره لن تضيع هباءً، أسلم الروح. تُوج ولى العهد ملكًا، ووظف تانجمينا للعمل إلى جواره لأنه يتمتع بذاكرة مدهشة.

استمع رجال الشرطة إلى هذه الحكاية بلا فهم لشىء. أضافت الراهبة مارتينا:

"إذا ما كنتَ أيها الضابط تقصد الرجل الذى أتحدث عنه، فهو ميت! لأن الحكاية التى رويتها لكم- كما تعرفون- قديمة حقًا.."

رحلوا بلا فائدة. فور رحيلهم، اختفى العجوز الملتحى ذو العصا. بجوار نجوما، لا يوجد سوى رجل له وجه بشوش.

وجه العَم مَآ عابس، بفعل ما اجتاحه من ألم وانفعال. رمق الرجل الذى يصلى بجوار حفيد الفقيد. يعرف جيدًا من هو، لكنه لا يجرؤ على التحدث إليه. يحس أنه ارتبط به كارتباط الظفر والإصبع. لكنه لم يتعرف إليه إلا منذ بضعة أيام. تساءل عن سبب مطاردة الرجل هذه؟ ألأنه يعرف الكثير عن المجتمع؟ أيخشى الناس من تعريتهم؟ أتفسر هذه الأسباب البسيطة لماذا لم يعودوا يريدونه؟ لا إجابة تزيح الغموض. وكثيرًا ما يُقال إن على المرء إغلاق فمه حتى لا ينبس بكلمة، وسَد الأذن حتى لا يسمع شيئًا، وإغماض العين حتى لا يرى شيئًا. ذلك حقيقى، لأن مَن يريد التمتع بحياة طويلة، عليه ألا يتكلم عمًّا لم يره. ومع ذلك، فالوضع مختلف بالنسبة لتانجمينا: فعليه أن يقول كل شىء ويدين كل شىء. إنه يُجسد المعرفة التى ستنتقل إلى الأجيال القادمة عن طريق الكلمة والكتابة. وإذا ما أغلق فمه وعينيه وأذنيه، فماذا سنكون فى هذا البلد؟ فشعبٌ بلا ثقافة ولا ماضٍ أليس منذورًا للضياع؟

لا تزال ذكرى العجوز بامبو حية فى ذهن العَم مَآ. لا يزال يرى خيال الرجل. لقد هجرته عائلته وأقرباؤه فى قريته. فماذا كان سيحل به إن لم تستقبله الراهبة مارتينا فى الإرسالية؟

دُفنت الجثة بعد الظهيرة. تركت الشمس الحارقة مكانها لمطر خفيف. نادرًا، ما يتم رؤية هذا الطابور من السيارات متجهًا إلى المقبرة. لا يوجد أهالى الفقيد وأصدقاؤه ومعارفه فحسب، لكن بالأخص الرعايا الذين يترددون على كنيسته، وأتوا بأعداد غفيرة. يعرف العَم مَآ أن هذا من صنيع الراهبة مارتينا.

تانجمينا هادئ. نظره موجه إلى الأرض. ساقاه مثقلتان بهذا الألم الذى مزق تلك العائلة التى أصبح الآن مرتبطًا بها. بجواره، ليس هناك سوى الصبى والأرملة. يبكى نجوما بحرقة وكذلك العجوز بوروبو. رفع تانجمينا رأسه. أيقن أنهم ينزلون التابوت إلى القبر.

"لو كنتُ مكانك، همس، لأحسستُ بالزهو. فالدرب الذى تسير عليه اليوم أكثر أمنًا. فهو يجنبك كل المواقف الصعبة، فأنت ذاهب لمقابلة الرب. أما أنا فسأبقى لأقوم بالمهمة الأكثر حساسية فى التاريخ، وهى إكمال تعليم وتفتح حفيدك- بل حفيدنا- بشكل عادل ومشرِّف. أقول ذلك لأنه الآن ابنى. وبفضل تعليمى سيصبح قادرًا على تمييز الخطأ والصواب، والقبول بقيم الإنصاف والعدل والسلام. سيحنى رأسه أمام الحكمة، وسيخضع لسلطان الرب. بهذا الشرط وحده سيُخلد اسم سلالتك".

فى مكان الدفن، يضحك الناس، يتراشقون بالسباب ويصيحون. ونجوما لا يفهم شيئًا.

لما يتصرفون هكذا؟

الحياة مسرح، قال تانجمينا، فعليك المحافظة على هدوئك. فالناس يُبدون سعادتهم عندما يمر أحدهم من طريق الحياة لينتقل إلى السماء.

الميلاد، فى رأيى، هو الأجدر بالاحتفال؛ اعترض نجوما.

هذا ليس لبسًا يا صغيرى، فعاجلاً أم آجلاً ستتعرف على النشوة الرفيعة للموت، لأنه سينقلك إلى ما فوق الكون، وستستطيع التواصل مع كل مخلوقات الرب.

بعد صمت تأملى، أضاف:

"لغة المياه والحشرات والثعابين والفيلة والطيور، الرعد، وأمواج البحر، والأسماك فى المياه، لن يظلوا غرباء بالنسبة لك. ستسمع وتفهم كل ما يفكرون به عنا. من هنا، ستشعر بالخشوع للرب. ستعرف كيف تقدر عظمة صنيعه لدى خلقه هذا الشىء أو ذاك. فقد منح كلاً منا دورًا يقوم به ضمن تحقيق واجبه. وسترى أن الموت جيد من أجل الاستمتاع بالملذات الحقيقية للحياة الأبدية".

قامت سيارة شرطة بالمرور قرب المقبرة، فأمسك تانجمينا بنجوما من يده واختفى، دون انتظار نهاية المراسم. منذ اليوم التالى، بدأ يعلم الصبى الكتاب العظيم للرب. قال له: "عليك أن تعرف هذا الكائن

العظيم فى الأعلى. هو مَن خلق السماء والأرض، الأنهار والمحيطات وكل هذه النباتات المبهرة. له كتابه المقدس. وهو مكتوب بلغة البلد. منه تستطيع أن تنهل هذه التعاليم. وبفضل كتب الشريعة، يكشف المعرفة بالعالم، والإنسان ومكانته على الأرض".

اكتشف نجوما أن الكتاب الضخم للرب يحتوى على كل العلوم، وأن كل ما نفعله على الأرض ليس سوى حلقة فى الحياة. تدور باستمرار. فتعاليم الكتب المقدسة الكبرى تشير إلى أن كل شىء صنع منذ آلاف السنين. فمن أين ينبع إذًا احتقار الإنسان للرب؟ فكثيرًا ما يفتخر الإنسان بأفضليته متجاهلاً وجود الرب؛ وحماقة البشر هذه هى أصل سقوطه. فالكبرياء ليس أمرًا طيبًا فى ذاته. وهناك أمثلة كثيرة فى الحياة تعلمنا بالعواقب الوخيمة لهذه الرذيلة.

بين هذه التعاليم، التى تبدأ دائمًا فى الصباح الباكر، وتُستأنف ليلاً عند غروب الشمس، يحظى نجوما بوقت للراحة. فى هذا الوقت، يحلل فكر تانجمينا.

بعد ظهيرة، فيما كانت نسمة خفيفة تهب برقة، استلقى نجوما تحت أغصان الشجر بجوار نبع يجرى بسكينة. تحدث إلى نفسه: "تانجمينا، أنت على حق، فعظمة الرب كاملة. لقد نظرت إلى هذا العصفور وفكرت على الفور فيما قلت لى".

بعد هذه الكلمات، متعبًا، غط فى سبات عميق.

نظر تانجمينا حوله. لم يعد يرى نجوما الصغير. بحث عنه فى كل الأركان. ظن أنه ربما هرب بسبب أحزانه. صعد التلال وعبر الوديان. وجده أخيرًا فى سبات عميق أسفل شجرة أتنجاتى. هزه أكثر من مرة فاستيقظ الطفل.

"ماذا بك حتى تأتى لتنام فى ظل هذه الشجرة؟ لقد بحثت عنك فى كل مكان!

لا شىء، عَم تانجمينا. لقد استمعتُ إليك، كما تعرف، فبعد مثل هذا الدرس، كان علىَّ الحصول على راحة حقيقية لأقدر حقًا عظمة الرب. رأيت للتو أشياء لا يمكن وصفها.

أعرف، أجابه تانجمينا. لكنك لن تستطيع تقدير عظمة الرب، يا بنى. فهو البدء والانتهاء.

حل الليل. عاد نجوما وتانجمينا إلى المخيم. أشعلا نارًا لطهو الطعام. فجأةً، أحس تانجمينا بقلبه يوشك على التوقف. وضع يده على صدره. قال لنجوما إنه يستشعر خطرًا يهدده. فهو مُطارَد بلا انتهاء بقوى الشر الرافضة للتعليم، الذى يمنح للجميع. قال: "لا شىء أهم من التعليم، حجر أساس المعرفة".

ظل تانجمينا حزينًا حتى نهاية العشاء. فهو لم يعد على راحته، لكنه يشعر بالرضا؛ لأنه أعد الطفل جيدًا لمواجهة المستقبل. لم يعد لنجوما ما يخشاه، وسيحس بامبو بالرضا. فحفيده تلقى تعليمًا جيدًا.

يعرف شجرة قبيلته والقبائل المجاورة. علَّمه أسرار النباتات. أراه كيف يتكلم مع الأشجار والطيور وحيوانات الغابة. علَّمه أيضًا عقيدة الحكمة. مثل "سليمان"، سيمكنه الآن رؤية حب البشر واختراق الأسرار الغامضة. أصبح ـ منذ الآن ـ أقرب إلى الإله، لأن الرب يحب السكنَى فى مَن يجمعون بين جسد وعقل سليمين.

لم تغمض عين تانجمينا إلا فى وقت متأخر من الليل. دعا الرب أن يعينه على التخلص من الأرواح الشريرة.

فى الصباح، مع شروق الشمس، كان السبَّاق إلى الاستيقاظ. أقام صلاته بينما الصغير لا يزال نائمًا. ارتسم فى الأفق ضوء ساطع. رأى عن بُعد راعيًا يقود قطيعه إلى المرعَى. رغب فى اتباعه، لكنه خشى من ترك الطفل وحده. نظر إلى الأرض، وعندما ألقى نظرةً إلى نفس الاتجاه، كان الضوء قد تلاشَى وأيضًا الراعى. نجوما الآن واقفٌ، يتلو صلاة الصبح.

"علينا بالرحيل، قال تانجمينا. سأتركك لدى بوروبو، أما أنا فسأتبع الراعى".

من الراعى؟ سأل نجوما.

إنه الرب. فأنا مطارد. وهو الوحيد القادر على حمايتى.

سافرا طوال اليوم، ووصلا قرب مدينة فى ساعة متأخرة من الليل. كل شيء هادئ. والهواء ثقيل.

"علينا الإحساس بثقل الهواء. فى هذه اللحظة، نحن محميون. فالأسلاف يتبعوننا بأنظارهم".

سارا وتوقفا من حين لآخر، وآذانهما مترصدة. الريح تصفر فى النخيل، ولا يصل إليهما سوى نباح الكلاب. أحيانًا ما تهرب الجِداء لدى اقترابهما. فجأةً، وفيما كانا يعبران فناءً، وجدا نفسيهما أمام سيدة تستحم فى الظلام. صرخت عندما لمحت الخيالين. طلب منها تانجمينا أن تصمت، لكنها صرخت بكل قوتها. أمسك بالطفل وهرب. عند وصول زوجها، كانا فى مأمن منه. عن بُعد قليل، أشار لهما صوت الفاكهة المتساقطة من الأشجار إلى وجود مياه ممتدة. هى بحيرة كبيرة. ونجوما غريب عن هذا المكان. ذُعر من خيال رآه على بُعد أمتار من حافة البحيرة. يشبه رجلاً مقنَّعًا يرتدى ملابس بيضاء. لا زوارق فى هذا المكان، سوى طوافة صغيرة من الخشب مربوطة بجذع شجرة. بحث تانجمينا عن عصا طويلة. وجدها على الأرض. طلب من الطفل الركوب، وكان العبور. المياه هادئة، وسرعان ما رسيا على الشاطئ الآخر.

بعد أن عهد بالطفل إلى جدته، لم يضع تانجمينا وقتًا. اتجه إلى بانا(*) قرية على شاطئ البحيرة. فى الصباح، ذهبت سيدة إلى السوق. وجدت رجلاً جالسًا لا تعرفه يبيع خوص النخيل. اقتربت منه.

---

(*) بانا: من هم؟

"صباح الخير، يا سيدى!"

ـ صباح الخير!

ـ بكم تصنع الملاءات من الخوص؟

ـ لن تكلفك الكثير يا سيدتى. تستطيعين الحصول عليها بثلاثة ألف وخمسمائة فرنك.

ـ تبدو كأنها لا تأتى من هنا. أين صُنعت؟

ـ أبعد قليلاً، فى الجنوب.

ـ أنت إذًا لست من المنطقة؟

ـ أنا أنتمى إلى هنا، يا سيدتى، لكنى أتحدث جميع لغات البلد.

ـ أنت من هنا؟ ما اسمك؟

عند هذا السؤال، ارتعش تانجمينا. فهو لا يستطيع إخبارها باسمه، يخشى أن تخونه.

"ليس لدى اسم".

كيف، ليس لديك اسم؟ انفجرت ضاحكة.

أستطيع أن أخبرك به، لكن بشرط. فلا يجب أن يعرف الناس أنى فى هذه المدينة.

إذًا فأنت هارب؟ يتم البحث عنك. ربما أيضًا قتلت شخصًا. أليس كذلك؟

ليس كما تظنين يا سيدتى. فلا أستطيع إخبارك باسمى، لكن فقط بمعناه: فأنا أحمل اسم فاكهة تمنح مَن يأكلها ذاكرة حديدية.

مرت سيارة جيش. قفز تانجمينا للاختباء خلف البضائع المعروضة. لن يخرج من هنا سوى مع حلول الليل. تعجبت المرأة، فهو لا يبدو شريرًا! بحثت عنه بدورها، وعلى رأسها الطست، فى السوق كلها، لكنها- رغم جهودها- لم تجده. وترك ملاءاته المصنوعة من الخوص.

اتجه الجنود إلى مرفأ البانيو، فتشوا قاع المركب.

سألوا البحار: أين قبطان هذا المركب؟

عند الجسر، أيها الرئيس.

ماذا يُدعى؟

يُدعى مبورو.

توجهوا الى القمرة، والأسلحة فى الأيدى. كان القبطان يقرأ قصصًا مصورة.

"صباح الخير أيها القبطان!"

- صباح الخير! ماذا نستطيع فعله لكم؟

لقد أرسلنا الحاكم.

بخصوص أى موضوع؟

نحن نبحث عن المدعو تانجمينا.

من جديد!

قيل إنه يختبئ فى مركبك.

من قال لكم مثل هذه الأشياء؟ إن كان بمركبى، لكنت علمت.. لا مشكلة، أسمح لكم بالتفتيش.

لكننا قمنا بذلك بالفعل! للأسف ليس هنا. أين يمكن أن يكون؟

ليست لدىَّ أية فكرة. فكل ما أعرفه أنه تم تعميم نشرة بالبلد كلها للبحث عنه. ولا أعرف حتى السبب. فهو سؤال نطرحه منذ ذلك الحين.

المشكلة لا تكمن هنا. فقد أُمر الجميع بالقبض عليه. بالنسبة لى، توقفت عن ذلك. ففى ظنى أنه ليس هنا. سنستفيد من قدومك لإعادتنا إلى نديندى، فلا تمر دوريتنا الآن.

عليكم بالانتظار قليلاً، الآن، فالوقت غير مناسب للملاحة. فعلينا انتظار أن يرتفع المَد قليلاً ليرحل المركب. تعالوا، انظروا: هؤلاء الذين ترونهم بالأسفل هم غواصون، إنه بالنسبة لهم وقت جمع المحار. المياه منخفضة لدرجة أنها واضحة للعيان.

أعلينا انتظار المَد؟

لا، أطمئنكم، فالمصب- هذا العام- أقل احتياجًا. والتيارات لم تحفر كثيرًا الشاطئ.

بعد هذه المحاولة فى بانا، تخلى تانجمينا عن العيش فى المدينة. وجد ملجأ فى مخيم قرب النهر، حيث عاش على نتاج صيده.

عانى الأب بيتُوفا من مشكلة كبيرة. فقد تم القبض على ابنه. سمع عن قدرات الرجل الحكيم. فثمة شائعة تقول إن عرَّافًا يعيش على ضفاف النهر. فرحل للبحث عنه.

جذف فى زورقه، إلى أن فوجئ ببقايا سنور على صخرة. لا يستطيع أكله بهذه الطريقة سوى فهد. لمح دخانًا يصَّاعد إلى السماء. قال لنفسه: "حمدًا للرب! فهناك من يستطيع معاونتى، كنت أخشى أن أجد نفسى وحيدًا هنا". اقترب وسمع ضربات بلطة لحطَّاب، فرسَا بزورقه.

نادى: "أوهووو! أوهووو!"

أجابه تانجمينا: "أوهووو!"

نزل بيتُوفا من الزورق.

صباح الخير!

صباح الخير!

أبحث عن رجل باسم تانجمينا. قالوا لى إنه يسكن بالمنطقة.

هل هناك مشكلة؟

ليس لدى شىء ضده، لكن لدىَّ مشاكل كثيرة.

ماذا؟

خرج ابنى إلى الغابة مع زوجته، فأكلها الرجل الفهد.

الرجل الفهد؟

نعم!

أنا من تبحث عنه، أنا تانجمينا، وأملك المعرفة. قد أستطيع معاونتك، لكن عليك أن تحكى لى كل شىء.

ظل بيتُوفا حذرًا.

"من أين أنت قادم؟"

رفض تانجمينا الإجابة عليه.

"لكنى سألتك من أين أنت قادم؟ تكلم بلا خوف، فأنا أستمع إليك".

إذًا كان ابنى مع زوجته. أحسست بالظمأ. نزلت لتشرب من نبع فيما ظل هو جالسًا فى ظل نبت الحِراج. رآها ترحل وعلى ظهرها السلة. وهو واثق من ذلك. لقد سمع خطاها فى مياه النبع. بل نادى عليها مرتين. أجابته أنها شربت، وأنها تبحث عن بعض الأوراق لتلف نباتات المنيهوت. فجأةً، سمع صرخة. فى البداية، ظن أن الصوت يأتى من المخيم المجاور، لكنه كان الرجل الفهد يمزق زوجته. قفز إلى الوادى وهو يجرى، فلم يجد سوى سلتها مقلوبةً على الحصى. اختفى جسد زوجته. والدم يملأ المكان، حتى أوراق الشجر. حتى فى الماء، وجد خيطًا ممدودًا من الدم. ترك الرجل الفهد آثاره فى الطين. بكى ابنى وحيدًا وسط الغابة. عاد ليبلغ الخبر إلى المخيم، لكن أحدًا لم يصدقه. والبعض ظن أنه هو من تخلَّى عن زوجته. عاد إلى القرية؛ وفى اليوم التالى، ذهب إلى المدينة ليتقدم ببلاغ إلى الشرطة. لكن ما زاد المصيبة أنه وجد صعوبة فى شرح ما حدث، فتم القبض عليه.

فكَّر تانجمينا. وفى النهاية قبِل أن يساعده.

"أستطيع إخراج ابنك من حيث هو".

ما إن عاد، حتى ذهب الأب بيتُوفا إلى السجن. أخبر ابنه بالخبر، لكن ابنه تشكك فى قدرات تانجمينا. يظن أنه ليس بقوة زعيم القرية الذى قبض عليه.

عند حلول الليل، تمدد ابن بيتُوفا على سريره، ووجهه مُثبَّت فى سقف الزنزانة. فكَّر فى قدره التعس. ماذا سيفعل غدًا، أثناء الاستجواب؟ إنه متلعثم ولن يفهم أحد منه شيئًا. كما أنه ينسى بسهولة الأشياء.

قال لنفسه: "فى النهاية، ماذا سأخسر إن لجأت لتانجمينا؟"

كان السجين يعمل بالسخرة عند الحاكم، عندما ظهر له تانجمينا.

"جئت لأنقذك، قال له. لا أعرف كيف يمكن إدانة شخص، لأنه لا يعرف كيف يتكلم. فأى طفل يتلعثم، فحتى لو لم تفهمه فى البداية، فستفهمه فى النهاية".

أعطى للسجين قارورة صغيرة. أسَرَّ له أنه إذا ما شرب منها بضع قطرات، فسيمتلك سحر الكلام وستنفتح ذاكرته على المعرفة.

فيما كان السجين يتحدث مع تانجمينا، خرجت زوجة الحاكم. لا ترى شيئًا، لا تسمع سوى صوته وصوت شخص آخر لم تستطع تحديده. نادته لتسأله

مع مَن يتحدث، لكنه أجابها أنه وحده. اقتربت، واندهشت لدى رؤيتها رجلاً رث الثياب يبتعد عن أملاكها. رجل عجوز، يحمل خُرجًا على ظهره.

عند عودته إلى زنزانته، أطاع ابن بيتُوفا تانجمينا. فاجأ كل من استجوبه: لا لأنه على علم بكل ما حدث منذ يوم ولادته فحسب، بل لأنه على دراية أيضًا بما جرى فى السنوات السابقة لميلاده. الآن، يعرف حتى قصة عائلته. وعلى طرف لسانه شجرة نسب جميع القبائل. يوم محاكمته، كانت القاعة مكتظة. أراد الناس الاستماع إلى سحر كلامه. وهو مقنع لدرجة أن تمت تبرئته.

لم يخف بيتُوفا الدور الذى لعبه تانجمينا. ردوا عليه بأن حكمته لم تعد بحاجة إلى إثبات. بحث عنه ليشكره، لكن منقذه كان قد اختفى.

فى الأتوبيس، تشاجر زوجان بفعل مشاكل تتعلق بالإنجاب. فى النهاية، قررا الأخذ بشهادة راكب.

"لا ينبغى قطع ارتباطكما بسبب الخصوبة، أجابهما الغريب. صحيح أن زواجكما استمر خمس سنوات ولم تُرزقا بأبناء. هناك آخرون يبقون هكذا لعشر سنوات، إلا أنهم لا يستسلمون للتشاؤم. يؤمنون دائمًا بأن الرب سيساعدهم. أقول لكم إذا ما آمنتم بذلك حقًا، فهو ما سيحدث".

أراحت نصائحه الزوجين التعيسين. أما باقى الركاب فسعدوا لأن الهدوء حل بالأتوبيس. مال

شخص على جاره، وهمس بصوت مرتفع ليكون مسموعًا: "هو تانجمينا، أنا متأكد، فقد تعرفت عليه".

سرعان ما التف حوله الناس ليستمعوا لأقواله الطيبة.

عند موقف الأتوبيس، منعت الشرطة المسافرين من النزول. سألوهم ما إذا رأى أحد تانجمينا. قال لهم الركاب إنه نزل لتوه. سألوهم عن الاتجاه الذى سلكه، غير أن أحدًا لا يعرف. باستجواب السائق بدوره، قال إنه ليست لديه أدنى فكرة.

"البعض يقولون إنه رجل عجوز، قال، وآخرون يقولون عكس ذلك، إنه شاب".

فيما يتناقشون، دحرج طفل حقيبة إلى حافة الطريق. إنه تانجمينا الذى تناسخ ليهرب من الكمين. وصلت إليه سيارة تنقل البهائم. أشار لها لتقف. ستقله إلى قرب مسكنه.

الطقس دافئ، تلتهم الماعز والأغنام الأعشاب الندية وسط السافانا. جلس تانجمينا على حَجَر، واضعًا ساقًا على ساق، وقبعته الكبيرة على رأسه كراع وحيد. وحيدًا، يتأمل.

"هكذا! فهذا كل ما أعرفه عن تانجمينا"، أنهت دينيتِى كلامها.

ماذا حل به الآن، سألتها أزفينو.

ليست لدىَّ أدنى فكرة. وأتمنى أن أقابله ذات يوم ليحدثنى قليلاً عن معرفته بالحكمة.

هل يعرف العَم مَآ أين يسكن؟

عندك حق فى توجيه مثل هذا السؤال. علىَّ أن أتحدث معه فى ذلك.

واصلت دينِيتِى سيرها، وسرعان ما وصلت أمام فناء منزل جدها. عادت إلى تذكر صحبة شقيقتها الكبرى، وعمرها سبع سنوات، عندما كانتا تساعدان أمهما فى إدخال الدجاج إلى القن. كانت فى ذلك الوقت تمرح بالجرى وراء البط. كانت تعشق سماع صوت صغار البط. لم تكن الأم موسافو تحب هذه المخلوقات! كانت تقول:

"إنها أقذر طيور فى الحظيرة، بسبب برازها الذى يملأ المكان كله. إنها تستخف بما إذا كنت قد أنهيت لتوى الكَنس!"

كان العَم مَآ يبيع كمية كبيرة منها، لكن عددها لا يتناقص، لأنها ببساطة تتكاثر بسرعة.

وجدت دينِيتِى حقيبة سفر قديمة فى منزل العَم مَآ. فتشتها ووقعت يدها على الخطابات التى كانت تبعثها لها يولا. قرأتها كلها مرةً أخرى. تذكرت من جديد تلك الفترة البعيدة، طلاق أختها الكبرى من ماندوكو، والمشكلة الأزلية للمَهر. هى، على الأقل، أصبحت راهبة، من حسن حظها. "السلام، معركة مستمرة"، تنهدت.

تساءلت عن مصير ساليماتا، مراسلة أزفينو، وقت أن كانت فى الصف الخامس. فتحت دينِيتِى

خطابًا لم تستطع إرساله. الورق مبقع بسبب الرطوبة. كان يُفترض أن تبعثه إلى يولا فى ذلك الحين. قرأت مقطعًا كانت تحكى فيه عن قريتها وعن المدينة.

تقع قريتنا على حافة الطريق. المنازل مستطيلة, مبنية من طوب أحمر ومسقوفة بحديد مموج. المطبخ منفصل عن مكان السكن الرئيسى. قال لى العَم مَآ إن هذا الوضع أنسب حتى لا يسود الدخان ملابسنا. لدينا أيضًا أشجار فاكهة: أشجار المانجو، الجوافة، جوز الهند واليوسفى.. تزرع الأم ماسوفو حديقة خلف المنزل. زرعت فيها الأناناس والخضراوات.

نحن، فى القرى، نظل مرتبطين بمن يكبروننا، لأنهم- طوال الوقت- لديهم ما يعلمونه لنا عن الحياة اليومية. لم يعد لدى أبناء المدن أى حب للحكمة. كما يقال إن بعض الشبان يقومون بأعمال قذرة كموزعى مخدرات لكسب قوتهم.

بالأمس، اصطحبنى العَم مَآ لرؤية ما كان يطلق عليه الجميع، اختراع العصر: المنشار الكهربائى. فى ذلك الوقت، كان النجارون يعدون من أكثر الرجال علمًا. المنشار الكهربائى له خندق كبير يجتازه جذعا شجرة. وكان هناك رجل يقف فى قاع الحفرة ليمسك بالمنشار الذى يسنده نجار آخر. يصعد المنشار وينزل. ومع كل حركة للذراع، يخرج لوح من الجذع. إنها ألواح الخشب نفسها، التى استُخدمت فى بناء منزل العَم مَآ. المعلم موجونجوا قال لنا إن النجارين طوروا المنزل وقاموا بثورة فى العمارة التقليدية.

طوت بعناية الخطاب. والكلمات تتردد فى رأسها. كل شىء جميل وسحرى. وجدت دينِيتى كراسة التعبير التى استخدمتها فى الصف الخامس. تحمل صورة إيروس إله الحب عند الإغريق فى شكل طفل. كانت تحب الكتابة فى هذا النوع من الكراريس. لما أعادت قراءته، شعرت أن شخصًا آخر هو صاحب الكتابة. أدركت أن الزمن أضفى قيمة على نصوصها الصغيرة. تذكرت بانفعال أنها اشترت هذه الكراسة من متجر المسكين توفيق، اللبنانى الذى غرق مع نزينجى. كان يُدعى الأب توفيق بسبب سنه. تذكرت تقاطيع وجه المفرودة وجسده الرشيق. كان يبيع كل شىء. تذكرت دينِيتى أنها فى ذلك اليوم اشترت، بالإضافة إلى الكراسة، قلم رصاص ومسطرة، لكنها لم تكن بحاجة إلى ممحاة، حيث كانت معها واحدة فى حقيبتها.

مرت أمام المتجر الذى أصبح فى حالة بالية تمامًا. لم يعد هناك شىء على الأرفف، وفى الواجهة، وقد غطت أعشاش العناكب الخردة.

## - ١١ -

زارت ابنة العجوز بيتُوفا دينِيتى طلبًا لنصيحتها. بوانجا[1] مسيحية، لكن أباها قرر تلقينها التشيكومبى. فى الإرسالية، قال لها القس إن الزواج الوحيد المعترف به فى نظره هو الزواج فى الكنيسة. فهو يربط الزوجين أمام الرب. وأضاف أنه لن يقبل تزويجهما إلا إذا توقفا عن ممارسة المعتقدات الأرواحية.

أجابتها دينِيتى بأن الزواج فى الكنيسة شىء ممتاز، لكن التقاليد شىء آخر.

قالت بوانجا: "إن رجاء أبى الأكثر إلحاحًا معقود على رؤيتى أمارس هذه الرقصة، لكن ماذا سيفعل الأب بيتُوفا؟ لقد تخطيت سن العذرية. فضلاً عن ذلك، فهو يعرف ديتسوجا[2] ويعلم جيدًا أنى أعيش معه منذ فترة طويلة. أهذه المشكلة لن تعرقل اشتراكِى فى هذه المراسم؟

- كنت أعلم جيدًا أنكِ ستوجهين لى هذا السؤال. فعليكِ أن تفهمى أن والدك متشدد فيما

(١) بوانجا: المراهقة.

(٢) ديتسوجا: حجر المنزل.

يخص الشرف. فهو على علم بعلاقتكما، وينتهز الفرصة ليغسل ما يعتقد أنه عار. في مويل، يقولون إنكِ لست بامرأة حقيقية ما لم تُلقَّنى التشيكومبى. أقاويل لا تشرف أباك.

– أعلم جيداً أن أهل مويل على معرفة بكل شىء، لكن الطقوس ستقام فى ندينڊى. وهذا الاختيار ليس مصادفة.

– فى ندينڊى؟ إذًا، فسيتم ذلك عند شقيق أمك. العَم مَامبو لا يعرف صديقك، وسيُضطَر لقبول هذه الزيجة. فضلاً عن ذلك، فهناك سيدة شابة، تستطيع مساعدتك لمحاكاة العذرية.

تأخر الوقت، وشكرت بونجا صديقتها، وقالت لها إن عليها العودة إلى المنزل، لأنهم سيسافرون– صباح اليوم التالى– إلى ندينڊى.

ديتسوجا ممدد على السرير. لم يغمض له جفن. يفكر فى المحنة التى ستمر بها بوانجا. سمع صرير غلق باب الغرفة. نادت عليه، لم يرد. فهو يفكر فى مراسم التلقين. خلعتِ ملابسها وارتدت قميص النوم. جلست عند الوسادة، وأخذت تداعب شعره. تداخلت الأفكار فى رأس الشاب كأغصان متداخلة وسط كومة أوراق. تحدثت إليه بوانجا بصوت عذب مفعم بالعاطفة. أصبحت يدها أعمق فأعمق مداعبة. لم يستطع مقاومة لمساتها الحنون. جذبها إليه وضمها بقوة بين ذراعيه. تعانقا.

لكن قلقه مستمر. سألها كيف سيتم التلقين. وهى لا تعرف الكثير عن التشيكومبى. لقد خضعت لتلقين أولى عندما كانت أصغر، لكنها لم تحتفظ منه سوى بذكريات ضبابية. حدثته عن حوارها مع دينِيتِى، فطمأنه ذلك قليلاً. تحدثا طويلاً، وفى النهاية نام ديتسوجا.

فى الصباح، استيقظا على صراخ الأب بيتوفَا الذى يصيح برسالة إلى القرية كلها. بصوت جهورى، طلب من الساحر الذى ترك شبحًا أمام باب كوخ العجوز كوكو(*) أن يزيله، وإذا ما استمر فى مثل هذه الأفعال، فلن يتردد فى إحضار من يُلقَّب بـ"التلميذ"، وهو العرَّاف الكبير، الذى استطاع تحريك الجبال بكتاب بسيط على ركبتيه. أهناك فعلاً شىء ما أمام منزل كوكو؟ من الصعب قول ذلك، لكن الناس يظنون أنهم رأوا شخصًا واقفًا فى ساعة متأخرة، وانتابت الكوابيس كوكو طوال الليل. وفى الصباح، بكت زوجته لأنها تخشى الخروج من بيتها.

خلقت رسالة الأب بيتُوفَا تجمهرًا صاخبًا، لكن ديتسوجا ظل يقرأ مقالاً فى الصحيفة عن وفاة باتريس لومومبا. خرجت بوانجا لكَنس الفناء. سمعا طرقًا على الباب. رفع ديتسوجا رأسه وسأل عن الطارق. قالت الأم تشيتولا والأب بيتُوفا له "صباح الخير"، عبر الباب. خرج لمصافحتهما، ثم عاد إلى

(*) كوكو: الغموض.

السرير. فيما بعد، جاءت بوانجا لتوقظه ليأخذ حمامه. انتهى الإفطار، واستعدا للذهاب لنديندى. أعطتهما الأم تشيتولا بعض القواعد ليلتزما بها عند وصولهما.

فى المرفأ، عكف قائد الزورق على إفراغ المياه التى ملأت مركبه. أرجح بقوة الزورق، والمياه التى تروح وتجىء تتدفق على الحواف كموجة تتكسر على صخرة؛ هكذا يفرُغ جزء كبير؛ ثم يتخلص من الباقى بمعونة مجذاف ثم علبة. أخيرًا، طلب منهما أن يضعا حقائبهما فى الزورق. لا تعرف بوانجا كيف. فى النهاية، اطمأن بنفسه على الحمولة. لحق بهم الأب بيتُوفَا، صعدوا جميعًا وتحرك المركب.

عندما يزيد المراكبى من سرعة المحرك، يرتفع الزورق. تشق مقدمته الحادة الماء كحد ساطور. لطخت الأمواج وجوههم، فطلب الأب بيتُوفَا من الملاح أن يقود ببطء.

يصعُب التنقل بلا زورق، وكيف يمكن ذلك؟ المياه فى كل مكان: فالقرى بنيت على امتداد البحيرة. والنسمة الصغيرة التى تهب تتسبب فى تموجات. وطيور جاءت لتستحم كى تتدفأ فيما بعد فى الشمس، جاثمةً على غصن شجرة فقد جميع أوراقه.

مر الزورق قرب صخرة تنبت على رأسها باقة من السرخس ونخلة ضامرة؛ كيف ستجد ما يساعدها على النمو على هذا الصخر؟ تطير نسور البحر بشكل

دائرى فى السماء الزرقاء. أحيانًا ما تنزل بسرعة خاطفة لتقتنص فى طيرانها سمكة تسبح قرب السطح.

هذه أول مرة يسافر ديتسوجا فيها سفرًا طويلاً بامتداد البحيرة. لا يشعر بالطمأنينة، وخاصة أن الرياح قوية. قيل له ألا يخاف. يقرأ المسافرون البهجة على وجوه الأشخاص، الذين يقابلونهم طوال الطريق. من كل مكان، تأتى صيحات ونداءات. توقفوا فى جميع القرى التى يمرون بها لتحية الأهل والأصدقاء. على حوائط بعض البيوت صور المرشحين فى الانتخابات الأخيرة. حدثهم الأب بيتُوفَا عن الموت المأسوى لمهندس من صفوف المعارضة مات بسبب أفكاره. فقد تم جلده، هو وزوجته.

ما إن وصلوا إلى نديندى، حتى استحوذت نساء القرية على بوانجا. أحطن بها ثم أخذنها إلى حجرة أعددنها لها فى منزل العَم مَامبو. وضعن بها الحصير وسلال خوص ممتلئة بالطعام ومساحيق التجميل.

وضعن لها زينةً جميلة. غطين وجهها تمامًا بالصلصال. ارتدت بوانجا لآلئ وتنورة كبيرة. حول ذراعيها ورقبتها أساور. وفيما ترتدى سروالاً داخليًا صغيرًا، كان صدرها مغطًى بحلية من الخوص، وهى نائمة على حصيرة، وتغطى رأسها طاقية صغيرة. عندما أصبحت جاهزة تمامًا، استقبلت زيارة النساء الناضجات.

عندما انسحبن، بقيت فى الغرفة تحت أعين شابات من نفس عمرها، مسئولات عن إحياء المراسم. تراقبها سيدة عجوز تلعب دورًا مهمًا. وظيفتها تعليم بوانجا. تعلمها الزرع والعزق والحصد، والمحافظة على نظافة جسدها.

من يسمونها الآن التشيكومبى تأكل فى الغرفة خلال المراسم التى تتواصل لمدة أسبوعين. جاء لزيارتها صبيان. فهذا التواصل يهدف إلى تعويدها على أصدقائها من الجنس الذكورى. تأملوا زينتها وجسدها الجميل. أحضروا لها هدايا من كل نوع. وقضت الليلة مع عرَّابتها.

فى آخر يوم، زميلاتها هن من بدأن الرقصة. شرعن بخطوات فى الفناء ليتأكدن أن المساعدة على استعداد لاستقبالها. مع نهاية هذا الاستعراض، تحركن نحو الغرفة ليأتين بالملقَّنة. لما ظهرت، صفقن لها بحرارة بالغة. ترتدى حول خصرها تنورة قصيرة من الخوص، تُسمَّى "النجومبو". بدأت بالخطوات التى تعلمتها لتوها، على وقع "التَّام-تام". رقصت على ركبتيها مع تحريك أردافها. تصف الأغانى والإيقاع أنشطة المرأة بالمنزل. برعت بوانجا فى رقصة التشيكومبى.

أحس الأب بيتُوفا بالفخر تجاه بوانجا، فكم هى جميلة بالقناع، وترقص ببراعة.

جلس ديتسوجا على جذع شجرة، ويده على خده. يشاهد الرقصة. قلقًا من بقية المراسم. اقترب منه

عجوز يتكئ على عصا، ويدخن غليونًا ويقلب مقلتيه الجاحظتين. وضع يده على ردفه.

"صباح الخير يا بنى!"

– صباح الخير، يا أبى!

– أنت غريب هنا، أليس كذلك؟

– لقد خمَّنت عن صواب.

– فهل لى أن أعلم لماذا أنت هنا؟

– أنا من سيتزوج غدًا التشيكومبى.

– آه! ستتزوج من ابنة الأب بيتُوفا غدًا؟ قالها وهو ينفجر بالضحك.

ضحكة ساخرة، فتزايد شعور الشاب أكثر فأكثر بالخوف.

"نعم، يا أبى. ألا تريد بعض التبغ؟ معى أوراق تبغ أحضرتها من المدينة.

– أحتاجها يا بنى! شكرًا، أنت لطيف. فبفضلك لن أضطر للتقليل من شأنى فى هذه القرية لأطلب التبغ. أأنت على علم بمشاكل المنطقة؟

– لا! لماذا؟

– أأنت وحدك هنا؟

– أنا وحدى، ليس معى أى قريب.

– لا أفهمكم، أيها الشبان. فعندما نتزوج امرأة، فلابد على الأقل من تواجد فرد من عائلتك. فثمة

أشياء غريبة تقع فى قريتنا. لن تستطيع التخيل. أنت أصغر عريس جاء إلينا وحده، ضمن عدد لا يُحصَى. أنت وسيم ولطيف حقًا. وقد قررت أن أقدم لك خدمة كبيرة. سأخبرك بشىء، فهنا ثمة امرأة تتحول إلى رجل. وهى التى تتزوج الشابات الملقَّنات للتشيكومبى. فهناك الكثير من الشبان ممن لا يستطيعون إظهار ذكورتهم ليلة الزفاف. وهذه المرأة، التى تتجلى فى شكل رجل، تخيف العشاق وتصارعهم حتى تهزمهم، ثم تطاردهم بالسياط لتمضى الليلة مع الزوجة. ولابد للتعساء من الفرار من خطيباتهم. فإذا أردت أن تعامَل زوجتك باحترام، فعليك أن تأخذ هذا العشبة التى تركها لى جدى. ستحرقها فى غرفة الزوجية، فتُبعد رائحتها الساحرة.

تساءل ديتسوجا: "أهذا العجوز هو ذاته المرأة التى تبث الرعب بين القرويين؟ ولماذا باح لى بذلك؟"

عند حلول الليل، أصبح الصخب مدويًا، وتصاعد أكثر فأكثر قرع الطبول وأغانى الزفاف. خفق قلب الشاب بقوة. "كان أبى يقول لى إن اللطف والغزَل يستطيعان مساعدتى على اختراق الأسرار الخفية عندما أكون لدى غرباء".

تحسس جيبه، لا تزال العشبة موجودة. رفع نظره إلى السماء. تضرع إلى الرب ليهب إلى نجدته. فهو لا يريد خسارة حياته أو تلك المرأة الجميلة. تذكر ديتسوجا أنه حين تعلم رقصة المويرى، علموه كيف

يتحكم فى خوفه. علمه المداوى كيفية التحكم فى الذات، وهى لب هذا التعليم. فإن لم نستطع التغلب على صعوبة بسيطة، من بين المشاكل التى نواجهها فى حياتنا اليومية، فذلك يرجع إلى شعور بخوف مسيطر. حقًا، الخوف من الحديث مع غريب، مصافحة العدو- لا نعرف دائمًا ماذا أعده لنا- والخوف من المجازفة بالحياة فى شراكة جديدة. "كيفى نا مانجونجو، ديبوكولا" قالها وهو يضع يده اليمنى على أعلى ذراعه اليسرى ليقسم باسم المويرى. وجد ديتسوجا أخيرًا القدرة على التحكم فى الذات التى اكتسبها أثناء ذلك التلقين.

فجأة، ظهرت بوانجا، تصحبها سيدة التشيكومبى. تقدمت على الحصير بخطوات بطيئة، مثبتة نظرتها على الأرض. ترتدى بلوزة بيضاء وتنورة بلون أزرق نيلى. دُعى ديتسوجا الذى دخل بدوره. وجد سريرًا معدًا جيدًا. ومصباح عواصف، ذا إضاءة منتشرة، يضىء الغرفة. للشابة- وقد تعطرت- رائحة الورد. أدخل يده فى جيبه وأخرج العُشبة. طلب من بوانجا أن تغمض عينيها.

"لماذا أغمض عينَى؟" ردت.

- علينا إنقاذ ارتباطنا بأن نطلب من الرب حمايتنا، لأن هذه القرية بها ساحرة تتحول إلى رجل وتدخل منزل الزوجية لتزعج العرسان. فضلاً عن ذلك، أشعر أنها ليست ببعيدة، لأنى لست على ما يرام.

أغمضت عينيها، ثم تليا صلاة معًا. أطفأ النور، وحك عود كبريت مرتين. أحرق هذه النبتة السحرية، وسرعان ما انتشر بالحجرة عبق ذكورى، وعادت فجأةً ذكورته. أغلق بعناية الباب بالمفتاح. أحست زوجته أيضًا بالعطر الذى ينتشر بالغرفة، فتحت عينيها واقتربت من زوجها الذى أحاطها بذراعيه، فيما تحولت الساحرة بالفعل إلى رجل بالخارج. حاولت فتح الباب، لكنها شمت رائحة العُشبة السحرية. رغم كل جهودها، لم تفلح فى الدخول لتحل محل الحبيب. وهبت ريح قوية على القرية كلها.

رأت بوانجا حلمًا أخذها إلى جزيرة عجيبة، استقبلها أهلها بحرارة، وأعطوها فيلَين كوسيلة انتقال. خشيت بوانجا ركوبهما، أقنعوها. أراها الناس كيفية التحكم فى هذه الحيوانات. هكذا طافوا بطرقات تحفها أشجار الجوز والشورى. وصلوا أمام معبد مبنى من جوز الهند، وسقفه من القش.

ثمة ملكة، جميلة بلآلئ حول رقبتها وأساور ذهبية حول قدميها، كانت تجلس على مقعد وثير يحرسه شابان مسلحان برماح. نصفهما الأعلى عارٍ ويرتديان تنورتين حول خصريهما. قدم ديتسوجا وبوانجا التحية بإجلال للملكة، ثم أخبراها بسبب زيارتهما. كانت سعيدة برؤيتهما. نادت على خادمة جاءت لهما بماء ليشربا فى أكواب على شكل جوز هند. أغرقوهما بالهدايا، ودلوهما على منزل ملىء

بالكنوز. وهناك قضت بوانجا الليل مع حبيبها. لكن حلمها انتهى بشكل فجائى لما دفعها ديتسوجا. فتحت عينيها؛ طلع النهار؛ وسمعت أولى صيحات الديك.

جاءت سيدة الشعائر لتأخذ ملاءة السرير، لكنها فوجئت بوجود مسخ أمام الباب. له جسد رجل ووجه امرأة. نادت على ديتسوجا. خرج. أقسم مرةً أخرى بالمويرى، قوَّى عضلاته، ونفخ صدره، تحول إلى عظاءة وخاض معركة شعواء مع الوحش الذى هرب.

لطخ الحبيبان ملاءة السرير بدم دجاجة أحضرته لهما سرًا زوجة العَم مَامبو. خرجت العروس بدورها، سعيدةً بنجاحها فى إنقاذ كرامتها. لاقت ديتسوجا وهو فرح: لم تستطع المرأة ذات الأشكال المتعددة تحقيق غرضها. دوت الهتافات وتواصل الاحتفال بقوة.

أهدى الأب بيتُوفا إلى الشاب كبشًا ليعيد بوانجا إلى الزفاف. واستمرت البهجة بضعة أيام أخرى.

ليلة رحيلهم، أُعدت مأدبة كبيرة فى ساحة القرية. خفق قلب الجميع لهذا الارتباط، دون إدراك أن شرف الزوجين قد استُنقذ بفضل حيلة.

فور الزفاف، رحل ديتسوجا وزوجته إلى "بُووِى"، بشمال البلاد، حيث يعمل بشركة السكك الحديدية.

تأثر العَم مَآ عند علمه بوفاة ماندو، ثم وفاة ماكيكى. صحيحٌ أنه لا وجود لموتٍ صغير، فالموت- كما يُقال- واحد فى جميع الأحوال، لكن فقدهما لم

يعتصره بصورة موجعة مثلما سيحدث مع وفاة ديتسوجا وبوانجا. وإن كان العَم مَآ قد تأثر بشدة من وفاتهما، فذلك لأنه لا يجد الكلمات لوصفها.

بعد بضعة شهور من التلقين، عاد الزوجان ليمضيا الإجازة بالقرية. فى اليوم التالى لعودتهما، عانى ديتسوجا من مرض عجيب. لم ير العَم مَآ أبدًا أحدًا يعانى مثل هذا الألم. أصابته الحُمَّى، وأحيانًا ما تقيأ دمًا كان يخرج من منخريه وفمه. تغير ديتسوجا فى ثلاثة أيام، تمامًا كزوجته التى تشاركه ذات الغرفة وذات السرير. وأدت إلى هزالهما الحُمَّى، والإسهال والقىء.

اتصل العم مَآ هاتفيًا بدينِيتِى. فهى الأكثر تأهيلاً فى أهل القرية. طلبت منه ألا يلمس أحد المريضين، لأن الأطباء أعلنوا فى الراديو أن الحمَّى النزيفية- المُسمَّاة الإبولا- قتلت عائلات بأكملها فى شمال البلاد. بلا إضاعة لحظة، طلبت من الطبيبة مرافقتها إلى مويل. ورحلتا فى نفس اليوم.

تملك الخوف العَم مَآ. ما إن وصلت دينِيتِى، حتى تفقدت مويل من أقصاها إلى أقصاها. بمعونة حفيدته والطبيبة، طلب من كل عائلة اتخاذ كل الاحتياطات اللازمة ليتم حصار هذا المرض. لكن نصائح دينِيتِى يتم الاعتراض عليها فى القرية، بسبب التقاليد التى تفرض على أفراد الأسرة ملازمة المريض. وأول المعارضين الأم تشيتولا الدامعة. فهى لا تستطيع ألا تحرك ساكنًا إزاء مرض أبنائها.

يثق العَم مَآ بحفيدته. بمساعدة الأب بيتُوفَا، قرر نقل المريضين إلى المركز الطبى، لكنه تحت التجهيز، ولم تتأخر وفاة المريضين.

انتشر الخبر فى القرية كنُثار بارود. تملك الهوس الأهالى.

رغم حظر التنقل، تركت عائلة بيتُوفا منزلها لتجد ملاذًا فى قرية مجاورة. جاءت دينيِتى بالأجهزة الطبية لتطهير أكواخهم. وبرغم نصائحها هى والطبيبة، فلا يعتقد البعض أن هذه الحُمى قادرة على الانتشار بين الناس بالملامسة. جمعتنا كل مَن اقتربوا- من قريب أو بعيد- من ديتسوجا وبوانجا. ومُنع أهل مويل حتى من مصافحة الغرباء.

لم يهدأ غضب الأم تشيتولا. كيف يمكن منعها من بكاء موتاها بلمس أجسادهم؟ لا تكف الأسئلة عن تلك العادات الجديدة التى تنتشر مع تحلل العادات. وعندما سألوا دينيِتى عن الإبولا، قالت إنه فيروس يظهر فى مناطق الغابات، حسب الأبحاث المستخلصة من هنا وهناك. أهذا حصاد الرذيلة؟ لم تجد إجابة على هذا السؤال. لابد من الصلاة فحسب، ذلك ما استطاعت أن تقول لهم.

لكن كثيرين يرون أن هذا من فعل الساحر. قرر الأب بيتُوفا طلب "التلميذ"، وهو عرَّاف لا يُقهر. أقام بالقرية أيامًا كثيرة. أعد احتفالات طقسية لاكتشاف مَن ألقى بالتعويذة الشريرة. لكنه لا يملك الوسائل

اللازمة لإيقاف هذا المرض الجديد. والأسلاف أيضًا يبحثون عن علاج يُجنب شعب مويل هذا الخطر. كل ما يملك فعله هو أن يطلب منهم الإنصات إلى نصائح دينِيتِي والطبيبة.

رغم الاحتياطات، انتشر الوباء. تناوبت المرأتان- ليل نهار- لإنقاذ المرضى. فى عدة مرات، أحستا بأنهما على وشك التهاوى من الإنهاك. أثارت دينِيتِي إعجاب القرية كلها، بفضل شجاعتها وإخلاصها. ففى نظر الكثيرين، هى رمز المرأة المتعلمة فى المنطقة.

## ١٢

اقترب يوم الاحتفال الكبير الذى ستعلن فيه حفيدته نذورها، وقرر العَم مَآ تقديم دينِيتِى إلى جميع أفراد العائلة. استُقبلت فى كل مكان بحرارة بالغة. عند وصولها، ارتمى الجميع عليها ليعانقوها. انقضت بنات أعمامها على حقائبها ووضعوها فى غرفة. وعلى وجوه الجميع ترتسم ابتسامة.

أخذت دينِيتِى تانتين الصغيرة على ركبتيها، وراحت تنظر إليها من حين لآخر. لم تعرفها الفتاة، ولا تبكى، لكنها تحاول التملص من أيدى تلك الغريبة.

"فهمت أنكِ خائفة منى، قالت دينِيتِى. هيا، فأنت ناعسة بالفعل، فاذهبِى لتنامِى. سنعتاد سريعًا على بعضنا فيما بعد".

- أترفضين البقاء مع العمة دينِيتِى؟، سألتها أمها.

هزت تانتين كتفيها. استيقظ العم ثيو وجاء فى التو ليصافحها.

"أهو الوصول، عم مآ؟"

نعم، أجابه.

كنت نائمًا لأنى سهرت طوال الليل. فأنت تعلم، هذه نهاية السنة الدراسية، فأشعلنا نار مخيم فى المدرسة؛ قال ثيو.

أكانت عملية ناجحة؟

نعم، أظن أننا نستطيع أن نتحدث عن نجاح، فلم يكن سهلاً تجميع الكُل هذا العام. اشتركت جميع المؤسسات. أيضًا حضر المسئولون. من حسن الحظ، تم كل شىء بهدوء. فضلاً عن ذلك، فقد أنهينا السهرة فى السادسة من صباح اليوم! أما بالنسبة لى، فلم ينته الأمر، ففى الساعة السابعة، ذهبت إلى "سوكوما" لزيارة أصدقاء! ولم أعد إلا فى الظهيرة. ولم يكن لدىَّ حتى الوقت لآكل.

متى سيتم الإعلان عن النتيجة؟

سنعلنها الأحد.

وهل أنت راضٍ؟

أبناء أخيك تعلموا جيدًا. أما أنا، فحصلت على أعلى نسبة نجاح هذا العام. لقد تخطيت الرقم القياسى لإدارة منخفض بانيو!

جئت لأعلن لك ترسيم دينِيتِى الذى سيتم خلال شهرين. ستصبح راهبة. وستكون مفخرة لعائلتنا.

لست عظيمًا ولا بدينًا، لست ثريًا أيضًا؛ لم يوفقنى الحظ فى أن أجمع ثروة مثل البعض؛ ولن

أسرق لأصبح ثريًا، فستجدنى دائمًا هكذا، مدرس أول بسيطًا. ولكنى سعيد بأنكِ جئتِ لتخبرينى. دينِيتِى، أنتِ مفخرة لعائلتنا.

فى الصباح، وفيما كانت دينِيتِى تتلو صلاتها، ظل العم ثيو يروح ويجىء فى الفناء، وفى يده كتاب. يرتدى قميصًا فضفاضًا بسيطًا. يتوقف أحيانًا، يضع يده على خده؛ تلك شارة تعنى، لديه، أنه يفكر أو يحلل فكر الكاتب. وكثيرًا ما يفتش عن موجزات تربوية. فالقراءة هى قهوته اليومية.

العم ثيو متعدد الزوجات. ورغم رفض دينِيتِى التام لذلك، ربما لأنه ضد قوانين الكنيسة، إلا أنها تعترف أنه يدير أسرته بكثير من البراعة. بطريقة ما، لا تستطيع أن تمنع نفسها عن الإعجاب به. فهو دائمًا ما يحاول ألا ينحاز لإحدى زوجاته ويظل محايدًا.

أمن السهل حب شخصين فى آن واحد؟ لا شىء أقل تأكيدًا من ذلك، غير أن العم ثيو يعيش تعدديته وكأنه حَكَم فى ساحة لعب. فأحيانًا إذا ما غضب من واحدة، يميل ناحية الأخرى، لكن هذا الوضع لا يدوم.

أبناؤه الكثيرون لديهم مهام متحددة حسب أعمارهم وجنسهم. كل شىء مخطط وفقًا لجدول صارم. الأبناء ينظفون الفناء ويقومون بخدمات عديدة، أما البنات فمسئولات عن بقية أعمال المنزل. هى طريقة ليجعل منهم أشخاصًا مسئولين.

أعمال أبنائه منتقاة، لأنه يعتقد أنها ستعلمهم الشجاعة والبسالة والإرادة، وروح القتال، والتعطش لتخطى الصعاب، والإقناع. وبالطبع، فكل ذلك يطرح للنقاش مبدأ المساواة بين الجنسين. وليس العم ثيو معارضًا- بصورة جذرية- لأفكار تحرير المرأة، لكنه- فى هذه المسألة- متفق مع العَم مَآ الذى يرى أن تقسيم الأعمال بين الأولاد والبنات يمثل أفضل طريقة لإعدادهم لمهامهم المستقبلية. ويريد ثيو أن يغرس فيهم روح الأخوة وحِس التضامن.

هو قبل كل شىء رجل متسامح للغاية. ولديه نظرة متساهلة تجاه الجميع.

وكل مساء، يحكى تفاصيل يومه كلها لأفراد أسرته. هكذا علم العَم مَآ ودينِيتِى بكل شىء، حتى أدق التفاصيل. توقف زميل لتحية العم ثيو.

"تيجسون! أقدم لك ابنة أخى دينِيتِى! فهى تنتمى الآن إلى أبرشية "الراهبات الزرق" بنزومبِى. وقد جاءت لزيارتى مع جدها.

أيتها الراهبة، أنا والعم ثيو لسنا سوى معلمين بسطاء. نحن نُعد الأطفال على أمل أن يصبحوا أفضل منا فى الغد. ألا ترين وجهى؟ لقد ابيض من الطباشير.

انفجروا بالضحك.

أجبرت الحرب الأهلية فى أنجولا يولا على النزوح. فإذا ما جاءت إلى نزومبى لاستكمال دراستها،

فذلك بفضل خطاباتها المتبادلة مع دينِيتِى. منذ أعوام، حلمت بالتعرف على هذا البلد الهادئ والمزدهر الذى وصفته لها صديقتها البعيدة. اليوم، أصبحت معلمة لغة إسبانية بمدرسة ثانوية. علمت بالصدفة أن فتاة تُدعى دينِيتِى ستصبح عما قريب راهبة. لم تصلها منذ فترة طويلة خطابات من صديقتها. وظنت أنها بالتأكيد فتاة أخرى. تحدثت عن ذلك مع ساليماتا، وهى صديقة طفولة تعمل بجمعية خيرية تدافع عن حقوق الطفل، وحكت لها أنها قابلت صديقتها بالمراسلة، أزڤينو، خلال أيام "الطفل الإفريقى". تحدثتا عن دينِيتِى، وكانت على دراية بترسيمها الدينى القريب. وقررت يولا وصديقتها حضور المراسم.

"أمن الممكن القيام الآن بزيارتها؟" سألت يولا.

من الأفضل انتظار المراسم، فستصبح مفاجآتها أكبر. لكن، إن أردتِ، فسأعرفك بأزڤينو. أعتقد أن دينِيتِى حدثتكِ عنها.

أعتقد ذلك، إن لم تخنى ذاكرتى، لكنك تعرفين، كان ذلك منذ فترة..

هو بالفعل شىء لا يُصدق، أن نتواجد جميعًا هنا. الرب عظيم. فقد جمعنا كلنا فى هذه المدينة.

حل شهر أكتوبر؛ انتهى العَم مَآ من الأعمال الزراعية، على الأقل المهمة الأكثر مشقة: قطع وعزق الجذوع فى حقول الفول السودانى. أما فخاخ الحماية

من الحيوانات، فسيضعها فى وقت لاحق. فهو ينتظر أن تثمر النباتات ليضعها حول الحقول.

خلال هذا الوقت، تهتم النساء بالغرس والبَذر. يحملن الفسائل من ناحية إلى أخرى، أحيانًا على مسافات متباعدة جدًا. ومنذ شهر، تعيش الأم موساڤو وصديقتاها تشيتولا وتشيبيندا فى مخيمهن. وبالنهار يعملن فى الحقل.

عبرت الأم موساڤو حقل الفول السودانى، وهى تصفر، والفأس فى يدها. تأملت بعض النباتات التى تفتحت بالفعل، وانحنت لتغلقها، لأن الطيور تنبشها. "لو لم أفعل، لاستمتعت بها طيور الحَجَل"، قالت لنفسها. سمعت ما يشبه ضربات فأس على جذع شجرة. اعتدلت وأرهفت السمع. تزايد الصوت بانتظام. فكرت أنها ربما تكون الأم تشيتولا. لابد أنها عادت من النهر بعد معاينة الشِّباك. رفعت غصن شجرة ميت وقع على ثلاثة نباتات فول سودانى، ثم صاحت فى اتجاه الغابة:

"أوه! أأنت، يا أُم تشيتولا، مَن تقطعين الخشب؟

- نعم، أنا.

- إذًا هكذا، عُدتِ حقًا؟ قالت وهى تقترب.

- نعم عدت، لأنى لم يكن لدىَّ شىء: الشباك زارها السلطعون أو تمساح. وأنا أقطع الخشب، لكن لطهى السمك الذى اصطدته الأسبوع الماضى.

– ترين كيف نما الفول السودانى والذرة. أنا سعيدة بحق.

– إنها تمطر فى هذا الوقت، ولذا بدأت فى التفتح. ألاحظتِ أن شجرة المانجو والأفوكادو اللتين تقعان بالمخيم القديم تحملان ثمارًا ضخمة؟ سترين أن أشجار الفاكهة ستنتج الكثير هذا العام.

فجأةً، رأت الأم موسافو جرادةً التصقت بتنورتها.

"لدينا زيارة بالقرية، لأن هذه الدابة حطت علَىَّ".

سرعان ما سنعرف إن كنتِ على حق، قالت تشيتولا؛ انظرى مَن جاء لزيارتنا. آه! سامبا! سامبا! اقترب! أجئتَ وحدك؟ وأين ماكوسوُّ؟

هو مع العَم مَآ، رد الصبى. بقيا على حافة النهر ليتفقدا الفخاخ. وقد أرسلنى قبله.

أهناك مشكلة فى القرية؟

لا! لا مشكلة. الجميع على ما يرام، بفضل الرب. لقد أتينا ببساطة لنخبركما أن دِينِيتِى عائدة. فينبغى أن تعلن نذورها فى نزومبى، خلال أيام.

عند إعلان هذا الخبر، جرت الأم موسافو مسرعة لتلحق بالطفل. كانت سعيدة وطلبت منه إعادة الرسالة. غنت ورقصت المرأتان. أطلقتا صرخات فرح لدرجة أنهما لفتتا انتباه الأم تشيبيندا التى صرخت بدورها، من الفزع، لاعتقادها أن سوءًا حل بالقرية. دعتها الأم موسافو للحاق بهما لسماع الأخبار الطيبة

عن دينيتِى. وصلت تشيبيندا ببطء، وضعت ساطورها وفكت تنورتها وأعادت ضبطها، لتجلس على جذع شجرة. أخذت نفسًا عميقًا لتشعر بالراحة: فالصراخ الذى سمعته لتوها أرعبها إلى حد أنها لا تزال ترتعش. أخذت غليونها، أشعلته، وأطلقت نفَسًا فيما كانت أغانى السعادة تنطلق مرة أخرى.

اقترب ماكوسُّو، ضحك لدى رؤيته أمه وجدته مغمورتين بالفرح. قرعتا على جذع شجرة كبيرة لإعلام الجيران. هدأتا أخيرًا. شرحتا للأم تشيبيندا سر بهجتهما. بل نسيتا وجود العَم مَآ الذى وصل لتوه.

قال لهما: "أقول لكن صباح الخير".

مندهشات، أجابت النسوة معًا: آه؟ صباح الخير!

لقد وصلت فى الوقت المناسب. فقد وجدت تمساحًا فى فخى. تظاهر بالموت وطفا فوق سطح الماء، لكنه لم يخدعنى، فاخترقته برمحى.

– أنت محظوظ، يا عَم مَآ. فأنا لم أجد شيئًا فى شباكى هذا الصباح؛ ردت الأم تشيتولا.

أخذن سلالهن وتبعن العَم مَآ حتى شاطئ النهر. كان التمساح ممددًا بطوله فى الماء. ربطه بنبات متسلق، وشده إلى الشاطئ حيث قطَّعه. مزودين جيدًا باللحم، عاد العَم مَآ وأسرته إلى المخيم. لديهم بالكاد الوقت لتناول الطعام قبل الذهاب إلى القرية. غمرت الجميع الفرحة لمعرفة أن العَم مَآ قد قتل تمساحًا. قسَّم الأب بيتُوفَا الصيد، وأعطى نصيبًا لكل عائلة.

اقترب يوم الحفل. جمع الأب رولان رعيته، ومن اجتماع لاجتماع، من بروفة لبروفة، التهمت ترتيبات الحفل كل وقته. وكل يوم يعدون برنامجًا غير الآخر، وهناك دائمًا مَن يُضاف ومَن ينسحب. ورعايا الكنيسة يحسون بثقل هذا الحدث الذى يستحوذ عليهم منذ شهر.

ارتدت كاتدرائية القديس يوسف بنزومبِى ثوبًا جديدًا: نُظفت الممرات ذات الأزهار، أعيد طلاء الحوائط، جُزت الحشائش. وتمثال العذراء المنصوب وسط الكاتدرائية يلتمع كالفضة الصافية. والنخيل المزروع بشكل متلاصق تم تقليمه، وطُليت سيقان الأشجار بالأبيض. والطريق المؤدى إلى الكنيسة تزين أيضًا، يحفه الحصى الملون بالأخضر والأصفر والأزرق. الإرسالية بأكملها نظيفة، وتنتظر على قدم وساق المدعوين المختلفين.

لم يركن العَم مَآ للراحة. وصل ليلة المراسم فى سيارة مع عائلته. توجه على الفور إلى الإرسالية؛ حيث حجز له الأب رولان بعض الغُرف. ذهبت دينِيتى للقاء أهلها ما إن وصلوا. رافقتها الراهبة الأم. تعانقوا وتحدثوا عن الحياة فى القرية. تم السؤال عن صحة الجميع. أخبرهم العَم مَآ أن يآ دونجوت لن يستطيع المجىء: مرضه شديد.

من ناحيتها، كانت يولا سعيدة. كانت بالغة التأثر بفكرة لقاء الفتاة التى لا تعرف عنها سوى خطها.

ذهبت إلى صالون الحلاقة لتبدو أجمل فى الغد. وجدت هناك ساليماتا بصحبة أزڤينو. وفيما كانت الحلاقة مشغولة بشعرها، حدثتها أزڤينو مطولاً عن المراسلة التى أرسلها المعلم موجونجو إلى مدرستهم. كان لديه هدف محدد: سيسمح لهم هذا التبادل بأن يفهموا ويقدروا بعضهم البعض.

تضفر الحلاقة شعر يولا ببراعة. نظرت يولا إلى نفسها فى المرآة الموضوعة أمامها، التفتت يمنةً ويُسرة، ولاحظت شيئًا فشيئًا أن التسريحة تعطيها انطباعًا خادعًا بأن شكل وجهها قد تغير. خرجت من الصالون متألقة الجمال.

فى الصباح، استيقظ العَم مَآ على صلاة التباشير. ذهب بصحبة عائلته إلى الكنيسة، التى زينوها بسعف النخيل. أطفال صغار متأنقون يبيعون نصوص الترانيم، وكتب القُداس والتسابيح. فى أعلى درجات السلم المؤدى إلى المدخل الرئيسى، قابل أزڤينو ومعها فتاتان. من الواضح أنهن ارتدين أفضل ثيابهن. انتظرن بدء القُداس وسط جموع الرعايا وقد غمرتهن الفرحة.

قدمت أزڤينو ساليماتا ويولا إلى العَم مَآ، لكنه- تمامًا كالأم موسافو - لم يعرهن اهتمامًا. فكل اهتمامه منصب على اللحظة المهمة التى سيشهدونها حالاً. فهى المرة الأولى التى يشتركون فيها بمثل هذه المراسم. أحس العَم مَآ بقلبه يخفق. تساءل عما إذا سيُضطر للتحدث أمام هذا الجمع. ألقى نظرة على

ملابسه، وعدل قبعته. وقعت عيناه على ابتسامة يولا التى تزيل خيطًا من فستانها.

قُرع الجرس للمرة الرابعة، ودخل جميع الرعايا المحتشدين فى الفناء إلى الكنيسة. سمع العَم مَآ عزف الأرغن، أحس بأن الموسيقى تأخذه إلى عالم آخر. تملكه الخوف. وتذكر يوم تعميده.

أمامهم تقدمت دينيتِى محاطةً بالراهبة مارتينا والراهبة الأم والراهبة المديرة. لا يرى العَم مَآ سوى حفيدته، كأن باقى الديكور والقسيس بلا أهمية فى نظره فى هذه اللحظة. غمرت الأغانى والرقصات الكنيسة، التى تحولت إلى ساحة كبيرة لحفل إفريقى.

قدم القس عظته، ثم بدأت الراهبة الأم الطقوس النهائية للرهبنة. ثبت العَم مَآ نظره على دينيتِى عندما أخذتها الراهبات الثلاث إلى المذبح لتنطق نذورها أمام الحضور، مثلما فعلت منذ بضع سنوات أمام الراهبة الأم. حكت حفيدته المراحل التى أوصلتها- شيئًا فشيئًا- إلى هذا اليوم العظيم. لم تُخف الصعوبات التى واجهتها خلال تأهيلها، ولم تنس شكر الرب الذى قاد خطاها لتتمكن من إكمال دراستها. توجهت أيضًا بالشكر إلى كل مَن أسهم- من قريب أو بعيد- فى نجاحها. وعندما أنهت حديثها، مسحت الأم موسافو دموعها بمنديلها: بكت من الفرح.

بعد ذلك، جاء دور الراهبة مارتينا وثيقة الصلة بعائلتها:

"كما سمعتم بأنفسكم، وافقت دينِيتِى على خدمة المسيح. من خلالها، كُرمت سلالة الكالباس كلها، وبالأخص العَم مَآ الذى فعل كل شىء ليسهل لها طريقها. لقد وُلدت دينِيتِى فى مويل من أب وأم من البونو. كبُرت وسط التقاليد المسيحية، لأن جدها العَم مَآ، الحاضر هنا، اعتنق هو نفسه الدين الذى أسسه يسوع المسيح. لقد درست فى مؤسسات كاثوليكية. وعندما أتت إلى المدرسة الإعدادية، عاشت فى الدير، وهنا وُلدت من جديد باستقبالها الروح القدُس. وما إن أحست بالإيمان العظيم بالمسيح، حتى فتحت قلبها للراهبة الأم. تم تأهيلها هنا، ثم بمدرسة التمريض، حيث أكملت دراستها كممرضة. فلماذا هذا التأهيل المزدوج؟ لأنها تعتقد أنه يجب مساعدة أقربائها فى التمتع بجسد طاهر ليتمتعوا بروح طاهرة حقًا. ذلك هو السبب الرئيسى. الذى دفعها لتصبح ممرضة. وندعو الرب ليمدنا براهبات وقساوسة جدد لكنيستنا. فلنُصَل من أجل أن تُكمل الراهبة دينِيتِى مهمتها تحت الرعاية العطوفة ليسوع المسيح".

بعد الصلاة، ساعدت الراهبة الأم دينِيتِى فى ارتداء الملابس الجديدة للراهبة.

احتشدت جموع غفيرة من الرعية لتحيتها. حيوا فيها التواضع الذى أعلنت به نذورها، وشجاعتها وإنكار ذاتها، رغم كل الصعوبات التى واجهتها خلال طفولتها. حصلت على هدايا كثيرة. تأثرت الأم

موسافو والعَم مَآ- بشكل خاص- وقت تقديمهما الهدايا لدينِيتِى.

عند الخروج من القداس، توجهت أزفينو للقاء دينِيتِى لتقدم لها يولا وساليماتا. اضطربت الراهبة الجديدة بهذا اللقاء. فهى أول مرة ترى فيها يولا، وانبهرت بهذه الشابة الطويلة، الأنيقة والمثقفة. احتاجت لبعض الوقت، لتفيق من اندهاشها الذى يشكل صفحة جديدة فى تاريخ هذه المراسم. تكلمتا عن صداقتهما القديمة. ذكَّرت دينِيتِى الأم موسافو بقصة الخطاب الذى كتبته إلى يولا. فجأةً، تذكرت أمها، كأنها عادت سنوات إلى الوراء.

"حقًّا، كانت تعلق أهميةً كبيرة على مراسلتك وصداقتك. وكثيرًا ما سألتنى عن الوقت، الذى يستغرقه الخطاب ليسافر بين بلدكم وبلدنا. لكن كل هذه السنوات مرت دون أن تخطر ببالى فكرة أنى سأقابلك ذات يوم. الآن فقط، تذكرت ما قالته لى فى أول يوم تلقت عنوانك: "أمى، سترين يولا هنا". ودِينِيتِى، والدموع تغطى وجهها، تحتضن يولا بين ذراعيها.

دخل العَم مَآ بدوره. هو الآخر أعد مفاجأة: فهو بصحبة ماندوكو وتانجمينا. سعدت دينِيتِى برؤية زوج أختها، وخاصة أنه تغير كثيرًا منذ الوقت، الذى كان يوشك فيه على الضياع. متأثرة هى أيضًا لأن تجد نفسها أمام الرجل الحكيم. تذكرت تلك الحكايات الرائعة التى رواها لها العَم مَآ عن تانجمينا. أصبح

تانجمينا عجوزًا الآن، لكنه رغم السن لم يفقد صراحته.

"عم تانجمينا، أيمكن أن تحدثنى عن الرجل الحكيم؟"

الرجل الحكيم هو مَن يمنح ما لديه بلا شكوى أو صياح فى كل مكان. لا يتفاخر بأنه ساعد أخاه. مَن يضبط أعصابه ويتماسك فى مواقف محددة. ذلك ما يمنحه طول الأجل. إنه يفكر بتعقل قبل أن يتكلم، وعندما يتكلم يكون كمَن يطرق بالنار ويصوغ بالبرودة حتى لا ينشرخ الحديد.

هذه الأقوال مفعمة بالحس السليم، ومَن قالها متعقل، أضاف العَم مَآ، كأن لدى المسنين نفس التفكير.

أكمل تانجمينا:

- دينيتِى، لقد اخترتِ طريقًا صعبًا. هذا صحيح، فقد كان بإمكانك أن تفعلِى مثل الأخريات، أى تبحثِين عن وظيفة ثابتة وتكوِّنين أسرة. لكنكِ قبلتِ المسيح وأردت خدمته. فلا يجب أن تتركِى هذا الطريق. فأنتِ الفتاة الوحيدة فى قريتنا التى نجحت فى دراستها. وليس أملنا أن نراكِ بين يدَى رجل، لأن هذا الموضوع حُسم بالفعل. فأنتِ حرة فى اختيارك. ونحن نعتقد، مثل الجميع، أنكِ سمحتِ لكثيرين باكتشاف قريتنا، والتعرف على سلالة الكالباس. أترين! لقد أصبحت أنا والعَم مَآ عجوزين تمامًا، وأقدامنا تقريبًا فى

القبر. ولا نعتقد أننا سنعرف بعد الآن فرحة أخرى مثل ما منحتها لنا نذورك اليوم. فلتذكري أن دموعك على قبرنا لا تستحق العناء، لأنكِ أكملتِ المهمة المنتظرة منك: أنت تُمثلين ـ من الآن ـ امرأة مويل، امرأة مبجلة ومحترمة.

●●●

## صدر من هذه السلسلة

١ ـ «ملكة الصمت» للكاتبة الفرنسية «مارى نيمييه» ـ رواية ـ جائزة ميديسيس.

٢ ـ «فتاة من شارتر» للكاتب الفرنسى «بيير بيجى» ـ رواية ـ جائزة «إنتر».

٣ ـ «موال البيات والنوم» للكاتب المصرى «خيرى شلبى» ـ رواية ـ جائزة الدولة التقديرية.

٤ ـ «أوائل زيارات الدهشة» للشاعر المصرى «محمد عفيفى مطر» ـ سيرة ذاتية ـ جائزة «سلطان العويس».

٥ ـ «اللمس» للكاتبة السعودية «ملحة عبدالله» ـ مسرح ـ جائزة «أبها».

٦ ـ «عاشوا فى حياتى» للكاتب المصرى «أنيس منصور» ـ سيرة ذاتية ـ «جائزة مبارك».

٧ ـ «قبلة الحياة» للكاتب المصرى «فؤاد قنديل» ـ رواية ـ «جائزة التفوق».

٨ ـ «ليلة الحنة» للكاتبة المصرية «فتحية العسال» ـ مسرح ـ «جائزة التفوق».

٩ ـ العاشقات ـ للكاتبة النمساوية «إلفريدة يلينك» ـ رواية ـ «جائزة نوبل».

١٠ ـ نوّة الكرم، للكاتبة المصرية نجوى شعبان، رواية، «جائزة الدولة التشجيعية».

١١- «الفسكونت المشطور» للكاتب الإيطالى - إيتالوكالفينو.
رواية (عدد خاص) جائزة «فياريچيو».

١٢- القلعة البيضاء / للكاتب التركى أورهان باموق - رواية - «جائزة نوبل».

١٣ - أين تذهب طيور المحيط/ للكاتب المصرى إبراهيم عبدالمجيد - أدب رحلات - «جائزة التفوق».

١٤ - قرية ظالمة / للكاتب المصرى محمد كامل حسين - عدد خاص - «جائزة الدولة للأدب».

١٥ - الرجل البطىء / للكاتب الجنوب أفريقى ج . م . كوتسى - رواية - «جائزة نوبل».

١٦ - طحالب / للكاتبة الجنوب إفريقية مارى واطسون - متتالية قصصية / «جائزة كين» .

١٧ - شوشا / للكاتب البولندى اسحق باشيفيس سنجر/ رواية / «جائزة نوبل».

١٨ - شارع ميجل/ للكاتب من ترينداد/ ف. س. نايبول. رواية/ «جائزة نوبل».

١٩ - الحياة الجديدة - للكاتب التركى «أورهان باموق» - رواية - «جائزة نوبل».

٢٠ - عشر مسرحيات مختارة - للكاتب الإنجليزى «هارولد بنتر» - مسرح - «جائزة نوبل».

٢١ - الآخر مثلى - للكاتب البرتغالى «جوزيه ساراماجو» - رواية - «جائزة نوبل».

٢٢ ـ المستبعدون ـ للكاتبة النمساوية «إلفريدة يلينك» ـ رواية ـ «جائزة نوبل».

٢٣ ـ الأنثى كنوع ـ للكتابة الأمريكية «جويس كارول أوتس» ـ قصص ـ «جائزة بن مالامود».

٢٤ ـ ثلاثة أيام عند أمى ـ للكاتب الفرنسى «فرانسوا فايرجان» ـ رواية ـ «جائزة الجونكور».

٢٥ ـ اسطنبول.. الذكريات والمدينة.. للكاتب التركى «أورهان باموق».. «جائزة نوبل».

٢٦ ـ الطوف الحجرى.. للكاتب البرتغالى «جوسيه سارامارجو».. رواية.. «جائزة نوبل».

٢٧ ـ نار وريبة.. للكاتبة الألمانية «بريچيتّه كروناور» مختارات جائزة «چورج بوشنر الكبرى».

٢٨ ـ الذكريات الصغيرة.. للكاتب البرتغالى «جوسيه ساراماجو» .. سيرة ذاتية.. «جائزة نوبل».

٢٩ ـ إليزابيث كُستّلّو.. للكاتب الجنوب إفريقى ج. م. كوتسى .. رواية.. «جائزة نوبل».

٣٠ ـ السيدة ميلانى والسيدة مارتا والسيدة جيرترود.. للكاتبة الألمانية بريچيته كروناور .. قصص.. «جائزة چورج بوشنر الكبرى».

٣١ ـ حين تقطعت الأوصال .. للكاتبة المكسيكية أمبارو دابيللا.. قصص.. «جائزة بيرببياروبيا».

٣٢– مارتش.. للكاتبة الأمريكية «جيرالدين بروكس» رواية.: «جائزة البوليتزر».

٣٣ – اغتنم الفرصة.. للكاتب الكندى «سول بيللو».. رواية.. «جائزة نوبل للآداب».

٣٤ – البصيرة.. للكاتب البرتغالى «جوسيه ساراماجو».. رواية.. «جائزة نوبل».

٣٥ – بريك لين.. للكاتبة الإنجليزية البنغالية.. «مونيكا على».. رواية.. «جائزة البوكر».

٣٦- بريد بغداد.. للكاتب التشيلى «خوسيه ميجيل باراس».. رواية.. «الجائزة الوطنية للآداب».

٣٧ – عن الجمال.. للكاتبة البريطانية «زادى سميث» رواية.. «جائزة الأورانج».

٣٨ – العار.. للكاتب الجنوب إفريقي ج. م. كوتسى.. رواية.. «جائزة نوبل».

٣٩ – قبلات سينمائية.. للكاتب الفرنسى إيريك فوتورينو.. رواية.. «جائزة الفيمينا».

٤٠ ـ هكذا كانت الوحدة.. للكاتب الإسبانى خوان خوسيه مياس.. رواية.. «جائزة نادال».

٤١ ـ الشلالات.. للكاتبة الأمريكية چويس كارول أوتس.. رواية.. «جائزة الفيمينا».

٤٢ ـ العشب يغنى.. للكاتبة الإنجليزية دوريس ليسنج.. رواية.. «جائزة نوبل».

٤٣ ـ العالم.. للكاتب الإسبانى خوان خوسيه مياس.. رواية.. «جائزة بلانيتا».

٤٤ ـ ميراث الخسارة.. للكاتبة الهندية كيران ديساى.. ر واية.. «جائزة البوكر».

٤٥ ـ الطفل الخامس.. للكاتبة الإنجليزية دوريس ليسنج.. رواية.. «جائزة نوبل».

٤٦ ـ بن يجوب العالم.. للكاتبة الإنجليزية دوريس ليسنج.. رواية.. «جائزة نوبل».

٤٧ ـ ثورة الأرض.. للكاتب البرتغالى جوزيه ساراماجو.. رواية.. «جائزة نوبل».

٤٨ ـ ملك أفغانستان لم يزوجنا.. للكاتبة الفرنسية انجريد توبوا.. رواية.. «جائزة الرواية الأولى فى فرنسا».

٤٩ ـ الكهف.. للكاتب البرتغالى جوزيه ساراماجو.. رواية.. «جائزة نوبل».

٥٠ ـ يوميات عام سئ.. للكاتب الجنوب إفريقى ج.م كوتسى.. رواية.. «جائزة نوبل».

٥١ ـ كازانوفا.. للكاتب الإنجليزى أندرو ميللر.. رواية.

٥٢ ـ انقطاعات الموت.. للكاتب البرتغالى جوزيه ساراماجو.. رواية.. «جائزة نوبل».

٥٣ ـ العم الصغير.. للكاتب الألمانى شيركو فتّاح.. رواية.. «جائزة هيلده دومين لأدب فى المنفى».

٥٤ ـ اللعب مع النمر.. للكاتبة الانجليزية دوريس ليسنج.. «جائزة نوبل».

٥٥ ـ فى أرضٍ على الحدود.. للكاتب الألمانى شيركو فتّاح.. رواية.. «جائزة نظرات أدبية».

٥٦ ـ الإرهابية الطيبة.. للكاتبة الإنجليزية دوريس ليسنج.. رواية.. جائزة نوبل.

٥٧ ـ المسرحيات الكبرى جـ١ .. للكاتب الإنجليزى «هارولد بنتر» .. مسرح.. جائزة نوبل.

٥٨ ـ المسرحيات الكبرى جـ ٢ .. للكاتب الإنجليزى «هارولد بنتر.. مسرح.. جائزة نوبل.

٥٩ ـ نصف شمس صفراء.. للكاتبة النيجيرية «تشيماماندا نجوزى آديتشى» .. رواية.. جائزة الأورانج.

٦٠ ـ مذكرات چين سومرز «مذكرات جارة طيبة».. للكاتبة الإنجليزية دوريس ليسنج.. رواية.. جائزة نوبل.

٦١ ـ مذكرات چين سومرز «إن العجوز استطاعت».. للكاتبة الإنجليزية دوريس ليسنج.. رواية.. جائزة نوبل.

٦٢ ـ الحوت.. للكاتب الفرنسى جان مارى جوستاف لوكليزيو.. رواية..جائزة نوبل.

٦٣ ـ رقة الذئاب.. للكاتبة الاسكتلندية «ستيف بينى».. رواية.. جائزة كوستا.

٦٤ ـ رحلة العم ما.. للكاتب الجابونى چان ديڤاسا نياما.. رواية.. جائزة الأدب الكبرى لأفريقيا السوداء..

٦٥ ـ مسيرة الفيل.. للكاتب البرتغالى «جوزيه ساراماجو» رواية.. جائزة نوبل.

٦٦ ـ كرسى النسر.. للكاتب المكسيكى «كارلوس فوينتيس».. رواية.. جائزة ثرفانتيس.

٦٧ ـ داى.. للكاتبة الاسكتلندية «أ. ل. كيندى».. رواية.. جائزة كوستا.

٦٨ ـ الحب المدمر.. للكاتب الأمريكى الكندى «دي واى بيشارد».. رواية.. جائزة الكومنولث.

٦٩ ـ أين نذهب يابابا؟.. للكاتب الفرنسى «جون لوى فورنييه».. رواية.. جائزة الفيمينا.

## يصدر قريباً من هذه السلسلة

١ ـ صخب الميراث.. جان ديڤاسا نياما.. جائزة الأدب الكبرى لإفريقيا السوداء ٢٠٠٩.

٢ ـ كتاب الرسم والخط.. جوزيه ساراماجو.. جائزة نوبل فى الآداب ١٩٩٨.

٣ـ المؤتمر الأخير.. مارك بروسون جائزة الأكاديمية الفرنسية الكبرى للرواية ٢٠٠٨.

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب
ص. ب : ٢٣٥ الرقم البريدى : ١١٧٩٤ رمسيس
www. egyptianbook org.eg
E - mail : info@egyptian.org.eg

**الرواية**

"الكالباس" هو اسم القبيلة التى ينتمى اليها بطل الثلاثية "العم ما". ومعناها المعجمى ثمرة الدباء أو الكرينب هذا هو العنوان الذى تندرج تحته ثلاثية نياما ويضم ثلاث روايات.. "رحلة العم ما" و "نداء دينيتى" و"صخب الميراث".

يكتب الشاعر و المترجم "رفعت سلام" فى مقدمته للثلاثية "أن الأسطورة المركزية فى هذا العمل الملحمى هى أسطورة الأسلاف المراقبين للحياة والأبناء، هؤلاء الذين تظل إشاراتهم ـ فى اللحظات الحاسمة أو المأزومة ـ طوق نجاة ـ فالموت الذى أخذهم لا يعنى سوى حالة مغايرة من حالات الحياة و استمرارية الفعالية فى حياة الأبناء والأحفاد، بل فى الحياة بأسرها. إنهم عين الأبدية، وبصيرة اللانهائى، والخيمة الكبرى التى تلف الكون والوجود، ومنهم تنبت وتترعرع الأساطير الفرعية الصغرى التى هى ـ فى الحياة والكتابة ـ ليست بأساطير، بل حقائق وجودية، ذات فاعلية مؤثرة محققة، وليست متخيلة؛ فهى جزء حى من الحياة العقلية واليومية".

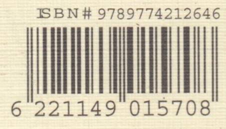
**الروائى: جان ديفاسانياما، روائى جابونى**
**الجائزة: جائزة الأدب الكبرى لإفريقيا السوداء ٢٠٠٩.**







ISBN# 9789774212646




الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٠ جنيهات